الدكتور
نديم البيطار

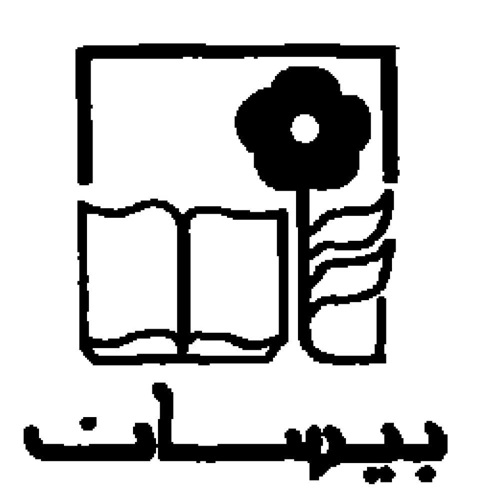
حدود اليسار الثوري كظاهرة تاريخية



حدود اليسار الثوري
كظاهـرة تاريخيـة

الدكتور نديم البيطار

حدود اليسار الثوري كظاهرة تاريخية


بيسان

• اسم الكتاب: حدود اليسار الثوري كظاهرة تاريخية
• المــــؤلـف: الدكتور نديـم البيطـار
• الطبعة الثانية: آب (أغسطس) 2003م.

• الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام
ص. ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان
هاتف: 351291 ـ فاكس: 747089 ـ 1 ـ 961
بريد الكتروني: bisanbok@lynx.net.lb

المقدمة[1]

(1) هذه المقدمة دمجت بشكل مختصر بين المقدمة وكلمة الخاتمة في الطبعة الأولى، وذلك لترابطهما في الفكرة الأساسية تصح كمقدمة أو خاتمة. هذا الدمج لم يحدث أي تعديل في المعنى أو حتى في صياغته الأساسية.

هذه دراسة أخرى في مجموعة الدراسات التي قدمتها ولا أزال أتابع تقديمها كإسهام منظم (Systematic) في بناء نظرية وحدوية علمية جامعة[1] يمكن أن تكون ليس فقط دليلاً للعمل الوحدوي بل طريقاً معيناً إلى إدراك التاريخ السياسي من زاوية معينة. هذا الإدراك يشكل أيضاً قصداً أساسياً في كتاباتي لأنه يعني وعياً تاريخياً يحتاج إليه ليس فقط كل نضال ثوري أو سياسي كبير، بل العربي نفسه كإنسان يعيش في التاريخ، ومن التاريخ، وبشكل خاص التاريخ الحديث، لأن هذا التاريخ أصبح لأول مرة في مجراه الزماني الطويل واقعاً قائماً في ذاته، خارج الحقائق الميتافيزيقية الما ورائية التي كانت تشده إليها. إنني أقول نضالاً وحدوياً، لأن كل نضال عربي يجب أن يكون ـ كما فسرت في سياقات مختلفة ـ نضالاً وحدوياً أو أن لا يكون. أقول أيضاً وحدوياً فقط وليس وحدوياً ثورياً، لأن «النضال الوحدوي» هو نضال ثوري، ولا يكون وحدوياً إن لم يكن ثورياً «فالثورية» تتبع طبيعته الوحدوية وتنتج عنها. كل نضال ثوري أو سياسي كبير يحتاج أولاً إلى نظرية يتجه بها، نظرية تكون علمية حول موضوعه أو المقاصد الأساسية التي يعمل لها. فالعملية أصبحت ممكنة، بل ضرورة له في العصر الحديث الذي نعيش فيه.

---

(1) كلمة جامعة تعني هنا انشغال النظرية بجوانب الموضوع الأساسية، وهو انشغال يعكس في الواقع علمية النظرية، لأن العلمية تعني تجاهل الخاص ودراسة العام، أي القوانين أو العلاقات الانتظامية التي يكشف عنها.

هذا النضال الوحدوي يعني حالياً وقبل كل شيء طريق الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة، لأن دولة الوحدة هي شرط أساسي لا يمكن دونه تحقيق مقاصده العليا. ولكن تحديد هذه الطريق تحديداً علمياً يعني أنه يجب أولاً وقبل كل شيء الرجوع إلى الظاهرة الوحدوية نفسها كظاهرة تاريخية، أي إلى التجارب التي كانت تنتقل فيها عبر التاريخ مجتمعات مجزأة وكيانات سياسية مستقلة من حالة مجزأة إلى حالة وحدة، دراستها وتحليلها بغية الكشف عن القوانين التي كانت ترافق وتسود هذا الانتقال أو سَيرورة التوحيد السياسي، فالمجتمع العربي ليس أول مجتمع مجزأ يحاول تجاوز تجزئته في خلق دولة واحدة جديدة. هذا النوع من التجارب كان يشكل أحد جوانب التاريخ الاجتماعي السياسي الأساسية، ولهذا كان يجب علينا إن كنا حقاً دعاة منهج علمي صحيح، الرجوع إلى هذه الظاهرة فندرسها ونراجعها في موضوعيتها المستقلة التي تعبر عن ذاتها في تلك القوانين أو العلاقات الانتظامية الواحدة (regularities) التي تعيد ذاتها فيها فنعمل معها وفي ضوئها في نضالنا الوحدوي.

وجود هذه القوانين الواحدة ـ كما دللت على ذلك في كتاب «من التجزئة. . . إلى الوحدة» ـ التي كانت تلتقي فيها هذه التجارب عبر التاريخ رغم اختلاف الزمان والمكان والمضامين الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية، الخ. . . يدل بوضوح أن عملية التوحيد السياسي تتبع في ذاتها ديالكتيكاً موضوعياً مستقلاً عن الإرادات الفردية، وأن العمل الوحدوي الذي يتميز بالوعي العلمي الصحيح هو بالتالي العمل الذي يعمل مع هذه القوانين فلا يناقضها، لأن العمل معها وفي ضوئها ليس فقط شرطاً أساسياً لا يمكن تجنبه في أي عمل وحدوي يريد النجاح، بل في تجنب أو الحد من بعض الجوانب السلبية التي تترتب على العمل معها.

هذا ما كان يجب صنعه، ولكن الفكر الوحدوي كان غريباً عن ذلك، وقد أغفل تماماً وكلياً هذه الناحية العلمية الأساسية في تحديد الطريق إلى الوحدة. فعلى الرغم من الخدمات الفكرية التي قدمها هذا الفكر في دراسة جوانب الواقع العربي المختلفة، وفي الدعوة إلى دولة الوحدة وإيضاح ضرورتها، فإنه فشل تماماً في معالجة أهم مشكلة تجابه العمل الوحدوي، وهي طريق الانتقال من التجزئة إلى الوحدة. فهو كان

يحدد هذه الطريق بشكل مثالي أو تبشيري، دون ما يقتضيه المنهج العلمي من رجوع إلى الظاهرة الوحدوية، بَله دون وعي حتى بوجودها.

لهذا كان من الضروري القيام بعملية تصحيح جذرية له، وهو تصحيح يعني نظرية وحدوية علمية لتجارب التاريخ الوحدوية والثورية تكشف عن القوانين الأساسية والثانوية التي تسودها.

في كتاب النظرية الاقتصادية والطريق إلى الوحدة العربية ـ القسم الأول منه[1] ـ دللت بالرجوع إلى هذه التجارب أن الطريق الاقتصادية لا تقود في ذاتها إلى توحيد سياسي ناجح، وأنها تشكل في أحسن الحالات فقط عنصراً مساعداً أو إعدادياً، وأن الطريق الأساسية هي طريق سياسية. في كتاب «من التجزئة إلى الوحدة» كشفت عن القوانين الأساسية وعما أسميته بالقوانين الثانوية التي كانت هذه التجارب تدل عليها. في كتاب «حدود الهوية القومية: نقد عام» دللت، فيما دللت عليه، أن دولة الوحدة ليست حتمية يفرضها وجودنا القومي الواحد، وأن الوجود القومي سيرورة وليس جوهراً، ولا يدفع في ذاته إلى دولة واحدة، وأنه لا يشكل حتى قانوناً أساسياً، بل قانوناً ثانوياً أو إعدادياً، وأن التوحيد السياسي في أي مكان يعتمد على توفر هذه القوانين الأساسية والقدرة على العمل بها.

في الدراسة الحالية ندخل صعيداً آخر بين الأصعدة التي يجب أن تمتد إليه ليس فقط النظرية الوحدوية التي نبهت إليها بل كل نظرية ثورية، لأن كل تصور ثوري للواقع يعني من حيث طبيعته ذاتها يساراً ثورياً يعبر عنه ويعمل على إعادة تكوين هذا الواقع في ضوئه، ضوء النظرية التي يرجع إليها. فكل نظرية ثورية تعني ممارسة ثورية في الواقع ترمي إلى تحويله في صورتها، وهذا يتطلب تقديم نظرية علمية جامعة لهذه الممارسة، أي نظرية تحاول أن تكشف عن العناصر الأساسية التي تميزها وتعيد ذاتها في التجارب الثورية المختلفة التي تعبر عنها في الواقع. هذا ما حاولت هذه الدراسة القيام به وتحقيقه. فكما أن تحديد الطريق إلى الوحدة لا يصح من دون نظرية علمية

(1) في الطبعة الثانية نشر هذا الكتاب ككتابين مستقلين، الأول بعنوان «نقد المفهوم الاقتصادي حول الطريق إلى التوحيد السياسي. والثاني بعنوان «نقد المفهوم الاقتصادي حول التاريخ».

جامعة تحددها في ضوء القوانين الأساسية الواحدة التي كانت تسود عملية التوحيد السياسي عبر تجارب التاريخ الوحدوية، كذلك أيضاً لا يصح تحديد اليسار الوحدوي من دون نظرية علمية حول اليسار الثوري الفعال الذي كان ينقل التصور الثوري إلى الواقع ويعمل على تحويل هذا الواقع في صورته. لهذا كان من الضروري تقديم هذه النظرية العلمية حول اليسار الثوري كظاهرة تاريخية، ذلك كأساس لأي تحديد علمي لليسار الوحدوي، كقياس نرجع إليه كما نرجع إلى النظرية الوحدوية العلمية التي نبهت إليها، في تفسير فشل هذا اليسار في تحقيق مقاصد النضال الوحدوي. هذا يعني في دوره نظرية تفسر هذا الفشل. إنها نظرية تفرض ذاتها في ضوء هاتين النظريتين، وكتسلسل عقلاني لهما. فهذا النضال الوحدوي فشل فشلاً فادحاً في ترجمة مقاصده إلى واقع، وكان تاريخه، ابتداءً من 1961 أو على الأقل 1970. تاريخ هزائم متواصلة. لهذا وجب بالتالي، ليس فقط كضرورة فكرية نضالية ملحة تقديم هذه النظرية. هذا ما حققته في كتاب «سقوط الإينتليجنسيا العربية»[1].

هذا يعني تحقيق الشروط الثلاثة الأساسية التي يجب أن تتوفر لأي وعي ثوري صحيح، متكامل الأبعاد الأساسية ـ نظرية وحدوية علمية حول التوحيد السياسي كظاهرة تاريخية، نظرية حول اليسار الثوري كظاهرة تاريخية، ونظرية حول فشل اليسار العربي الذي كان عاجزاً عن تحقيق مقاصده. فهذا اليسار الذي كان لا يمكن أن يكون حقاً ثورياً دون أن يكون وحدوياً، فشل حتى الآن في تحقيق دولة الوحدة، تحقيق خطوات توحيد سياسي فعالة نحوها، وفشله يعود، فيما يعود إليه، إلى عجزه ليس فقط عن العمل في ضوء النظرية الأولى والنظرية الثانية بل عن إدراك ضرورة توفرهما له فكان يعمل بعيداً عنهما، متقوقع في تكوين عقلي غريب عليهما.

قصدي الأساسي من كتاباتي ـ باستثناء تلك التي تدور حول موضوعات محلية صرفة ـ هو إدراك التاريخ في زوايا مختلفة، ولهذا كنت عند دراسة موضوع معين

(1) الكتاب الحالي يقدم مثلاً آخر على هذا السقوط سقوط الإنتليجنسيا، لأنه يدل بوضوح على عقليتها التبشيرية التي تتجاهل الواقع الموضوعي وكأنه غير موجود. فلو أنها درست تجارب التاريخ الثورية، والكيفية التي كان يعمل بها اليسار الثوري الناجح وعملت بذلك، ما كان تاريخها تاريخ الهزائم التي كشفت عنه.

أنشغل به كظاهرة تاريخية، ثم أنتقل من ذلك إلى تطبيق النتائج التي أصل إليها في دراسة الوضع أو النضال العربي (الوحدوي) من زاوية معينة. لهذا كان من الممكن لأي مثقف في العالم ينشغل بموضوع أي كتاب من هذه الكتابات أن يقرأ الكتاب وكأنه موجه إليه، إذ نحن فصلنا هذا الجزء الأخير المحدود عنه.

دراسة الموضوع كظاهرة تاريخية تعني طبعاً إسقاط الخاص الذي يميزه محلياً والتركيز على العام الذي يشارك فيه، وهذا ما يفرضه المنهج العلمي الذي يتطلع إلى تحديد العقلانية التي تخترق الأحداث الاجتماعية والتحولات التاريخية. فالتفاسير العلمية تفسر الوقائع بدمجها والكشف عن القوانين التي توحد بينها. عنوان الكتاب يشير، في الواقع إلى هذه القاعدة العلمية التي ينطلق منها، إلى الأطروحة الأساسية التي يعبر عنها. فاليسار ليس إرادة سياسية فقط، بل حدود موضوعية خاصة يعمل فيها ومنها، ويجب كي يكون يساراً سليماً وفعالاً يساراً قادراً على القيام بوظيفته، أن يدرك هذه الحدود، أن يحقق إدراكاً علمياً يتجه به، فلا يتجاوزها أو يتجاهلها وكأنها غير موجودة. هذا يعني أن اليسار الذي ننشغل به هنا ليس يساراً خاصاً يقتصر على هذا البلد أو ذاك يساراً فرنسياً، هندياً، الخ. . . بل اليسار كظاهرة تاريخية. فاليسارات الخاصة تفرز نموذجاً عاماً، بنية أو عناصر واحدة عامة تتكرر فيها، وتلتقي عندها رغم الاختلافات الفردية بينها أو الأوضاع الخاصة التي قد تعمل فيها. هذا يعني وجود جدلية موضوعية تدفع إلى هذه العناصر أو البنية الواحدة.

الدراسة تسقط بالتالي، ككل دراسة علمية، «الخاص» الذي يميز كلاً من هذه اليسارات، وتركز على «العام» الذي تشارك فيه، لأن هذا العام هو الجانب الأساسي فيها، ويشكل موضوع النظرية حول اليسار كظاهرة تاريخية.

دراسة هذه الظاهرة ضرورية لكل عمل ثوري أو سياسي كبير، لأن اليسار كان يشكل تاريخياً الأداة التي يرجع إليها هذا العمل في ترجمة ذاته إلى الواقع. إنه الكيفية التي يمارس بها ذاته، الممارسات والأعمال التي تصدر عنه في تغيير الواقع في صورته، صورة الوعي الذي يدرك به هذا الواقع قصد تطويعه لمقاصده. هذا يعني أن الوعي الذي يعمل على تحقيق هذا القصد يجب أن يكون ليس فقط موضوعياً، بل

علمياً. لهذا ليس من الغريب أن يكون هذا النوع من اليسار ظاهرة حديثة ترتبط بالحداثة التي تعني، فيما تعنيه، أن العقل العلمي هو الحكم النهائي، وأن الإنسان هو المقياس الأعلى لكل شيء. هذا يعني أن هذا اليسار ظاهرة تاريخية كبرى يجب أن نقف عندها وندركها، لأن إدراك المجتمع الحديث والحداثة، أو التاريخ الذي تمخض عنهما، يفترض هذا النوع من الإدراك.

الإنسان قد يجد نفسه كفرد غريباً عن النتائج التي تصدر عن الأعمال الإنسانية، خارج تسلسلها وتعاقبها، ولكنه لا يستسلم لها، بل يحاول التدخل فيها رغم اعترافه بأنها تخضع لقوانين أو لانتظاميات موضوعية توجهها، وذلك أن الوعي الذي يتميز به كإنسان يدفعه إلى الوقوف على مسافة ما منها، لأن هذه المسافة تسمح له بأن يحلل وينتقد ويقيم، وبأن يكشف في مجرى ذلك عن الاحتمالات الأساسية التي يمكن أن تتمخض عنها، وبالتالي العمل على ضبط هذه النتائج والاختيار بين هذه الاحتمالات في ضوء المقاصد التي يتطلع إلى تحقيقها، أو حتى تغيير أو تعديل هذه المقاصد نفسها في ضوء تلك النتائج والاحتمالات. لهذا كان المفهوم الأساسي القائل بأن الحرية هي إدراك للضرورة من أهم النتائج التي توصل إليها ليس فقط علم الاجتماع وعلم النفس، مثلاً، بل الفلسفة ابتداء من هيجل. هذا النوع من الوحي، سواء كان حدسياً أو عقلانياً وعلمياً هو الذي كان يوجه بدرجات مختلفة أعمال اليسار الثوري. ما كان يميز هذا اليسار ـ بدرجات مختلفة ـ كان إدراك ضرورة الرجوع إلى الواقع الموضوعي، وممارسته بشكل علمي، وفاعليته التاريخية كانت ترتبط بقدر كبير بهذا الإدراك. توفر الأوضاع الموضوعية الملائمة لفاعلية كهذه كان طبعاً الجانب الآخر لهذه الفاعلية أو القدر الذي يتحقق منها. ولكن اليسار كان يحتاج إلى هذا النوع من الإدراك كي يكتشف وجودها وطريقة التعامل معها. هذا ما كان يميز اليسار الثوري عن غيره من أشكال اليسار التاريخية.

التحول الثوري
والمنهج الديالكتيكي

من الحقائق المعروفة أن المعنى الكامل أو الواضح لمرحلة ما، سواء أكان إيجابياً أو سلبياً من وجهة نظر معينة، لا ينكشف إلا في القليل النادر أو بشكل محدود لمعاصري المرحلة. ميزة اليسار الثوري الفعال الأولى والأساسية هي قدرته على رؤية هذا المعنى والعمل معه. الخروج من وعلى هذا المعنى أو الاتجاه الأساسي الذي ينطوي عليه في المدى البعيد ديالكتيك مرحلة ما يميز ليس فقط الطبقات الرجعية والمحافظة، بل الحركات الثورية أو بالأحرى الجماعات الثورية التي تتركز على صور وتصورات مجردة لا تتفاعل مع ديالكتيك الواقع كما يصنع نفسه، أو على «ما يجب أن يكون» دون رابطة ديالكتيكية (جدلية) ب «ما يمكن أن يكون». في هذا الخروج يلتقي، في الواقع، اليسار باليمين.

المنهج الذي يستطيع به اليسار إدراك الواقع في تحولاته الموضوعية، التفاعل معها بشكل فعال، والنجاح في العمل معها، وعن طريق العمل معها توجيهها نحو مقاصده الثورية، هو المنهج الديالكتيكي. مقومات هذا المنهج الأساسية من زاوية هذا المنظور الثوري هي:

أولاً: المنهج الديالكتيكي يرى أن الواقع الاجتماعي السياسي يتميز بموضوعية مستقلة تكشف عن اتجاهات وتحولات مترابطة مستقلة عن إرادة الإنسان.

مفكرون عديدون، من مختلف المدارس والأفكار، كانوا يلاحظون أن أعمال

الأفراد والجماعات غالباً ما تقود إلى نتائج لم تكن مقصودة أو مرغوبة. فمن الممكن اتخاذ مجموعة من القرارات كل منها على حدة يتفرع من أسباب جيدة معقولة، غير أنها في النهاية تؤدي ككل إلى نتائج لم يكن أحد يريدها أو يتوقعها.

إن تولستوي قد يكون مبالغاً عندما كتب في «الحرب والسلام» بأن «الإنسان يعيش واعياً لذاته، ولكنه أداة غير واعية في تحقيق مقاصد الإنسانية التاريخية العامة». ولكن مما لا شكِ أن الإنسان يكون ويبقى أداة في خدمة تحولات الواقع الاجتماعي التاريخي والمقاصد التي تتمخض عنها إن لم يحقق إدراكاً موضوعياً لها، فيعمل عن طريق هذا الإدراك على تحقيق قدر من الحرية يسمح له بتطويعها في خدمة ما يريد منها، أو بالأحرى، بتطويع بعض اتجاهاتها وقوانينها في خدمة مقاصد يرغب فيها. إن تفسير التاريخ بالمقاصد الإنسانية الواعية يتنكر كلياً لواقع التاريخ، ولكن المقاصد الإنسانية الواعية لواقع التاريخ والديالكتيك الذي يكشف عنه كانت دائماً تؤثر في حركة هذا الواقع.

هنا في هذا الديالكتيك الموضوعي المستقل نجد ماأسماه هيجل بسخرية التاريخ الماكرة. فالأوضاع التاريخية تفرض علينا التحرك في اتجاهات لم نكن أبداً نتوقعها، وتعطي لأفكارنا مضامين ومعاني لم نكن أبداً نقصدها. لهذا فإن الإنسان كان في كثير من الأحيان يجد نفسه يخدم مقاصد تتناقض تماماً مع المقاصد التى أرادها. إن لينين أعطانا صورة واضحة عن هذا التناقض الأليم عندما أشار في آخر ما كتبه بأن الأمور تسير باتجاه غير الاتجاه الذي أرادوه لها، أن البيروقراطية التي أرادوا التحرر منها أصبحت كابوساً مخيفاً في الدولة والحزب نفسه. إنه نبه متألماً بأن الحزب انزلق في «مستنقع» الاستبداد الذي أرادوا تحرير الإنسان منه، وأن روسيا أصبحت تحكم مرة أخرى كما كانت في عهد الإدارة القيصرية التي أضفى عليها البولشفيك «فقط قشرة سوفياتية».

المنهج الديالكتيكي يحاول دائماً أن يرى البذور والجذور تحت الأرض التي تنمو فيما بعد كنبات وعشب. لهذا فهو يتلمس في الظواهر والأفكار التي قد تكون شاذة وغريبة إشارة تنبىء بتطورات وتحولات جديدة تمثل منعطفاً تاريخياً جديداً.

إن نتائج أفكارنا لا تعكس عادة طبيعتها، وهي تميل إلى الانحراف، الخروج، أو التأخر عنها، وهي عندما تترك دنيا تصوراتنا ومثلنا وتدخل دنيا الممارسة والتطبيق، تنتهي في كثير من الأحيان في أعمال لا تنطبق عليها مهما كانت المقاصد أصيلة. إن أوديبوس أراد أن يتحاشى نبوءة الكاهن، ومحاولته ذاتها حققت النبوءة. إن بروتوس أراد بأعماله أن يصون الحرية الرومانية، ولكن النتيجة كانت تدميرها.

في التراجيديا اليونانية الكبيرة نرى أن الصراع النهائي الحاسم الذي يقود البطل إلى الفشل والموت يحدث في ذاته، في وجدانه. هذا كان يشكل دائماً سمة القصة أو الأدب الكبير. النوع الآخر من الأدب العادي كان، بدلاً من ذلك، يلجأ إلى تآمر كائن وغد في بناء الدراما وما يحدث فيها من نتائج سيئة. هذا كان أيضاً موقف الناس عامة في تفسير ما يحدث من أحداث لا يحبونها. هذا مفهوم مغلوط و لا شك يرجع إلى غياب أو عدم توفر الدرجة العالية الضرورية من الوعي الذي يستطيع أن يكشف عن ديالكتيك الواقع الموضوعي المتحول وتفسير الأحداث في ضوئه. العنصر الأساسي في مأساة الإنسان التاريخية والأخلاقية هو ميل الإنسان إلى مقاصد عقلانية تدعو إلى الخير، وعجزه عن تحقيقها، اتجاهه إلى بعض الأهداف وممارسته أعمال تنفي هذه الأهداف. إن الشكوى الكئيبة «إنني أرى الاتجاه الأحسن وأوافق عليه، ولكنني أتبع الاتجاه الأسوأ» أو شكوى بولس الرسول، إنني أرى نفسي تعمل ما لا أريد... هذا النوع من الشكوى كان يعبر عن هذا التناقض القائم بين مقاصد نرغب فيها ونعمل لها وبين ممارسات ونتائج تتغاير معها.

المعرفة العلمية الموضوعية لديالكتيك الواقع المستقل هي التي توفر لنا مخرجاً نسبياً من هذا التناقض وقدراً من الحرية يسمح لنا بتطويعه، إن تروتسكي كتب قبل وفاته بأن هيجل كان يجب أن يردد بأن العقلاني هو الواقعي (real) وليس أن الواقعي هو عقلاني، وهذا يعني أن كل مرة فكرة تطابق حاجات التطور الموضوعي تحقق النصر.

إن العناصر التي تشير إلى ما يمكن أن يكون عليه مجتمع ما أو مرحلة ما في المستقبل تكون موجودة في الحاضر، في الاتجاهات والتناقضات التي ينطوي عليها

ويتمخض تدريجياً عنها، وقدرة الإنسان على التأثير في الواقع ومناورته في سبيل مقاصده ترتبط بالإمكانات والتحولات التي يكون التاريخ نفسه قد أفرزها. الوعي الثوري يستطيع ويجب أن يوسع دائرة هذا التأثير، هذه الحرية، عن طريق تحليلات موضوعية علمية للاتجاهات التاريخية التي تحدد هذه الحرية وللاحتمالات التي تدعمها.

«المهم ليس ما يفكر به هذا أو ذاك البروليتاري أو حتى ما تتصوره البروليتاريا كلها كهدف لها في الوقت الحاضر. المهم هو» كما كتب ماركس: «ما يضطرها التاريخ على صنعه... إن هدفها وعملها التاريخي مكتوبان بشكل نهائي في وضع حياتها نفسه، وفي نظام المجتمع البورجوازي المعاصر كله».

العمل الثوري يستطيع أن يمارس الحرية والقدرة على الممارسة الفعالة فقط عندما يعي الضرورة الموضوعية التي تسود الواقع، لهذا فهو يفرض الوحدة بين الفكر والعمل، بين العقل والتحول التاريخي، بين التفكير والممارسة. الحرية لا تعني الممارسة «الحرة» للعقل والإرادة والاختيار، ولكن قبل كل شيء الوعي الموضوعي للحدود التي يضعها التاريخ على هذه الممارسة. الواقع الموضوعي هو الذي يفرز المحتمل والممكن، واليسار الثوري يعني وعياً وممارسة لهذه الاحتمالات والإمكانات التي تولد وتنمو من التناقضات التي ينطوي عليها.

اليسار الثوري يتميز بسمة تاريخية قوية، عميقة الجذور، لأنه يرى أن القضايا والمشاكل التي يهتم بها هي تلك التي وضعها مجرى التاريخ نفسه في جدول أعماله في مرحلة معينة من مراحله المتحركة والمترابطة. المقاصد الثورية تشكل جزءاً من هذا المجرى، وتنتج عن سلسلة طويلة من التحولات التي توجه إليها، إنها في كثير من الأحيان تكون ضمنية في هذه التحولات ولا نستطيع رؤيتها إلا من منظور تاريخي فيما بعد. لهذا فإن التحولات الموضوعية تتقدم أساساً على الوعي، والمعنى الضمني على المعنى الصريح، وعندما يكون الثاني مدعوماً بالأول فقط تستطيع المقاصد التي نقدمها أن تكون فعالة في الواقع. القوى التي تحرك التاريخ وتدفعه قوى متشابكة مترابطة، يشكل كل تحول فيها نتيجة وسبباً لقوى وتحولات أخرى في الاتجاه نفسه،

وهذا يعني تراكمات متواصلة تؤدي فيما بعد إلى تغييرات نوعية. إن حركة الحضارة الحديثة، مثلاً أصبحت سريعة جداً وسرعتها تعود إلى أسباب متأصلة فيها. فالتقدم التقني والعلمي يسير بنسبة هندسية هائلة، وهو تقدم أنجز في العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة أكثر بكثير مما أنجز التاريخ سابقاً. السبب في ذلك يعود إلى كون تراكم المعرفة العلمية التقنية الكبير سهل كثيراً القدرة على الخلق والإبداع، لأنه كثف بشكل كبير فريد العناصر التي تتشكل منها عملية الإبداع والخلق، وهي الدمج بين عناصر سابقة بغية خلق شيء جديد.

هذا يعني أن اليسار الثوري الناجح ليس اغتصاباً تقوم به أقلية حازمة ضد التاريخ أو مجتمع بكامله. فهو ينجح لأن النظام القائم يكون قد أصيب بالانحلال وأصبح عاجزاً عن تجديد ذاته، وهو يصاب بالانحلال والعجز لأنه يتقلص عن مجاراة ديالكتيك التاريخ، يختلف عن حركته ولا يتمكن من استيعابه أو تمثل التحولات التي يكشف عنها، اليسار الثوري الفعال في تغيير الواقع في ضوء تصوره له ينجح بسبب تفسخ وانهيار النظام السابق وليس بسبب ما يميزه من إبداع أو نضج سياسي صرف.

كل تصعيد ثوري يرتبط بإمكانات المرحلة التاريخية التي يحدث فيها، ويجب عليه أن يعمل مع الاتجاهات الموضوعية التي تتفرع عنها. ليس من تصعيد ثوري يمكن له أن يتجاوز المستوى الاجتماعي المادي والفكري الذي يسودها. علاوة على ذلك، يجب على هذا الصعيد الذي يستطيع أن يتحول إلى يسار ثوري فعال أن يدل، ثانياً، بأنه يستطيع إلغاء الإنجازات الثورية الراهنة أو بالأحرى تجاوزها بمنجزات أعلى، وبأن تحققه يوفر فرصة أكبر وأحسن في تحقيق مقاصد ثورية معينة. إن كانت الدعوة إلى هذا التصعيد عاجزة عن التدليل على هذه الوقائع والإمكانات، فإنها تبقى في عالم التجريد ولا يمكنها أن تتحول إلى واقع ثوري. كل دعوة من هذا النوع يجب أن تتميز بالعقلانية الثورية، أي بعقلانية تعني سلوكاً ينطبق على منطق الواقع وحركته. فالعقلانية ليست جوهراً مجرداً، بل تتميز بمقياس موضوعي يمكن اعتماده، وهو مقارنتها بالواقع الموضوعي المتحرك. فإن كان هذا الواقع ينطوي على البذور والقوى والإمكانات والاتجاهات التاريخية التي يمكن لها اعتمادها في التحول من نطاق التجريد إلى نطاق الفعل الثوري الفعال، فإنها تكون عقلانية تاريخية، وبالتالي ثورية.

دون هذا تبقى عقلانية مجردة قد تؤدي إلى تخريب الثورة وتعثيرها أكثر مما قد تخدمها وتفيدها. عقلانية أية دعوة إلى التصعيد أو العمل الثوري ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالممارسة الثورية التي تنقلها أو يجب أن تنقلها إلى الواقع فتحقق ذاتها فيه. كل دعوة من هذا النوع تعني وعياً ديالكتيكياً لواقع واتجاهات وتناقضات الواقع الموضوعي وفي عملية الوعي ذاته تتجاوز هذا الواقع. هنا تكمن صحتها وحقيقتها. فهي تدل على ضرورات الواقع وإمكاناته، على الاتجاهات الموضوعية التي تدعوها إلى تجاوزه في عملية وعيها له، على الإمكانات التاريخية التي تطفو على سطح الوعي أثناء وعيه لضرورات الواقع واتجاهاته، وعبر الممارسة التي تنقله إلى هذا الواقع، فتتمكن من تحويله ودفعه إلى طور جديد.

التصورات والمفاهيم الثورية التي نعبر عنها ليست خالدة خلود «كلمة» الله. فهي صحيحة بالنسبة لمرحلة تاريخية معينة، وعندما نقدمها كأداة تحويل، تثوير أو تصعيد، يجب عليها أن تدخل هذه المرحلة بشكل عضوي وليس كعناصر غريبة. الأشكال الثورية التي نمارسها محتومة سلباً أو إيجابياً بالأشكال الاجتماعية التاريخية التي تتفاعل معها والتي تضع حدوداً للاستجابات الثورية التي تنفتح لها. المنهج الدياليكتيكي يعني أن الواقع يخضع لتحول مستمر، وواجب اليسار الثوري الأول هو استيعاب هذا التحول فلا يتأخر عنه أو يتقدم عليه بشكل يفصله عنه. إنه يعني أن العالم موجود هناك، في الخارج، أن هذا الخارج يشكل وسطاً مستقلاً عنا، أنه ينطوي باستمرار ليس فقط على التحول بل على مفاجآت وتحولات جذرية فجائية تنتج عنه، ولكنها تتبع في الوقت نفسه اتجاهات تشير إليها.

الضرورة هي التي تحدد وتقرر حركة العالم الاجتماعي السياسي، وهي ضرورة تعني هنا أن كل حالة جديدة تتحدد وتتقرر في ضوء الحالة السابقة التي تخرج منها، كما أنها تحدد وتقرر الحالة اللاحقة التي تتفرع منها، فكما أن كل تكنولوجيا جديدة، مثلاً، ظهرت لأن المستوى التقني السابق أو الحاضر جعل من الضروري ظهورها، كذلك أيضاً كل تصعيد ثوري ناجح يظهر لأن المستوى الثوري السابق جعل من الضروري ظهور، الإنسان، كما أشار ماركس، يصنع تاريخه، ولكنه يصنعه في ظل أوضاع موضوعية معينة. العمل الثوري حرية، ولكنها حرية تنبع من وعي لضرورة

تاريخية. فكي تؤدي الدعوة إلى تصعيد ثوري فعلي، يجب أن يعمل التصعيد في أوضاع موضوعية ملائمة له. كل إجراء ثوري يقود إلى إجراءات أخرى كما يقود كل تحول اجتماعي إلى تحول آخر. كلما زاد عدد هذه الإجراءات التي يمكن دمجها، زادت إمكانية الدمج ودرجة الفاعلية الثورية في امتدادها أفقياً وعمودياً.

اليسار الثوري يدرك أن لكل ثورة حياة داخلية خاصة بها، تتشكل من منجزاتها وعلاقة هذه المنجزات ببعضها البعض الآخر. كل ثورة تبدأ بشكل معين، أي ببعض خطوات وتحولات ومنطلقات أولى، وهذه تحدد بدورها الخطوات والتحولات والمنطلقات التي تأتي بعدها، وهكذا دواليك!. كل إنجاز يحدد الإنجاز الذي يأتي بعده، في حلقات مترابطة، كل ثورة تتبع، بكلمة أخرى، ديالكتيكا داخلياً يفرض عليها من الداخل التغيير والتحول. هذا ما يمكن تسميته بالجانب التطوري للثورة. ولكن بالإضافة إلى ذلك، هناك ما يمكن تسميته بالجانب التاريخي، أي علاقتها بالقوى الخارجية التي تعترض طريقها أو تتفاعل معها، وتحدد موقفها بالنسبة لها. فهذه القوى تكون هي الأخرى سلبية أو إيجابية، تعمل مع ديالكتيكها الداخلي فتسانده، أو تتعارض معه وتعثره. الجانبان يترابطان ولا يمكن الفصل بينهما.

اليسار الثوري الصحيح يدرك هذين الصعيدين المتفاعلين، فلا يترك الواحد أو الآخر بأن يغيب عن تخطيطه ووعيه. فهو دائم الرصد لهما، في تحولاتهما وتفاعلهما، فيساند القوى التي تعمل على الدفع ويناهض تلك التي تعرقله. إنه يسار يدرك، بكلمة أخرى، أنه لا يستطيع أن يقفز قفزاً إلى مقاصده، فوق تناقضات هذا الديالكتيك الموضوعي المتعدد الجوانب، أن لهذا الديالكتيك حياة خاصة في تفاعل مستمر مع الخارج، وأن عليه تحديد ممارسته في ضوء إدراك موضوعي لهذه الحياة وليس فقط في ضوء التصور الذي يحمله حول المستقبل.

العمل الثوري ينطوي على فكرة المقاصد. ففي ممارسته نسعى نحو غايات معينة تقوم في المستقبل، ونتصور أن كل غاية نحققها تعني خطوة جديدة في حل المشاكل التي تعترضه وتقليل عددها. ولكن النتيجة لموقف كهذا هي الارتباك، وذلك لأننا عند تحقيق غاية وحل مشكلة أو التقدم خطوة، فإن ما نجده ليس ما كنا نتوقعه،

بل نوعاً آخر من المشاكل الجديدة تحل محل المشاكل السابقة، وتنتج عن التقدم الثوري ذاته، عن نجاحاته نفسها، المفاهيم البسيطة المبسطة للعمل الثوري تدرك فقط وجهاً واحداً من الأحداث عندما تنظر إلى المستقبل، وهي بذلك تتجاهل وتحبس تعقيداته المركبة. إنها لا ترى أن حل مشكلة يعني طرح مشكلة أخرى، وأن تقدم العمل الثوري لا يحدث بشكل هرمي، فالعمل الثوري لا يتشكل من تجاوز لمشاكل سابقة فقط، بل أيضاً من ظهور مشاكل جديدة قد تشكل، وإن كانت مختلفة، خطراً قد لا يقل عن خطر سابقتها، وقد يزيد عليه. اليسار الثوري الصحيح يدرك هذا الديالكتيك التاريخي.

(ثانياً):ـ الميزة الثانية في هذا المنهج الديالكتيكي هي أنه يرى في الواقع الاجتماعي «كلاً» مترابط الأجزاء مما ينطوي عليه من تناقضات وصراعات وتعدد، إنه يشمل في وقت واحد ومترادف «الكل» ـ أي كلٌ يكون موضوعاً له ـ والأجزاء التي يتركب منها. إنه ينشغل بحركة هذه الكليات وعناصرها، وخاصة الحركة القائمة بينهما. المنهج الديالكتيكي يرفض إلغاء الوحدة في التناقض أو التناقض والتعدد في الوحدة، لأن الحركة المتواقتة في الكليات وأجزائها تفترض الطرفين.

التحليل السوسيولوجي نفسه يؤكد قبل كل شيء تقريباً على أهمية التبادلية في طبيعة كل علاقة اجتماعية، ولكن المنهج الديالكتيكي يؤكد، علاوة على ذلك، أن التناقضات تشكل جزءاً متأصلاً في كل حياة أو علاقة اجتماعية. إن عناصر الحياة الاجتماعية وأجزاءها لا تشكل تجمعاً صدفياً أو عرضياً بل نظاماً مترابطاً يتحرك ويتحول تاريخياً ككل اجتماعي واحد. لهذا فإن شكل المعالجة لأية مشكلة نريد حلها يعتمد على طبيعة علاقتها بالمسائل والمشاكل الأخرى التي تتشكل منها قضية التحول الثوري ككل. فهو يرتبط به ولا يصح فصله. هذا لا يعني فقط أن معالجة مشاكل فردية يجب أن ترتبط بمستوى وطبيعة المعالجة العامة للمشاكل العامة الأخرى، بل إن المعالجات الجزئية يجب أن تكون منسجمة متنافسة.

إن كانت جميع العناصر التي يتشكل منها كل نظام اجتماعي مترابطة، وإن كان لا ينطوي على ظواهر منفصلة، يصبح من الواضح إذن أنه يجب تقييم كل نظام

اجتماعي، كل حركة ثورية في التاريخ،ليس من وجهة نظر مجردة، أو في ضوء مبادئ ثابتة شاملة، بل في إطار الأوضاع الاجتماعية والتاريخية التي تحيط بهما وتقود إليهما. المفهوم الاجتماعي التاريخي النسبي الذي يميز المنهج الديالكتيكي يعطي اليسار الثوري المرونة الكبيرة التي يحتاجها في صنع الواقع، ويمنعه من التقوقع والتحجر في جمود قاتل أو مواقف ثابتة مجردة هي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، كما أنه يعطيه قدراً كبيراً من الواقعية الموضوعية في إدراك الأحداث السياسية التاريخية الخارجية على امتداد العالم والتفاعل معها بشكل خلاّق.

كل المفاهيم والأفكار والمبادئ تخضع لأوضاع التاريخ والاجتماع المتحوّلة، وهي بالتالي نسبية الصحة والعقلانية، تتغير بتغير هذه الأوضاع، والأنظمة الاجتماعية والثقافية التي تنظمها. فالزمان والمكان يحددان جميع أفكارنا. وليس هناك من أفكار، قيم، أو مبادئ تصاعدية ثابتة مستمرة، بل أفكار وقيم ومبادئ نسبية فقط، يجب إرجاعها إلى مركبات أو أشكال الزمان والمكان التي تحدث فيها. المنطلقات الثورية الجذرية العامة والمقاصد العليا التي ينطلق منها اليسار الثوري يجب رغم جذريتها وشموليتها، أن ترتبط بهذه الأشكال. القول بأن الإيديولوجية أو النظام السياسي الذي يبرز في وضع ما يتحدد أولاً بمنطق داخلي ينطوي عليه، يشكل وهماً فكرياً غير سوسيولوجي أو علمي. فكلاهما يشكل عنصراً في ثقافة أو في تركيب اجتماعي ثقافي معين ويتأثر أساسياً بهذا التركيب ككل. المتصورات الإديولوجية والأنظمة السياسية مهمة في ذاتها ولكنها تنسجم دائماً مع بعض الأوضاع أكثر من غيرها، كما أن أدوارها تتحول وتتغير بسبب تفاعل خاص تتعرض لها في «الكل» الذي تعمل فيه. المركبات الاجتماعية تتميز بأنها تستطيع أن تفرز في ذاتها العناصر التي تدعو إلى تغييرها وتجاوزها. فهي لا تخضع للتغيير فقط، بل تخلق الأوضاع التي تحدد هذا التغيير من الداخل. لهذا فإن السؤال الذي يجب أن يطرح باستمرار هو: هل يناسب ذلك أو هذا المفهوم أو العمل الأوضاع التي تحيط بنا؟ . . هل يستطيع ما نقترحه من عمل أو تخطيط التجاوب مع ديالكتيك هذه الأوضاع فيدفع الثورة إلى الأمام؟ . . هل ينسجم ذلك مع التركيب الاجتماعي الثقافي الذي يتحقق فيه أم لا؟ الخ. . هذا هو نوع الأسئلة التي تواجه اليسار الثوري الذي يجب أن يجيب عنها إجابة صحيحة إن هو أراد النجاح كيسار يستطيع صنع التاريخ.

الترابط الذي يسود الكل الاجتماعي يعني أن إحداث تحول ثوري في ذلك أو هذا الصعيد يجب أن يعي في الوقت نفسه علاقة ذلك بالأصعدة الأخرى ومدى انسجامها معه. ما نفكر به ونريده في مرحلة معينة لا يتميز بقيمة متساوية بالنسبة لمجرى التحول الاجتماعي. لهذا، عندما نفسر خصائص الوقائع والعناصر والظواهر التي يكشف عنها وضع ما يجب أن نصل بينها وبين المرحلة ككل، بينها وبين الاتجاهات والقوانين التي تسودها ككل.

كل مرحلة ثورية انتقالية كبيرة تمر بأطوار مختلفة يتميز كل منها بقوانين واتجاهات خاصة به ككل. ولكن كل طور جديد يشتق من طور سابق، ولهذا فإن الطور الجديد، وإن كان يمثل قوى واتجاهات تميزه ككل، فإنه لا يلغي تماماً الطور السابق بل يتمثله وينقله إلى صعيد أو تركيب جديد.

الدعوة الى تجاوز ثوري هي دعوة ذاتية ترتبط بالأوضاع الذاتية التي ترافق الثورة، وهي إن أرادت أن تكون ذات أثر في إحداث هذا التجاوز، فإن الأمر لا يرتبط بصدق الدعوة وأصالتها، بل بأوضاع موضوعية قد تسمح أو لا تسمح بتحققها، وتترابط «بكل» يتميز عنها بصعيد خاص يجب على اليسار الثوري إدراك ما يميزه ككل. هذا اليسار يجب، كي يكون ثورياً، أن يعي قوى التاريخ الفاعلة في المرحلة التي يعانيها ككل، وأن يدرك التحولات الأساسية التي تكابدها والاتجاهات التي تخضع لها فينطلق منها في تفسير المرحلة، والأجزاء والجوانب التي تتشكل منها، والمشاكل التي تتفرع عنها، اليسار الثوري لا يقف عند إدراك ذلك بل يتميز بقدرة كبيرة على ربط أي عمل أو تحول ثوري يقوم به أو يدعو إليه بديالكتيك المرحلة ككل. اليسار الذي يعجز عن هذا لا يكون ثورياً، بل تبشيرياً أو طفولياً. ينطبق عليه ما قاله لينين في الفرد المشاغب الذي يزعم الثورية، الذي يتمرد على بعض الأمور دون الأخرى، يتركز على ناحية من دون أن يربط بينها وبين النواحي الأخرى، إنه بكلمة أخرى يصبح يساراً شعائرياً ينطلق من مجموعة من الشعارات والمشاعر وليس من وعي ديالكتيكي للمرحلة التي يمر بها ككل.

اليسار الثوري ينتج عن قوى اجتماعية تاريخية ديناميكية يكشف عنها مجتمع ما، فيعكس بالتالي التحولات وقواعد السلوك الجديدة التي تستدعيها هذه التحولات.

ولكن ما إن يظهر ويستقر حتى يصبح هو الآخر قوة ديناميكية تؤثر في تحول المجتمع نفسه وسلوكه. هناك إذن علاقة ديالكتيكية بين تحولات المجتمع وبين اليسار الثوري الذي يعبر عنها. ولكن من ناحية عامة فإن ديناميك هذا اليسار يشتق أولاً من ديناميك المجتمع أو المرحلة الثورية ككل. إنه يستطيع المبادرة ويجب أن يقوم بها باستمرار، ولكن كي يمكن لمبادراته أن تكون فعالة، يجب أن تجد تجاوباً في المجتمع نفسه أو في المرحلة الثورية ككل، ولهذا فهو يكون مستعداً وقادراً على إهمال كل مبادرة والرجوع عن كل تكتيك أو موقف عندما يجد أنه لا ينسجم مع هذا «الكل». فكل خط يتخذه يتميز بالنسبة إليه بقيمة وسيلية فقط، فلا يتركه يتحول إلى غاية، لأن تحوله بهذا الشكل يجعله أداة مضادة لمقاصد الثورة. «العقل الثوري» يسأل إن كان هذا أو ذلك الموقف السياسي منسجماً مع اتجاهات التاريخ وقواه في مرحلة معينة، «والضمير الثوري» يلتزم كلياً به مهما كانت التحديات والتضحيات إن كان الموقف ينسجم مع هذه الاتجاهات والقوى.

الفكرة القائلة بأن بعض الأنظمة والتحولات تحدث بسبب توفر بعض الأفراد والأفكار، هي فكرة خاطئة يلفظها المنهج الديالكتيكي. فكل مرحلة تاريخية، وكل تركيب اجتماعي (social structure) ينتقيان الأفكار والأشخاص الذين يحتاجان إليهم، ويستثنيان أولئك الذين لا ينسجمون معهم. إن روسو كتب في «العقد الاجتماعي» بأن الشارع الحكيم لا يبدأ بوضع قوانين جيدة في ذاتها. وفي رسالة إلى داليمبير يحدد بوضوح أنه يجب عند خلق دستور أن لا تفرض القوانين الأحسن في ذاتها بل القوانين التي تناسب الوضع أكثر من غيرها. اليسار الثوري أيضاً لا ينتقي المبادرات والمواقف والسياسة الأحسن في ذاتها، بل ما يناسب الوضع ككل. المسألة ليست ما يريده ذلك أو هذا اليسار بل ما يفرضه ديالكتيك المرحلة ككل. فالحياة الاجتماعية السياسية لا تنفتح لتحولات «سحرية»، نريدها لأنها مفيدة وكبيرة وجميلة، بل لتحولات تنسجم مع الوضع ككل. اليسار الثوري يدرك ذلك، يعمل به، ويرى بوضوح خطر أية محاولة في فرض نموذج ثوري مجرد بشكل مباشر دون تفسير جديد وتكييف عملي قادرين على ربطه بقوة ديالكتيك هذا الوضع كما يصنع نفسه.

بما أن الكل الاجتماعي يتشكل من ظواهر وعناصر مترابطة في تركيب عام يسودها، وبما أن الكيفية التي يحدث فيها هذا الترابط، والخلفية التاريخية التي يتفرع

منها، والأوضاع التي تحيط به تختلف من «كل» إلى آخر، فإن اليسار الثوري يدرك أن التحول الثوري الذي يحدث فيه يميزه بوجه خاص يجب عليه أن يستوعبه، وأن يعمل بما يوحيه من سياسة أو استراتيجيا ثورية خاصة. هذا لا يعني طبعاً أن اليسار الثوري لا يتعلم ويفيد من تجارب ثورية أخرى، كما أنه لا يعني أن ليس هناك قوانين ثورية عامة تسود عملية التحول الثوري، ولكن إن كل ثورة، كل تحول ثوري يتميز بهوية خاصة تعمل في إطار تلك القوانين العامة، وإن على اليسار الثوري الكشف عنها والعمل معها إن هو أراد النجاح وتغيير الواقع في ضوء تصوره. فهذا «الخاص» يعني أن ليس هناك من نموذج ثوري واحد يفرض ذاته دون اعتبار للمكان والزمان اللذين تحدث فيهما الثورة، وأنه من المهم جيداً، وقد يكون من الأهم من حيث الممارسة الثورية الناجحة، إدراك هذا «الخاص» هذا الإدراك يتطلب جهداً وإبداعاً فكرياً كبيراً، ودرجة عليا من المرونة والقدرة على التكييف دون أن يؤثر ذلك في الصلابة الإيديولوجية التي تميز نظرة اليسار العامة إلى الحياة والتاريخ. الذين يكتفون باجترار وتكرار بعض المفاهيم والنظريات العامة لا يستطيعون تكوين هذا اليسار أو الإسهام فيه. على العكس، إنهم يشكلون على الأرجح وفي أكثر الأحيان خطراً عليه.

النظرية أو الإديولوجية الثورية تشكل فقط دليلاً عاماً لليسار الثوري وليس مذهباً متزمتاً تنغلق عليه رؤياه للواقع. لو كانت الماركسية هذا النوع من المذاهب لما كان بإمكانها النجاح كثورة في روسيا والصين وفيتنام. إن لينين كان يكرر باستمرار أن الماركسية يجب أن تكون فقط هذا النوع من الدليل. «إننا نفكر» كما كتب، «بأن تطويراً مستقلاً لنظرية ماركس ضروري بشكل خاص للاشتراكيين الروس، لأن هذه النظرية تقدم فقط مبادئ توجيهية عامة. . . تطبق في إنجلترا بشكل يختلف عن تطبيقها في فرنسا، وفي فرنسا بشكل مختلف عن تطبيقها في ألمانيا، وفي ألمانيا بشكل مختلف عن تطبيقها في روسيا».

الأوضاع الذاتية ـ الأفكار، الوعي، الإطارات النفسية والعقلية، القيادات، أصالة المشاعر وصدق المقاصد ـ مهمة جداً، تستطيع تعثير أو دفع الثورة، ولكن ما يترتب عليها من دفع أو تعثير يرتبط بشكل وثيق بقدرة اليسار على العمل مع ديالكتيك المرحلة الثورية ككل. فكلما ارتفعت وتبلورت درجة هذه القدرة كان اليسار أكثر

فاعلية. تقديم قوة الدفع في الأوضاع الذاتية وحمايتها من الانزلاق في مسالك تعثير الثورة يرتبطان بهذه القدرة التي يجب أن تميز هذا اليسار. مع ازدياد وتبلور ونضج هذا الديالكتيك الثوري لتحول أو عمل ثوري معين تزداد الصعوبة التي تواجهها الأوضاع الذاتية في الانحراف عن الثورة وتحريفها. وهو عندما يبلغ درجة عليا معينة من هذا النضج أو الاختمار، يصبح من المستحيل تقريباً على الانحرافات الذاتية أن تعثر اليسار الثوري الذي يعبر عنه وأن تكشف عن فاعلية في إحداث هذا التعثير. في نضج من هذا النوع يفرض ديالكتيك الأوضاع الموضوعية والمرحلة ككل، المقومات الذاتية التي تهيمن على الممارسة الثورية والتي يستقيم بها سير الثورة. الأوضاع الذاتية التي تستطيع تحقيق ذاتها ثورياً عن طريق النقد، والتبشير، والمجابهة الإيديولوجية، فالواقع لا يتغير أو يتحول عن طريق الضغوط والتحديات التي تكشف عنها، ولكن عندما تفرز المرحلة الثورية ككل الديالكتيك الثوري الذي يخدمها ويساندها. الخطر الأكبر الذي يهدد الأوضاع الذاتية التي تعمل دون تفاعل إيجابي مع هذا الديالكتيك، هو أنها تحول أصحابها إلى سخفاء رغم ما قد ينطوون عليه من صدق في الأفكار والمشاعر، إنها تنقلهم آنذاك إلى صعيد مثالي يفصم علاقتهم مع الواقع، والممارسة التي تنقطع علاقتها مع هذا الواقع تصبح علاقة دونكيشوتية» تثير السخرية. إنها قد تكون «دونكيشوتية» شريفة، نقية أو حتى بطولية وذات مظهر مقدس، ولكن النقطة المهمة هي أنه بسبب الفكر المثالي الذي يعبر عنها وبسبب المبالغة في الدعوة اليومية إلى أعلى وأنقى المثل، يموت الواقع نفسه.

اليسار يستطيع أن يكون تحريرياً وبناءً ـ وهذا دوره ـ، يعمل على تحرير ما يتوفر له من قوى وطاقات وإمكانات وأن يركزها ويوجهها نحو بناء نظام جديد، عندما يتمكن فقط من التعبير عن هذا الديالكتيك الثوري الذي يميز المرحلة، أو الوضع الثوري ككل. دون ذلك يتحول إلى يسار انحرافي وكبحي (repressive) ينحرف بهذه القوى والطاقات والامكانات ويكبح احتمالات الخلق والإبداع فيها. بما أن هذا الديالكتيك يفرز، من ناحية أخرى، ضرورات مختلفة في عملية تحوله الثوري، فإن اليسار الثوري يجب أن يتميز بما يمكن تسميته «بحساسية» تاريخية حادة تضمن له التجاوب المستمر مع هذه الضرورات المتتابعة والمترابطة، فيدرك أن المواقف التي

كانت صحيحة البارحة أو حتى الأمس القريب قد تكون لاغية غداً أو في المستقبل القريب. المواقف الأساسية، التكتيكية، وحتى الاستراتيجية تسقط جانباً، ليس بسبب ضعف منطقي وعقلاني متأصل فيها، بل بسبب تحول هذه الضرورات الموضوعية المترابطة المتتابعة.

المنهج الديالكتيكي يسمح لنا بالتالي بتحديد اليمين، أو الإنسان المحافظ ـ الرجعي، وتمييزه ببعض السمات التي تقترن به. إنه قبل كل شيء اتجاه (أي إنسان) عاجز عن إدراك أو استيعاب مبدأ هذا المنهج القائل بترابط الظواهر الاجتماعية ـ السياسية أو عناصر وأجزاء «الكل» الاجتماعي. ولهذا، فإن رؤياه السياسية تكون محدودة، وتحليله الاجتماعي قاصراً عن تفسير الواقع وتحولاته، فهو ينظر، نتيجة هذا العجز، إلى الأحداث والظواهر الاجتماعية كأحداث وظواهر منفصلة، تقف وراءها إرادات فردية، وتعود إلى حوافز ذاتية. فالحركات الثورية تعود بالتالي إلى المشاغبين، والمتآمرين، وتتفرع عن حالة مرضية تدل على عجز صاحبها عن الخضوع للنظام أو التكيف العقلاني معه الخ. . . لهذا، فإن القضية بالنسبة إليه هي قضية تآمر وليس قضية تحولات وقوانين موضوعية تفرضها. فإن أمكن التخلص من هؤلاء المتآمرين والمشاغبين، يعود الوضع إلى حاله الطبيعية دون حركات ثورية وثوريين. الثورات الشيوعية أو الثورات كلها تعود، كظاهرة سياسية، إلى هذا النوع من التآمر وإلى العنف الذي يمارسه المتآمرون. إن أفكاره ومفاهيمه تتميز بطبيعة استاتية وهي ثابتة لا تتغير بتغير الواقع أو كنتيجة لملاحظة موضوعية له. إنه يقف جامداً في مواقعه لا يعي ضرورة تغييرها بسبب تغير الأوضاع الاجتماعية التاريخية التي كانت مسؤولة عنها سابقاً.

هذا الجمود أو «العقلية» الاستاتية التي تُخرج المحافظ ـ الرجعي أو اليمين من الواقع والتاريخ تميزه رغم ما يكون قد حققه من ثقافة عامة عليا. فالقضية ليست قضية معرفة، بل قضية نفسية ـ إيديولوجية تحول دون رؤية الواقع كما هو وفي التحولات التي يكشف عنها. إنه يعجز بسبب ذلك عن إدراك المنهج الديالكتيكي الذي ينطلق من الفرضية القائلة بتحول الواقع الموضوعي الدائم وليس فقط بترابطه ككل، وبأن حياة الفرد الفكرية والشعورية أو الحركة الثورية هي أيضاً في تحول دائم أو يجب أن تكشف

عن هذا التحول الدائم. فكما أن الواقع الموضوعي لا يتميز بجوهر ثابت يجمده في حالة استاتية، كذلك أيضاً الحركة الثورية أو حياة الفرد لا تنطوي هي الأخرى على أي جوهر من هذا النوع الذي يفرض عليها حالة كهذه. بما أن الرجعي ـ المحافظ يعجز عن تفسير السلوك السياسي في ضوء التحولات الموضوعية التي يفرزها الواقع نفسه، فإنه يفسر ما يفرزه من جديد لا ينسجم معه كنتيجة للانتهازية، الجبانة الأخلاقية، الخيانة، الخ.. وبما أنه عاجز عن رؤية ترابط وتداخل العناصر التي تشكل منها ككل، فإنه يشطر العالم باستمرار إلى شطرين متناقضين جذرياً ولا يلتقيان. فالسلوك السياسي يكون من نوع معين أو لا يكون، وظواهره تكون إما بيضاء أو سوداء. هذه السمات التي تميزه تُفرغ أخيراً سلوكه من كل مضمون حي، فيستقر بترديد شعارات وكلمات ومفاهيم فارغة.

هنا يلتقي، في الواقع، اليسار التبشيري ـ الطفولي باليمين، كما دللنا في فصل لاحق. فكلاهما يعجز عن إدراك هذا الترابط الديالكتيكي المتحول بين الظواهر التي يتشكل منها الواقع الموضوعي أو المرحلة الثورية «ككل»، فيخرجان عنه، الأول لأنه يعجز عن مجاراته، والآخر لأنه يتجاوزه عن الارتباط بأطواره الموضوعية المترابطة.

اليسار الثوري الصحيح لا يخرج من الواقع كما يخرج عنه اليمين أو اليسار التبشيري ـ الطفولي، بل يدخل إليه من جميع أبوابه وجوانبه، ولا يستثني مدخلاً واحداً يستطيع أن ينفذ منه إلى مساندة ديالكتيكه الموضوعي في تغييره في وجهة تصوره الثوري له. إنه لا يرفض «التعامل» مع واقع أو نظام قائم كشيء غير طبيعي، لا أخلاقي، لا عقلاني، الخ.. لأنه لا ينسجم مع تصوراته عما يجب أن يكون عليه هذا الواقع أو النظام، أو عما يجب أن يكشف عنه من كرامة ونقاء. إنه يدرك أن ترابط الوضع ككل يعني أن الجوانب السلبية تتداخل بالجوانب الإيجابية، أن الخير الثوري يتفرع ويبرز من قلب الشر الذي ينقضه، ولهذا فهو لا يتردد في دخوله وتحديه من الداخل، معتمداً في ذلك على أمانته المتينة لتصوره الثوري ومنطلقاته الإيديولوجية، وعلى وعيه الصلب لطبيعته الديالكتيكية.

اليسار الثوري يسار في الواقع ومن الواقع، ويعني بالتالي العمل مع الاتجاهات

والإمكانات التي يسمح بها الواقع في طور، في فترة معينة، مهما كانت هذه الاتجاهات والإمكانات محدودة في تغذية قوة الدفع الثوري فيه. إنه يعلم أن العمل في الواقع يعني الكشف عن الممكن الثوري الذي يسمح به هذا الواقع المتحول، أن العمل فيه يعني من الممكن، هذا على الرغم من أنه يتفرع من تصور جديد للتاريخ ويجد بواعثه الأولى في صورة مجتمع جديد ينفي الواقع القائم ككل. اليسار الثوري يرفض الواقع، ولكنه بقدرته على العمل مع ديالكتيك هذا الواقع في مرحلة معينة أو في أطواره المختلفة بغية تحقيق هذا الرفض وتحويله إلى واقع. الوضع الاجتماعي التاريخي الذي يفرز التصورات الثورية لا يعني إمكان تحقيق هذه التصورات دفعة واحدة ونتيجة قفزة فجائية إليها.

اليسار الثوري يدرك أن الطريقة التي يحاول بها تحقيق فلسفة الحياة الجديدة التي ينطلق منها ويعمل على صنع التاريخ في ضوئها قد تكون أهم من هذه الفلسفة نفسها. أي متزمت أو مجنون يستطيع أن يعتنق مذهباً أو إيديولوجية جديدة حول الحياة، ولكن قليلون نسبياً هم الذين يتميزون بالوعي الضروري في نقل ذلك إلى واقع. اليسار الثوري يدرك أن المنهج الديالكتيكي الذي ينطلق من هذا الواقع ككل ويجاري حركته الموضوعية المستقلة هو المنهج الصحيح في تحقيق ذلك. المذهب الثوري الجديد يبقى إيماناً محضاً مهما كان صحيحاً إن لم يكن قادراً على إدراك طبيعة الواقع الموضوعي والعمل معها على تغييره. كل يسار لا يتميز بوعي تاريخي ومنهج ديالكتيكي يكون يساراً فارغاً. فدون ذلك يخسر الواقع ترابطه ككل وحركته الديالكتيكية فيتحول إلى عناصر وظواهر مبعثرة، فيعجز العمل الثوري عن رؤية المنطق أو الاتجاه العام الذي ينطوي عليه ويسوده عبر تحولاته اليومية، فيكون في كلمة فابلين (Veblen) في وصف ظاهرة مماثلة، نوعٌ من «العجز المدرب».

الاعتراض على هذا المنهج الديالكتيكي الذي يُفترض به التعبير عن اتجاهات موضوعية مستقلة بأنه ينكر الأخلاق وبالتالي ينطوي على شقاء يمتد إلى الناس، قول لا قيمة تاريخية له، لأن التاريخ يحتل صعيداً أعلى بكثير من الصعيد الذي تقوم فيه الأخلاق، أي صعيد الوجدان أو الضمير الفردي. فالمواقف الأخلاقية المجردة يجب أن لا تدخل، ولا يصح أن تدخل، الصعيد الثوري، كما أنه لا يصح أن نجرها إلى

الصدام مع اتجاهات الواقع الاجتماعي التاريخي. فهي إن أرادت أن تكون فعالة وأن تلعب دوراً إيجابياً في تشكيل هذا الواقع، يجب عليها أن تعمل مع هذه الاتجاهات ولا تخرج منها وعليها. فالفضائل الأخلاقية الفردية من تواضع، ومحبة، وشفقة، وسماح، وصدق، ومشاعر إنسانية، الخ.. لا يمكن أن تقف ضد أو خارج هذه الاتجاهات، وهي إن صنعت ذلك فإنها تعمق وتوسع مأساة الإنسان الأخلاقية ولا تحققها.

(ثالثاً):ـ المنهج الديالكتيكي يعي ليس فقط أن الكل الاجتماعي مترابط الأجزاء، بل إنه يتشكل أيضاً من تناقضات تدفعه إلى الحركة والتحول.

المنهج الديالكتيكي يكشف عن التوترات، والتناقضات والصراعات والأضداد التي ينطوي عليها الواقع الاجتماعي التاريخي، ويرى أن حركة هذا الواقع تعود إليها وتترتب عليها. فهو يرى أن عناصر الكل الاجتماعي لا تترابط وتفترض بعضها البعض الآخر فقط بل تتناقض وتجد مصدر ديناميكها في هذا التناقض المتفاعل والمترابط.

المنهج الديالكتيكي يقول بأنه كي يمكننا إدراك تطور شيء يجب أن ندرسه داخلياً، إن تطور الأشياء والظواهر ينتج عن حركة داخلية وضرورية، وإن كل شيء يترابط ويتفاعل في حركته مع الأشياء التي تحيط به. السبب الأساسي لتطور وتحول شيء يكمن في التناقض القائم في داخله، فهناك تناقض في كل شيء وهذا يفسر حركته وتطوره.

إن باسكال أعطى في القرن السابع عشر صورة واضحة عن ذلك في كتابه «أفكار». فقد كتب «هناك حقائق عديدة، دينية وأخلاقية، تبدو متناقضة وتستثني بعضها البعض الآخر، ولكنها تستمر كلها في سيستام» ممتاز. إن مصدر جميع الهرطقات هو استثناء بعض هذه الحقائق. بالإضافة إلى ذلك، إن مصدر كل الاعتراضات التي يوجهها لنا المهرطقون يعود ببساطة إلى جهل بعض حقائقنا. ما يحدث عادة هو أنهم في عجزهم عن رؤية الروابط بين حقيقتين متعارضتين، يخلصون إلى الاعتقاد بأن قبول الواحدة يستلزم رفض الأخرى، ولذلك يسرعون إلى التمسك بواحدة وينبذون الثانية».

الزمان التاريخي يتميز بتركيب معين مصنوع من النقض (negations). فالرُشد

يلغي الصِّبا، والشيخوخة تلغي الرشد. كل فترة تاريخية تلغي سابقتها، أي تجعلها غير واقعية وبالتالي غير ممكنة لأنها تتجاوزها. ما يجب أن يكون، يولد وينمو من داخل هذه التناقضات المترابطة المتفاعلة التي ينطوي عليها الزمان التاريخي. المنهج الديالكتيكي يؤكد علاقة داخلية ودرجة من الوحدة بين هذه التناقضات التي تتفرع من بعضها البعض الآخر.

السيرورةِ (Process) الزمانية هي إذن عملية مترابطة ومتقطعة في آن واحد. إنها تتشكل من قفزات أو تحولات أساسية مفاجئة (mutations)، ولكنها من ناحية أخرى مترابطة الحلقات، إذ من دون ذلك يخسر الزمان التاريخي الذي تعرفه ما يميزه. إن ذات الفرد في الأربعينات تلغي ذاته في العشرينات، ولكن الذات الجديدة تتحدد بالنسبة إلى الذات القديمة، ولهذا فهي ترتبط بها. لولا هذا الترابط في التناقض لأمكن القول إن حياته هي غير حياته، الحركة البروتستاننية تلغي الكنسية الكاثوليكية ومذهبها ولكنها تتحدد بالنسبة إليها وتتمثل الكثير من عناصرها. الدكتاتورية الثورية تقوم بدور تاريخي أساسي هو سحق الأنظمة الرجعية والمحافظة وخلق أرضية ملائمة لأنظمة جديدة، وبعد ذلك تنحسر ويتقلص دورها وتعطي مكانها لشكل من أشكال الديموقراطية المنفتحة، لأنها تكون قد حققت مهمتها واستنزفت إمكاناتها. القيادة الثورية المشخصنة تملأ، بالتالي، فراغاً يعود إلى انهيار أنظمة السلطة السياسية التقليدية، ولكن بعد استقرار التنظيمات الجديدة للسلطة الجديدة، تزول فائدتها وتفتقد شرعيتها، وتتحول إلى قيادة دستورية. هذا يدل بأن هناك علاقة ترابط وتفاعل بين النقيضين وأنه لا يمكن الفصل بين الواحد والآخر. إن صنعنا هذا وتجاهلنا هذا الترابط الديالكتيكي، تصبح العملية التي ينتقل فيها تركيب اجتماعي سياسي معين إلى تركيب آخر أو من نموذج إلى آخر، لغزاً من الألغاز. إن الوقائع الاجتماعية التاريخية ليست وقائع منفصلة كما يتخيل التحليل الإحصائي أو الوضعي. هذا ينطبق على جميع التحولات المفاجئة أو القفزات التي يتشكل منها الزمان التاريخي، إن منطق هذا الزمان هو منطق التناقض، والعملية التي تنتقل من تناقض إلى آخر تشكل القانون الأساسي الذي يسود حركة التاريخ وديناميكه. الاعتراف بهذه الظاهرة الأساسية التي تميز هذا الزمان التاريخي قديم جداً ويرجع على الأقل، في الغرب، إلى بارمينيدس في القرن

الخامس ق.م. في الطرف الآخر الحديث كتب هيجل «حيث توجد حركة، حيث توجد حياة، حيث ينتقل أي شيء إلى واقع في العالم الواقعي، نجد تأثير الديالكتيك».

هناك دائماً حتى في أكثر الأوضاع الاجتماعية والثقافية استقراراً وانسجاماً إمكانية التجديد واحتمال منعطف جديد. لهذا يمكن القول بأنه يستحيل على الوجود الإنساني الاستقرار نهائياً في سلوك أو نظام مسطح؛ بأن التناقضات تظهر حتى في أكثر المجتمعات وحدة وانسجاماً، فتحفز على الحركة والتحول وما يتفرع عنهما عاجلاً أو آجلاً من تجديد، وبدايات جديدة. إن الزمان التاريخي ثورة دائمة.

هذا يعني، في دوره، أن ليس هناك من ظاهرة أو تحول اجتماعي يتشكل من «خير» أو «شر» مطلق، بل إن الشر يتداخل بالخير ويترابط به. فالمفاهيم المطلقة مفاهيم ميتافيزيقية وليس ديالكتيكية. إن ماركس وأنجلز، مثلاً، وجدا أن نظام الاسترقاق نفسه كان حركة تقدمية لأنه، على الرغم من ظواهر سلبية بارزة، كان ينطوي على أخرى إيجابية ترجح على الأولى وتدفع بالتطور الاجتماعي إلى الأمام. كل تحول اجتماعي تاريخي يتشكل من تناقضات. وليس من تنظيم يستطيع البقاء والاستمرار دون إدراك ذلك والعمل به وبالضرورات التي يفرضها، أو كما قال أحد المفكرين «دون درجة من التكييف بين الأب، والابن، والروح القدس»[1]. لهذا عندما نقيم ونقيس حدثاً من الأحداث يجب ليس فقط إدراك جوانب «الخير» و«الشر» فيه والعمل على تغليب الأولى على الثانية، بل يجب أيضاً إدراكه في الكل الاجتماعي الذي يحدث فيه، في موقعه من هذا الكل ومن التناقضات التي يتشكل منها. هذا ما يترتب على اليسار صنعه وليس فقط إدراكه إن هو أراد النجاح في تغيير الواقع.

المنهج الديالكتيكي لا يرى فقط أن هناك حقائق وأخطاء، جوانب خير وشر في كل وضع اجتماعي سياسي، بل يدعو إلى تجاوز الأخطاء والشر بالعمل مع الحقائق والخير، وفي دفع هذه الجوانب وتغليبها عن طريق تعيين ومساندة القوى والاتجاهات التي تستطيع ذلك. الصراع الديالكتيكي الذي يفرض نفسه على اليسار الثوري ليس

---

(1) DUNHAM, Barrows: Heroes and Heretics. Delta, 1968 p:95.

صراعاً بسيطاً واضحاً بين الخير والشر. مفهوم كهذا يعني أن كل ما نحتاج إليه هو إزالة الشر كي يبقى الخير ويسود، ويمثل بالتالي مفهوماً لا تاريخياً لا مكان له في التحليل الاجتماعي العلمي. كلا الوجهين ضروري لتطوير المجتمع والتاريخ، والتقدم الصحيح هو في هذا التناقض، في هذه العملية (process) التي يتم فيها تغليب جوانب «الخير». في المماحكة الفكرية التي كانت تدور بين ماركس وبرودون كان الأول يتهم الثاني بأنه أساء تفسير مفاهيم هيجل الديالكتيكية بشكل فاضح لأنه رأى في الصراع الديالكتيكي صراعاً بين «الخير» و«الشر» وليس صراعاً يتداخل فيه الاثنان. ليس هناك من صراع اجتماعي سياسي يقود، مهما كان تقدمياً وواعياً، إلى نتائج سعيدة كلياً. لهذا، فإن المنهج الديالكتيكي يدعونا إلى تحمل مسؤولية ما لا نريد. إن حرية العمل الثوري ليست حرية تامة، ولهذا يجب أن نحسب دائماً حساب النتائج السلبية التي قد تترتب على الضرورات الموضوعية. إن كان العمل الثوري لا يطابق عادة الفرض أو المشروع الأساسي الذي رافق ولادته أو انطلق منه، فذلك يعود إلى هذا الديالكتيك الذي يعبر عن التناقضات التي تشكل نسيج الواقع ويتميز بموضوعية مستقلة ومعقدة من الصعب جداً، هذا إن لم نقل من المستحيل، التكهن بجوانبها المختلفة.

المنهج الديالكتيكي لا يقف إذن خارج وفوق الأحداث والأشياء والظواهر الاجتماعية التاريخية، بل يعبر عن الوعي المحرك للعمل السياسي الثوري الذي يدخل فيه هذا العمل في الواقع ويغيره من الداخل، إنه لا يحاول التعبير عن الحقيقة، العقل أو العدالة المطلقة بشكل مستقل عن الواقع الاجتماعي التاريخي وحدود الزمان والمكان التي يعمل فيها، بل يحاول أن يكشف عن عقلانية هذا الواقع نفسه كما يصنع نفسه في مرحلة، في مجتمع معين، فيحرك التاريخ بالعمل مع هذه العقلانية. لهذا كان هذا المنهج منهجاً مادياً لأنه يعترف أن الواقع الموضوعي ـ الاجتماعي التاريخي ـ موجود خارج الفكر يتميز بموضوعية مستقلة عنه، بموضوعية لا تحتاج إلى أية قوى ما ورائية أو أية أسباب ودوافع خارجية تفسره. إنه يجد تفسيره في القوانين الداخلية التي تعبر عنه. ولكن من ناحية أخرى، فإن المنهج ـ الذي يعترف أن العالم الخارجي أو الواقع الاجتماعي التاريخي لا يحتاج إلى الذات المفكرة كي يوجد ـ يعترف أيضاً أن المفاهيم والتفاسير والتصورات التي يحاول بها ضبط هذا الواقع وتوجيهه لا تستنزف إمكاناته، أن

النماذج التي يعتمدها والقوانين التي يرجع إليها في رؤياه لكل مرحلة تاريخية هي نماذج وقوانين نسبية، لأن الواقع الاجتماعي التاريخي واقع لا ينضب، لا يمكن اختزاله في المعرفة التي تتوفر عنه، ولأن كل نظرية حوله هي بالتالي نظرية مرحلية. المنهج الديالكتيكي يرى نتيجة لذلك أن قضية المعرفة ليست مسألة نظرية ـ وخصوصاً بالنسبة ليسار ثوري يعمل على خلق الواقع من جديد ـ ولكن مسألة تطبيقية. ففي الممارسة، وفي القدرة على تحويل الواقع في وجهتها تستطيع هذه المعرفة التدليل على صحتها، الحركة التاريخية تترك إذن «. . مكاناً للاختيار الإنساني فلا تسوده بشكل تام. سيادة التاريخ والطبيعة هي القصد النهائي الذي لا يمكن تحقيقه بصورة نهائية. فالحركة التاريخية تولد الجديد، وإلا كان الخلق مستحيلاً»[1]. اليسار الثوري يتحمل مسؤولية هذا الاختيار الديالكتيكي ويدل على هذه المسؤولية في الواقع، في الممارسة.

(رابعاً):ـ ما ذكرناه من ميزات للمنهج الديالكتيكي يقودنا مباشرة إلى ميزة رابعة وهي أن هذا المنهج يعني النقد والرفض.

إن المنهج الديالكتيكي يتميز كمنهج بصراع ضد كل أشكال الاستقرار المصطنعة سواءٌ في الواقع الاجتماعي السياسي أو في الحياة الفكرية. إنه رفض يدمر ما أصبح عتيقاً فيهما، ما من شأنه أن يعثر حركتهما، وكل نمط مذهبي دوغماني يقيني يحاول تجميدهما. إن مهمته الأولى هي تدمير جميع الأفكار والعقائد والمفاهيم المكتسبة والجامدة كي يمنع تقوقع الفكر والواقع الذي قد ينتج عن عجزها عن إدراك أو مجاراة تحولات الواقع الاجتماعي التاريخي الدائمة. لهذا، فإن المنهج الديالكتيكي منهج مضاد للتمذهب أو التزمت الإيديولوجي، متحرر من أية مسلمات فكرية، ولا يستطيع، إن كان أميناً لذاته أن يقف عن النقد أو الرفض لأنه يجد بالضبط نفسه كمنهج، كطريقة، وليس كنهاية، كنقطة وصول. إنه منهج يجد ذاته ودوره الأساسي في تنقية معرفتنا وسلوكنا وتصحيحهما تحت ضغط التجارب التي نعانيها. إنه مفهوم يرى ليس فقط أن الواقع الخارجي واقع متحول دائماً، بل إن كل تصور علمي هو مبدئياً تصور يعاد النظر فيه.

---

(1) Lefebvre, Henri.! The Sociology of Marx Vintage, P.161.

إن كان الوسط الخارجي يتميز بوجود لا يرتبط بإرادتنا، إن كان وجوده ينطوي على استقلال موضوعي، إن كان دائم التحول يفرز الجديد الجذري عبر هذا التحول، فذلك يعني بوضوح أن جميع النظريات والتصورات والمذاهب والأنظمة التي تصدر عنه غير كاملة تفرض باستمرار إعادة النظر فيها، ليس فقط لأنها قد تخطئ قليلاً أو كثيراً في تفسير، تصوير أو تنظيم الواقع، بل لأن حركة هذا الواقع تعني أحداثاً وتحولات لم تتحقق بعد، ولهذا لا يمكن لهذه النظريات والتصورات والمذاهب والأنظمة أن تكون صحيحة وثابتة في آنٍ واحد. ولكن ما نشاهده باستمرار في التاريخ هو أن الأنظمة التي تعبر عن نظرة معينة حول التاريخ والحياة، تحاول باستمرار تثبيت هذه النظرة واجترارها. المنهج الديالكتيكي يقوم بعملية نقد ورفض مستمر لجميع هذه الحالات الاستاتية، إن اليسار الثوري يدرك ذلك فلا يتقوقع في أي موقف أو تصور ثوري من أي نوع كان لأنه يدرك أن هذا التقوقع يعني دماره.

الواقع الاجتماعي السياسي يزخر دائماً بالتحولات والتغيير ولا يمكن لأي تصور ثوري مهما كان علمياً ومطابقاً للواقع في فترة تاريخية، في دور تاريخي معين، أن يُنضب جميع إمكاناته أو يضبطها بشكل كامل أو نهائي. فهناك دائماً تقريباً ظواهر تكون سخيفة عندما ننظر إليها في مرحلة تاريخية معينة، ولكنها كانت عقلانية في مرحلة أخرى سابقة، كل حقيقة علمية هي، بالنسبة للمنهج الديالكتيكي، نسبية لأنها سترى عاجلاً أو آجلاً حقيقة أخرى أعم وأكثر شمولاً تتجاوزها. ولكنها، من ناحية أخرى، حقيقة يمكن القول إنها مطلقة لأن الحقيقة الجديدة تتمثلها، وفي تجاوزها لها تعبر عن عنصر الحقيقة فيها.

جميع مجالات النشاط الإنساني، من الفلسفة إلى الفن، ومن الاقتصاد إلى الإيديولوجية، تكشف بوضوح أن كل شيء جديد يتفرع من الشك في المفاهيم والأنظمة وقواعد السلوك السائدة ـ ومن النقد أو الرفض الذي يعبر عنه. ولكن كل جديد يؤدي إلى إقامة مفاهيم وأنظمة جديدة يتحول بعد ذلك إلى الثبات والاستقرار ويصبح في دوره هدفاً للنقد، والشك، والرفض.

المنهج الديالكتيكي يعني أن العمل الثوري الفعال الخلاق هو عمل ديالكتيكي تاريخي، أي عمل يعتمد على الوعي الذي يستوعب ديالكتيك أو منطق الواقع

الموضوعي المستقل، والإمكانات التي يمكن أن تحرر هذا الواقع وتنقله إلى صعيد جديد عبر التناقضات التي تكون قد نضجت عبر تحوله ذاته. هذا النوع من الوعي هو الذي يضفي على العمل الثوري حريته أو ثوريته ذاتها. فطالما أن الوعي يتحدد في ضوء الأفكار، التصورات الإيديولوجية، المصالح والأنظمة التي تسود وضعاً قائماً يكون وعياً مجرداً من الحرية الخلاقة وبالتالي من الطاقة الثورية. عندما ينسلخ عن هذه الإطارات الإستاتية، فإنه يدخل دنيا الحرية ومنها إلى الممارسة الثورية. ولكن هذا الانسلاخ لا يتم له عن طريق ذاتي محض، بل عندما يتحول الوضع القائم عن عقلانيته التاريخية فيصبح لا عقلانياً، فيستدعي بذلك النقد والرفض. هذا التحول في قلب الواقع هو الذي يفرز هذا النوع من الوعي. فبقدر ما يصبح الوضع القائم لا عقلانياً، بقدر ما يصبح الوعي حراً، لأن الوعي، وبشكل خاص الوعي الثوري الفاعل في التاريخ، هو الوعي الذي ينتج عن الصراع ضد عقلانية وضع قائم. فحقيقة الوعي والحرية تجد أرضيتها في هذا الصراع، وهي تتحول إلى قوة تاريخية تحريرية عندما يكون الوعي ثورياً.

الدعوة إلى التحويل الثوري تفترض إذن تحولاً سبق أن حدث في قلب الواقع الموضوعي. إنها لا تستطيع اعتماد ظواهر سلبية جانبية أو أخطاء ثانوية، لأن كل واقع، كل نظام يتميز بجوانب من هذا النوع الذي يمثل في الواقع الوجه الثاني لعملية النمو والتطور، وهي إن إرادت النجاح وجب أن تجد أرضيتها في متناقضات يعجز النظام عن حلها. المنهج الديالكتيكي يحدد العقلانية النامية في إطار لا عقلانية الواقع، ويساعدها في نموها عن طريق ما يوجهه من نقد ورفض للثانية. لا عقلانية الواقع يجب أن تكون قد أصبحت بارزة التناقض مع العقلانية الجديدة قبل أن يتمكن المنهج الديالكتيكي الواعي لها الإسهام في تحقيق التحويل الثوري عن طريق ما يمارسه من نقد ورفض، في درجة معينة من البرودة أو الحرارة المنخفضة يتحول الماء إلى جليد، ولكن ليس هناك من البرودة أو الحرارة تستطيع أن تحول الحديد إلى جليد.

النظريات العلمية تصبح علمية لأنها تدخل العالم الطبيعي الخارجي وتدل على صحتها وحقيقتها في سيادة تحققها في واقع هذا العالم، الأفكار والتصورات

الاجتماعية والايديولوجية تصبح ثورية فقط عندما تستطيع أن تدخل هي الأخرى الواقع الاجتماعي التاريخي وتدل على صحتها وحقيقتها في قدرتها على تحقيق قدر من السيادة له. ولكن كي يمكن لهذه السيادة أن تتحقق يجب أن تكون التحولات التي حدثت في تحول الواقع الموضوعي قد أصبحت منفتحة لها. الرفض أو النقد الديالكتيكي يستطيع أن يمارس دوره الثوري الفعال عندما يتوفر هذا النوع من التحول.

كل نظام اجتماعي إيديولوجي ينطوي كما أشرنا سابقاً على جوانب سلبية وتناقضات. في مرحلة صعوده وتقدمه تنكمش هذه الجوانب والتناقضات، ولكن في مرحلة انحداره ومن ثم انهياره ـ وكل نظام اجتماعي إيديولوجي ينتهي في طور كهذا ـ تنكشف وتزداد بروزاً مع تقدم هذا الانحدار أو التقلص عن مجاراة التاريخ. عندئذ يمارس الرفض الديالكتيكي فاعليته العليا وفي أحسن أشكالها. كل نظام اجتماعي إيديولوجي يستنزف إمكانات الدفع والتحول فيه لأنه يكون قد تبلور وتشكل وتحقق في إطار تصور ينظر إلى الحياة والتاريخ وطريقة تنظيمهما من زاوية معينة تؤكد بعض أبعاد الإنساني والتاريخي وتنشغل بها على حساب أبعاد أخرى تهملها. في الجمود والانحدار تبرز هذه الأبعاد وتؤكد ذاتها ضده. النقد الديالكتيكي يفرض ذاته أنذاك بشكل جذري يعبر فيه عن هذه الأبعاد الجديدة ويحاول تمهيد الطرق أمامها بتدمير التصور التقليدي الذي يستمر في تعثيرها.

هذا يعني بوضوح أن فاعلية النقد الديالكتيكي ترتبط بدرجة اختمار تناقضات الواقع الموضوعي له. فهو يستطيع القيام بدوره التدميري عندما تصبح هذه التناقضات واضحة. هذا يعني بالتالي أن الأدلة العلمية غير كافية في ذاتها في خلق هذا النقد أو الرفض (negation) الديالكتيكي. إن العالم الفيزيائي، توماس كون، كتب، في الواقع، في دراسة قيمة جداً[1]، بأن حياة العلوم الطبيعية نفسها لا تتقرر بمنطق شكلي يبرر وسائل ومناهج التحقيق والإثبات verification في ذاتها، وهي تدل على قرابة كبيرة مع الحياة الثورية الدورية للمجتمع السياسي نفسه. فحياة كل علم منها لا تتبع

(1) KUHN, THOMAS,: The Structure of Scientific Revolutions, University of Chicago press, 1962.

خطّاً تقدمياً تدريجياً مستقيماً يتكون من تراكم بطيء لفرضيات متتابعة تثبت صحتها، بل تتحول عبر ثورات تغير تصورات العلم الأساسية للواقع وتعطيه قاعدته الثابتة:

فالتغييرات العلمية التجريبية والنظرية تتفرع في الواقع، من تجارب جديدة تنشأ عن صراع نظرة جديدة إلى العالم تناضل «إيديولوجياً» تقريباً ضد نظرة سابقة. فالتغيير ليس حركة بسيطة واضحة من الخطأ إلى الحقيقة، بل تتشكل من صور علمية جديدة متكاملة (gestalt) تحدد من جديد القضايا العلمية الأساسية، وتقدم وسائل ومقاييس جديدة للحلول العلمية.

عندما يمر العلم بمرحلة يتأرجح أو يستقطب فيها بين نظرة قديمة ونظرة جديدة، تفشل الأساليب العلمية العادية في حل الخلافات ويصعب التفاهم بين دعاة الأولى والثانية، لأن وجود فرضيات أساسية يلتقون عندها يكون قد زال. ما يجدر التنبه إليه بشكل خاص هنا هو أن كون يخلص إلى القول بأن الميول الشخصية، والفنية، والسن، والمواقع الاجتماعية، والمصالح الفردية الخاصة، الخ، كلها تدخل في هذا الصراع «العلمي» وليس المنهج العلمي وحده، وأن هذا الصراع يدل في هذه المراحل على أشكال تعصب لا تقل في انغلاقها وطبيعتها عن أشكال التعصب الديني نفسه.

(خامساً):ـ الميزات السابقة تقود إلى ميزة أخرى أساسية من المنهج الديالكتيكي وهي أن كل إيديولوجية، كل نظام، كل تركيب اجتماعي يحمل في ذاته بذور دماره.

إن كان الواقع الاجتماعي يتميز بوجود لا يعتمد في وجوده على «الأناء»، وإن كان هذا الوجود يكشف عن موضوعية مستقلة يحركها ديالكتيك تحول موضوعي مستقل، وإن كانت الظواهر الاجتماعية التي يتشكل منها تعني «كلاً» مترابطاً، وإن كان هذا الكل المترابط يعني، من ناحية أخرى، تناقضات تحركه وتغيره باستمرار، وإن كانت هذه التناقضات تعني أن هناك تناقضاً أساسياً يهيمن عليها في مرحلة معينة ويدفع بالتالي هذه المرحلة إلى تجاوز ذاتها في مرحلة أخرى، فإن هذا كله يعني أن كل نظام، كل إيديولوجية، كل تركيب اجتماعي يعاني في الواقع تحولات تقود عاجلاً أو آجلاً، إلى انهياره ودماره وإفراز ما يلغيه ويتجاوزه.

كل نظام اجتماعي إيديولوجي يتعرض إلى مرض داخلي شرس يتفرع من

ديالكتيك تحققه، من ممارسة ذاته في العالم الموضوعي. هذا المرض هو مرض «الروثنة» الذي يحوله إلى وجود استاتي وإلى سلوك رتيب يخسر فيهما القدرة على التحرك مع التاريخ وعلى تجاوز ذاته. كل مرحلة ثورية تدفع عملية التحول الاجتماعي الإيديولوجي في وجهة معينة وإلى أبعد ما يمكنها، وفي هذا الدفع تستنزف إمكانات الدفع، وتخلق قوى جديدة لا تنسجم مع قدرتها على الدفع وتدعو، بالتالي، إلى تجاوزها في مرحلة جديدة. كل مرحلة ثورية تقع فريسة حدود تقود إليها نجاحاتها نفسها فتستقر في منجزاتها التي تجردها من القدرة على تحقيق مرحلة جديدة أو الامتداد في مرحلة جديدة.

التصورات التي كانت مثالية البارحة تتحول إلى واقع متحجر في الحاضر، ومع الوقت تفرز التناقضات التي تدفع إلى نقضه. لهذا عندما نتكلم عن تصورات جديدة تحاول تثوير وضع ما، يجب أن ندرك إن كانت التصورات التي تسود هذا الوضع قد استنزفت إمكاناتها في دفعه إلى أبعد ما يمكنها، لأن التصورات الجديدة الفعالة التي تستطيع نقله إلى مرحلة أعلى أو جديدة قد تكون تشكلت في داخله. إن الجديد يرافق وينتج عن موت القديم. إن التصورات الجديدة لا تكون، في الواقع، فعالة إن لم تكن التصورات السابقة قد ابتدأت بالانهيار، وإن لم يكن ديالكتيك التاريخ قد أفرز الأوضاع الجديدة التي تفترض ظهورها ونجاحها.

كل نظام اجتماعي ـ إيديولوجي يتبع دورة معينة تمر في مراحل معينة تنقله من الولادة إلى الموت. في طور أول يمكن تسميته بالطور الديناميكي يكون الإيمان به قوة مفجرة تعمل على تحويل التاريخ والمجتمع والإنسان في صورته. ولكن في طور لاحق يمكن تسميته بالطور التقليدي الاستاتي، يخسر الإيمان به قوة التفجير والتحريك لطاقات المؤمنين به ويتحول إلى نقيضه، أي إلى قوة تلجم هذه الطاقات وتجمدها، فيصبح النظام راكداً جامداً يجتر نفسه بسكون. في هذا الطور الثاني يخسر الإيمان به القدرة على دفع الناس إلى «تحريك الجبال»، وبدلاً من ذلك يجعلهم يعانونه بروح تقليدي يجردهم من الكفاءة على مبادرة التاريخ، وعلى الخلق والإبداع.

المقياس الذي يقيس قدرة شعب ما على الخلق والإبداع وعلى صنع القدرة في

المنعطفات الاجتماعية التاريخية الكبيرة يتمثل في خزان المقاصد العليا التي تتشوق إليها نفسه. إن قول هرقليطس بأن «تحقيق رغبات الإنسانية لا يكون أحسن لها» قول صحيح ويعبر عن خاصة أساسية تميز الوضع الإنساني. فعندما يقف شعب أو دور تاريخي عن التطلع إلى تصورات عليا يتجاوز بها حاضره ككل، تتحول طاقاته إلى مشاغل يومية تستنزف ذاتها فيها وتكرر معاناتها لها بشكل تقليدي ورتيب.

هذه العناصر الخمسة التي يتشكل منها المنهج الديالكتيكي توفر لنا ليس فقط أداة في إدراك الواقع بل في ضبط تحولاته وتوجيهها. بما أن اليسار الثوري يعني عملاً يتدخل في الواقع وحركته بغية تغييره ودفعه في وجهة معينة، وجب عليه إذن اعتماد هذا المنهج، الانطلاق منه أو الرجوع إليه إن هو أراد النجاح في قصده وتحقيقه.

مقومات اليسار الثوري

ما نبغيه هنا هو تحديد اليسار الثوري من حيث الممارسة الثورية ـ وليس من حيث المضمون الإيديولوجي الذي قد يختلف من يسار إلى آخر ـ لأن مقياس نجاح اليسار، صحته ومعناه هو، كما أشرنا سابقاً، في هذه الممارسة التي يحاول فيها الدخول إلى الواقع الاجتماعي التاريخي، ضبطه وصنعه في ضوء تصوره الثوري حوله، لهذا فإن التحديد لا يصح أن يقف عند هذا التصور أو القصد منه، بل عند القدرة على تحويله إلى واقع، وهذا يعني تحديد الطبيعة أو المقومات الأساسية العامة التي تميز الممارسة التي يمكنها تحقيق ذلك؛ أو بكلمة أخرى، الاستراتيجيا العامة لممارسة ثورية صحيحة.

بما أن القصد من اليسار الثوري هو صنع الواقع في ضوء تصور معين له، فإن المنهج العلمي في تحديده لا يحكم عليه ويقيسه بما يقوله، بالصحة الشكلية للمفاهيم التي يعلنها، بالرغبات والنوايا التي يعكسها، بالضجة الثورية التي قد يثيرها، الخ.. بل بالنتائج التاريخية التي تترتب على أفكاره وأعماله. فإن كان برنامجه الإيديولوجي ـ السياسي (الأخلاقي) دون نتائج وتغييرات إيجابية، تقدمية، تدفع الواقع نحو تصوره الثوري له، فإن هذه النتائج تكون سلبية، وبهذا القدر رجعية وتخدم بالتالي قضية اليمين وليس قضية اليسار.

التحولات الموضوعية التي ينطوي عليها ويكشف عنها الواقع الاجتماعي

التاريخي، تفرض على الوعي كي يتحقق أن يتطابق معها ويعبر عنها. اليسار الثوري هو الذي يحقق هذا النوع من الوعي، هذا النوع من المطابقة، ويتميز ليس فقط بالقدرة على مجاراتها بل على تقدمها بقدر يسمح له بقيادتها، وخصوصاً في المراحل التي يبلغ فيها ديناميك التحول الموضوعي درجة حادة، كما نجد في المراحل الثورية الكبرى. اليسار الثوري يتميز إذن وبشكل خاص باستراتيجيا تدرك، أولاً، ما يستحيل في فترة أو وضع معين، فتقطع علاقتها به، وثانياً ما هو ضروري أي ما يمكن أن يتمخض عنه الواقع فتلتزم به. اليسار الثوري يحقق فاعليته وحريته بالوعي الذي يحققه لهذه الضرورة الموضوعية وبقدرته على الاستجابة لها والتفاعل معها. التمرد والرفض قد يكفيان أو بالاحرى قد يقومان بدور إيجابي ما في مقاومة نظام قائم ولكنهما لا يكفيان أبداً في إقامة نظام جديد أو في تخطيط طريق إليه. اليسار الثوري يدرك أن قبوله غير الواعي، أو غير الانتقادي (Uncritical) لمفهوم، لمبدأ ثوري ما، يشكل غالباً حاجزاً ضد إدراكه الموضوعي للواقع الذي يعالجه، للظاهرة التي يدرسها، وللعمل الثوري الذي يمارسه. القضية ليست قضية مقاصد وتصورات ثورية بل قضية تصورات واستراتيجيا ثورية من طبيعة التحولات والاتجاهات الموضوعية، قادرة على مجاراتها بغية ضبطها وتوجيهها. الانحراف الأساسي الذي يهدد كل يسار ثوري بالتبعثر والشلل يقوم في عجزه عن أن يرى بأن الأفكار والتصورات الثورية الصرفة لا تستطيع في ذاتها أن تخلق وقائع جديدة، وأن قدرتها على ذلك ترتبط ارتباطاً وثيقاً في تفاعل إيجابي حي مع مجرى التاريخ كما يصنع نفسه.

اليسار الثوري لا يعني أفكاراً ومفاهيم تحاول اختراق الواقع سيادته وتحقيق ذاتها، بل أفكاراً ومفاهيم «تستشير» الواقع في كيفية اختراقه وتطويعه لإرادتها. فكي تكون هذه الأفكار والمفاهيم قادرة على تحديد سير الواقع، يجب على هذا الواقع نفسه أن يكون متجهاً نحوها أو قادراً على الاتجاه نحوها. واجب اليسار الأول أن يعمل ويلتزم، ولكن كي يعمل ويلتزم بفاعلية، يجب عليه أن يتمكن من الكشف عن اتجاه التاريخ الأساسي في مرحلة معينة فيقف إلى جانبه يسانده وليس ضده أو خارجه. هذا أمر محتوم عليه إن هو أراد تحقيق ذاته. مطابقة الأوضاع المتحولة مع العمل الإنساني أو التحول الذاتي أمر يمكن إدراكه فقط كعمل ثوري.

كل فرد يستطيع، في عالم التصورات الذاتية، أن يتصور بأنه مدعو بأن يصبح شاعراً، أو فناناً، أو فيلسوفاً، أو عالماً كبيراً، ولكن في خلق نتاج كبير فقط يستطيع أن يدل على عبقريته وإبداعه كشاعر، كفيلسوف، كأديب، كعالم إلخ ـ.

هذا ينطبق أيضاً على الصعيد السياسي. فتصوراتنا لا تضفي علينا، في ذاتها، فاعلية سياسية أو قدرة ثورية، بل الممارسة هي التي تصنع وتمتحن ذلك. قياس كفاءة اليسار الثورية ليس في نبل المقاصد ونقاء النوايا، بل في القدرة على توجيه واستخدام الوسائل والإمكانات المتوفرة، في القدرة على تلمس اتجاهات المستقبل في الحاضر وتطويعها لتصوراته.

الاستسلام للواقع لا يعبر عن ذاته فقط بالجمود، باللا مبالاة، بالحياد، بالسكوت، بالتأثيرية (passivity)، الخ. . بل أيضاً بأشكال من التمرد اللا فعالة، الجانبية، أي بأشكال تعبر فقط عن أشواق ورغبات ونوازع ذاتية. الفكر الذي لا يمهد بقوة أو لا يقود إلى عمل فعال في الواقع لا قيمة له، والتخطيطات والبرامج التي لا يمكنها أن تؤثر في التاريخ كما يصنع نفسه تكون في هذيان وهلوسة، هذا بالضبط ما كان ينتهي إليه تاريخياً الموقف «الثوري» أو بالأحرى المتمرد الذي ينسلخ عن الواقع، إما لأنه يعجز عن إدراك موضوعيته المستقلة، وإما لأنه يتقدم كثيراً على هذه الموضوعية. إنه موقف يذكرنا، في الواقع بأبطال تورجينيف، وتشكهوف الذين كانوا يعيشون في تصوراتهم الذاتية المحضة دون أية طاقة للعمل في الواقع. تورجينيف كتب عن «رودين» بطل قصة «رودين» بأن الطبيعة جردته من القابلية على العمل، من الطاقة على تنفيذ ومتابعة مقاصده»، وفي مذكرات إنسان متطفل نرى البطل يحلل ذاته حتى آخر نبضه فيها. وأبلوموف، بطل جونشاروف، يحتاج إلى مائتي صفحة في جهد يحاول فيه أن ينهض من الفراش، والباقي يدور حول تصورات غامضة حول ما سوف يصنعه، وهي تصورات تبقى طبعاً بعيدة عن كل ممارسة أو ملاحظة.

هذه النماذج، على طريقة تورجينيف، تشاكوف، وجونشاروف، كانت في تاريخ روسيا الذي تقدم مباشرة على الثورة عام 1917 ترمز في الواقع إلى عجز كان يعانيه المتحرر أو المتمرد أمام واقع المجتمع الجامد الذي يحيط به من كل جانب.

فهو واقع كان قد ابتدأ بالكشف عن ظواهر تفسخ وتفكك ولكن بقدر كافٍ يجعل تدميره ممكناً، وعن قوى فكرية جديدة لا تنسجم معه، ولكن قوى لم تبلغ بعد درجة كافية من القوة يجعل من الممكن لها تحويله وتجاوزه. هذه ظاهرة تميز بشكل خاص المراحل الانتقالية الكبرى في أطوارها الأولى.

النوازع الأخلاقية والتطلعات المثالية تصاب سريعاً بالضمور مهما كانت نقية ومهما كان الالتزام بها أصيلاً، إن لم تعكس وتمارس ذاتها في الواقع، في تحويله في وجهتها، لهذا كان اليسار الثوري الناجح يخضع دائماً لنظرية، أو لمفاهيم موضوعية تتجاوب مع الواقع المتحول، وتتفاعل مع إمكاناته المرحلية واتجاهاته الأساسية. اليسار الثوري الصحيح هو، في طبيعته ذاتها، عمل تصاعدي (Transcendental) يتخطى الواقع القائم في سبيل مقاصد تتجاوزه بصورة أخرى. ولكن عليه أن يحذر تماماً ـ وهنا نجد السمة الأولى التي تميزه ـ من الانزلاق في هذا التجاوز إلى درجة ينفصل فيها عن الواقع الاجتماعي التاريخي الذي يعانيه ويعمل على صنعه. هذه التطلعات التصاعدية لا تشكل عالماً من الحقائق الثابتة والخالدة منفصلة عن هذا الواقع تستطيع أن تفرض نفسها عليه دفعة واحدة، في قفزة واحدة بسبب الإرادة التي تقف وراءها، وهي تستطيع تجاوزه وصنعه فقط بالقدر الذي تستطيع به الربط بين مرحلة تاريخية ومرحلة أخرى، بالقدر الذي تستطيع به إدراك الديالكتيك الموضوعي الذي يدفع نحو هذا الانتقال فتعمل معه على تحقيق هذا العبور. إن برغسون دلّ بأن الذاكرة عملية من التفاسير المتكررة، وأننا عندما نذكر الماضي فإننا نبنيه ونكونه تبعاً لأفكارنا الحالية التي تحدد لنا ما هو مهم وما هو غير مهم، ما هو نافع وما هو غير نافع. هذا ما يفسره السيكولوجيون بـ«الإدراك الانتقائي» (selective perception). هذا يعني أننا في أي وضع نجد أنفسنا فيه نميل عفوياً إلى ملاحظة الأشياء والأحداث التي تهمنا أكثر من غيرها، وإلى التفاعل مع الظواهر التي تكون أقرب إلى رغباتنا من غيرها. هنا يكمن الخطر الذي يهدد اليسار بالانحراف عن الثورية الفعالة الفاعلة، وذلك لأن هذا الميل يمكن أن يفصله ويقطع صلته بالوضع التاريخي الذي يعانيه. لهذا يجب على هذا اليسار أن يكون شديد الحذر من هذا الانزلاق الذي أشرنا إليه.

«إن الإنسان» بعبارة سارتوري الجميلة، ليس كائناً ذا أجنحة. ومنذ ابتداء التاريخ كان كل من يتجاهل هذه الحقيقة الابتدائية يقودنا دائماً إلى حافة الهاوية، ولكن كي يفسر لنا، بعد أن نكون قد سقطنا فيها، بأنه كان يجب علينا أن نتعلم كيف نطير»[1].

من ناحية عامة يمكن القول إن اليسار الثوري يجد أمامه خطين استراتيجيين أساسيين في إجراء التحول الثوري الذي يريده. الأول يدعوه إلى إعلان جميع مقاصده الثورية، إلى العمل على تنفيذها دفعة واحدة، وإلى سحق جميع الذين يخاصمون هذه المقاصد بسرعة كبيرة. والثاني يدعوه إلى تقسيم هذه المقاصد والفصل بينها تبعاً لتحرك الواقع الموضوعي من موقع إلى آخر أو مرحلة إلى أخرى، فيتابعها، ويؤجل بعضها، يتستر على بعضها، ويحاول تحقيق البعض الآخر، أو ما يبدو أقربها إلى النجاح، ولكن أن يغفل ترابطها كلها، وإلى أن يتوفر له ديناميك الدفع الذي يمكن اعتماده في معالجة أصعبها أو الانتقال إلى تحقيقها ككل. عند مراجعة التجارب الثورية نجد، أولاً، أن الفصل بين الخطين بشكل مطلق أمر غير واقعي، لأن الحركات الثورية كانت تعتمد عادة الخطين معاً. ولهذا كان اعتماد الواحد أو الآخر هو اعتماد نسبي وليس اعتماداً مطلقاً، أي يعني التركيز على واحد مع استخدام الآخر كرديف له.

هنا يمكن القول، من ناحية عامة، إن الأوضاع التي تكشف عن انهيار عام سريع للنظام التقليدي يشمله في جميع أبعاده ومستوياته هي التي تدفع إلى الخط الأول كما نرى مثلاً في روسيا عام 1917، وفي الصين أمام الغزو الأجنبي، أما الأوضاع التي لا تكشف بوضوح عن هذا الانهيار العام السريع، الأوضاع التي يكون فيها الانهيار جزئياً وليس جامعاً، كامناً (latent) وليس صريحاً (manifest)، كما نرى، مثلاً في مصر أو كوبا، أو تركيا قبل الثورة. فإنها تدفع عادة إلى الخط الثاني. أما قضية الانتقال النسبي من الخط الثاني إلى الخط الأول وخصوصاً بعد انتصار الثورة، وهي قضية قد تطول أو تقصر، فهي قضية تحتاج إلى معالجة خاصة مستقلة لا يتسع لها هذا البحث، ولكنها ترتبط بالأوضاع الداخلية التي ترافق الثورة، والضغوط والتحديات الخارجية

(1) SARTORI, GIOVANNI,: Democratic Theory Praeger, 1965, P:89.

التي تجابهها. نقول إن قضية الانتقال قد تطول أو تقصر، لأن الخط الثاني يقود ويجب أن يقود في ديالكتيكه الخاص إلى الخط الأول إن صحت الثورة وتكاملت الأوضاع الموضوعية التي يفترض بها الدفع الجذري إلى الخط الأول.

إن المشاعر والأعمال النضالية الثورية ليست كافية أبداً في كسب الانتصارات للثورة أو في دفعها إلى الأمام ضد القوى المناوئة لها. التفكير العلمي الهادئ الرزين الذي يمكن أن يسدد خطاها في ضوء القوى التي تسود الواقع، والعقل الواعي الذي يستطيع أن يتلَمس بوضوح حركة هذا الواقع الموضوعية وما يمكن أن تنفتح له من إمكانات التجاوز والتصعيد في فترة معينة، هو ما تحتاجه المشاعر والأعمال النضالية إن أرادت أن تكون في خدمة الثورة وليس عبئاً عليها. استخدام أكثر الشعارات تطرفاً، أكثر الحناجر حدة فرازيولوجية، أكثر المواقف «نقاءً» ثورياً، لا يؤدي إلى النتائج التي يريدها اليسار ولا يفرز الأعمال التي تحتاجها الثورة. ما يؤدي إلى ذلك هو أشكال الصراع التي تستطيع تحقيق درجة عليا من التجاوب مع ديالكتيك القوى والاتجاهات الذي يسود المرحلة التي يعانيها هذا اليسار.

من السهل جداً الإعلان عن المقاصد الثورية والمناداة بها إلى أن تبح الحناجر، لأنه عملية طويلة معقدة وصعبة تحتاج إلى عقل علمي يستطيع بإدراكه الديالكتيكي للواقع أن يدجن المشاعر ويضبط الحناجر في سيادة الواقع.

إدراك ما نريد خلقه هو الخطوة الأولى والأساسية في تحقيق هذا الخلق. ولكن الشخص الذي يدرك ما يريد وطريقه إلى ما يريد يتميز كثيراً في فاعليته، في قدرته على الخلق والإبداع، في تحقيق ما يريد، عن الشخص الذي لا يعرف ما يريد أو الطريق إلى ما يريد. إن أردنا التأثير في أحداث التاريخ يجب أن ننظم أهدافنا ووسائلنا في ترتيب من الأولويات ينسجم مع مجراها. إن نحن حاولنا أن نحدد جميع ما نريد قبل أن نبدأ بصنع ما نريد فإننا قد نعجز عن صنع أي شيئ نريد. ونحن إن أردنا تحقيق جميع ما نريد في كل عمل نقوم فإننا نعجز أيضاً عن النجاح في تحقيق ما نود تحقيقه.

إن أردنا تقييم الأعمال «الثورية» بمقياس الكفاءة وجب التمييز بين نوعين من النجاح، نوع موقت عابر هو نجاح الوصولي أو الانتهازي الذي يعتمد في سبيله

الدعاية والمزايدة والديموغاجية، واستغلال أخطاء الآخرين. هذا النوع من النجاح لا يقتصر على السياسة بل نجده في شتى أنواع النشاط الفكري. فهناك مثلاً كثيرون من الفنانين والأدباء والكتاب والمفكرين الذين ينالون شهرة موقتة ومكانة عابرة، ليس بسبب كفاءة فكرية صحيحة أو عبقرية خاصة، بل بسبب وسائل تتصل بصلة وثيقة بالفن، الأدب، أو الفكر الصحيح. ولكن بالإضافة إلى هذا النوع العابر هناك نوع آخر من النجاح يعبر عن كفاءة أصيلة وخلاقة أو عن عبقرية فريدة، لأنه يدل على تفوق صاحبه في التعبير عن حركة التاريخ، عن أحد منعطفاته الكبرى، أو عن نموذج فكري، فلسفي، فني، أو أدبي خاص. اليسار الثوري الصحيح يركز على هذا النوع الثاني من النجاح، ولا يستطيع، في الواقع، أن يكون يساراً صحيحاً من دون هذا التركيز.

اليسار الثوري يستطيع التمييز بين الفكر العلمي والموضوعي الذي يخدم قضية الثورة ويلتزم أساسياً به، رغم ما قد ينطوي عليه من حقائق لا ترضي الرغبات الآنية والمشاعر العابرة وتفرض تأجيلها، وبين الفكر الذي يقدم مفاهيم اعتباطية تستطيع أن تكسب قبولاً آنياً عابراً بسبب عنصر أسطوري، جاذبية عاطفية، لون شعري أو جسارة فرازيولوجية. اليسار الثوري يجابه دائماً خطر هذا النوع الأخير من الفكر تحت ضغط ميل عفوي عند الناس إلى الاتجاه نحو الأفكار التي تعبر عن مشاعرهم ورغباتهم الآنية، فيتعامون عن النقص الذي تنطوي عليه ويرون أن أفكارهم تمثل طبيعة الواقع والتاريخ. من ناحية عامة يمكن القول إن الناس لا ينزعجون أو يجدون أي حرج بسبب ما قد تنطوي عليه أفكارهم من تناقض واضح طالما أن هذه الأفكار تنسجم مع ميولهم ورغباتهم. «فبين أكثر مواطن الضعف الاعتيادية المألوفة في الفكر الإنساني نجد»، كما كتب دي توكفيل منذ مدة طويلة، «ميل هذا الفكر الدائم إلى المصالحة بين مفاهيم متناقضة، وإلى شراء الطمأنينة النفسية على حساب المنطق»[1].

هذا الميل إلى التعامي عن التناقضات الواضحة البارزة التي تنطوي عليها الأفكار والمفاهيم الثورية عندما تعبر عن مشاعر ورغبات آنية عابرة، لا يشكل خطراً داهماً إن

(1) De Tocqueville, Alexis,: Democracy In America, Vol. II. A. Knopf, 1943, P:34.

استطاع اليسار الثوري ضبطها باستمرار في تصور موضوعي بعيد المدى، طويل النفس للمرحلة التي يمر بها ككل. ولكنه إن عجز عن ذلك، فإن هذا الميل يمزقه ويدمره بسبب ما يترتب عليه من هزائم ونكسات تفرض نفسها عليه. فهذه الأخيرة تقود الكثيرين إلى اليأس، وحتى إلى ازدراء أنفسهم لأنهم لم يتمكنوا من مقاومتها وصدها، وبالتالي إلى خروجهم المحتمل من الثورة نفسها أو عليها. بما أن مصدر نضالهم الثوري لم يكن نظرة موضوعية علمية جامعة للمرحلة التي يعانونها تكشف لهم أن منطق التاريخَ يقف في المدى البعيد إلى جانبهم رغم ما قد يصابون به من نكسات أو هزائم، فإن الفشل يعني انهيار قواعد ثقتهم لأنهم لا يدركون أن هذه الأخيرة تشكل فقط انحرافات جانبية عن ذلك المنطق العام.

العمل الثوري يعني ويفرض الانضباط والنظام. وهذا يعني خارجياً، أي في الوسط الاجتماعي السياسي، ممارسة وسائل عقلانية في تحقيق مقاصده، أي وسائل تكون مطابقة إلى حد كبير مع تحولات الواقع الموضوعي، وعلى صلة وثيقة بما يسمح وما لا يسمح به. وهو يعني باطنياً، أي نفسياً وعقلياً، أن الثوري يجب أن يضبط قواه النفسية والشعورية والعقلية وتحقيق ما يسميه السيكولوجيون بالسيطرة على الذات (ego control)، ما يعني، بكلمة أخرى أن عليه أن لا يعرض مقاصده الثورية والوسائل العقلانية التي يمكن أن تتوفر لها وتخدمها بتفجرات عاطفية ورغبات آنية، بالانقياد لنزوات وأهواء شعورية، أي بالخضوع لطبيعته «السفلى». العمل الثوري يعني من هذه الناحية درجة عليا من العقلنة للشخصية، وهي عقلنة تفترض درجة عليا مما أسماه فرويد بالكبح (repression) لهذه الرغبات والأهواء الآنية.

تحديد اليسار يفترض علمياً الرجوع إلى الظاهرة الثورية نفسها، أي إلى الظاهرة التي يفترض به التعبير عنها. هذا الرجوع الموضوعي يكشف عن تماثل عام يسودها، وهو تماثل نبهت إليه وعالجته دراسات عديدة في سوسيولوجيا الثورة. دراسة هذه الظاهرة تكشف، عندما نتطلع إليها من أي جانب أساسي، عن تحولات موضوعية متماثلة أو قوانين عامة في الثورات التي تعبر عنها. فهي تدل من حيث الوضعية الثورية التي تقود إليها، ومن حيث عملية (process) تحققها في الواقع وصنعه عن تماثل

موضوعي عام يسودها. فعلى الرغم من الجوانب الخاصة التي تقترن بها ـ وكل ثورة تتميز بهذا «الخاص» ـ هناك علاقات انتظامية واحدة (regularities) ـ والمنهج العلمي يعني بالضبط أساساً الكشف عن هذا «العام» ـ تعيد ذاتها فيها وتحدد مجراها. اليسار الثوري لا يستطيع أن يكون فعالاً أو بالأحرى «ثورياً» إن لم يتمكن من العمل مع هذه الموضوعية المستقلة سواء في شكلها «العام» أو شكلها «الخاص».

المرحلة الثورية تعبر عن هذه الموضوعية المستقلة عن إرادة الأفراد لأنها تنتج عن عمل التاريخ نفسه. فالثورة سيرورة تصنع نفسها ولا يصنعها أحد. اليسار الثوري لا يصنع الثورة، ولكن عند حدوثها أو بالأحرى عند ولادة المرحلة الثورية التي تفرزها وتقود إليها، تحتاج الثورة، كي تحقق ذاتها بفاعلية، إلى الوعي الثوري، النفسية الثورية، التنظيم الثوري، النظرية الثورية والاستراتيجيا التي تتفرع عنها، أي إلى الدور الذي يفترض باليسار الثوري القيام به في مساندتها، التعبير عنها، وقيادتها نحو نظام جديد. إن دور اليسار الثوري يكون، في الواقع، محدوداً جداً، هذا إن لم نقل تافهاً، في تفجير الثورة، ولكنه يصبح مهماً جداً بعد ذلك، أي في التعبير عن الثورة، ضبطها وتوجيهها في ضوء تصور ثوري معين نحو نتيجة معينة.

هذا الديالكتيك الموضوعي المستقل الذي تكشف عنه الثورة، يشكل أحد الأسباب الأساسية التي كانت تفرض على الحركات الثورية التي تعبر عنه فرض نظام أوتوقراطي قوي عند الاستيلاء على السلطة بغية ضبط مجراها. كل ثورة كانت تكشف عن هذه الضرورة الموضوعية الباطنية، ولذلك نرى أن كثيرين من المفكرين، من محافظين وثوريين، كانوا يشعرون أنها تعبر عن قوى غير إنسانية، لأنهم كانوا يرون أن الثوار لا يصنعون أو يقودون الثورة، وأن الثورة كانت تصنع نفسها وتقود الناس في مجراها. هنا يلتقي مفكرون محافظون من أمثال جوزيف دي ماتر، ومفكرون ثوريون من أمثال بلانكي، أشاروا في بداية العصر الثوري الحديث إلى هذه الخاصة التي تميز الثورة.

دور اليسار الثوري في الثورات الحديثة كان كبيراً جداً، ولكنه لم يعبر عن ذاته في تفجيرها. حدوث هذه الأخيرة كان عادة يدهش ويفاجئ الثوريين. كل ما كان

يمكن لهذا اليسار صنعه هو أن يكون جاهزاً عند قيام الثورة، أو انفجار الوضعية الثورية. السهولة الكبرى التي كانت تسقط فيها الأنظمة التقليدية ـ كما نرى مثلاً في أكبر ثورتين حديثتين، الثورة الفرنسية والثورة الروسية ـ يدلل بوضوح على هذه الظاهرة.

في عام 1848 لاحظ دي توكفيل أن النظام الملكي لم يسقط تحت ضربات الثوار المنتصرين، بل قبل وقوع هذه الضربات، وأن سقوطه أثار دهشة هؤلاء أمام انتصارهم السريع، كمَا أشار دهشة المغلوبين أمام هزيمتهم السريعة والسهلة. التجارب الثورية دللت باستمرار على صحة هذا القول.

في مكان آخر كتب دي توكفيل أيضاً أن الثورة الديمقراطية في أوروبا كانت دائماً تتقدم دون توجيه، وأن وجودها كان كما يبدو غير معروف عندما حققت فجأة سيادتها العليا. فالتجربة الثورية في القرن التاسع عشر كانت تنمو وتفرض ذاتها رغم العثرات طيلة قرون عديدة ترجع بها إلى العصور الوسطى نفسها.

دور الثوريين لم يكن صنع الثورات بل القدرة على الاستيلاء على السلطة وممارستها بفاعلية ونجاح عند حدوث الثورة. هانا آرنت تذهب إلى أبعد من ذلك في دراستها للظاهرة الثورية فتقول إن ميزتهم الأولى ليست نظرياتهم، أو استعدادهم الفكري والتنظيمي، بل أسماؤهم التي كانت الأسماء الوحيدة المعروفة. لا شك أن هذا التصوير للواقع الثوري غير صحيح. فإن كانت تلك الأسماء معروفة فذلك يعود إلى ما ميزها من إرادة ووعي ثوري وفرا لها قدرة خاصة في التعبير الفعال عما تنطوي عليه الوضعية الثورية من تحولات وإمكانات موضوعية، وهي إن تمكنت من استلام السلطة وممارستها بنجاح، فلأنها كانت تستطيع الاعتماد على تنظيم ثوري بإمكانه أن يملأ الفراغ الذي تركه سقوط السلطة التقليدية.

في عام 1789 لم يكن قادة ثوريون من أمثال ميرابو وسيايس فقط ملكيين، بل قادة من أمثال روبسبيير، ودانتون. في عام 1917، كان لينين وحده بين قادة الحزب الشيوعي الروسي يرى إمكان ضرورة الانتقال رأساً إلى الثورة الاشتراكية. مجرى الثورة المستقل هو الذي كان يدفع الثوريين من طور إلى آخر. هذه الظاهرة واضحة

في الثورات الدينية أيضاً. إن لوثر، حتى بعد الإعلان عن أطروحاته التي عبرت عن تمرده، كان يعلق دائماً ويؤكد ولاءه للكنيسة الكاثوليكية، ويعترف بسلطة البابا، تماماً كما كان الثوريون الفرنسيون يعلنون في بداية الثورة عن ولائهم ومحبتهم للملك. ولكن مجرى الثورة كان يقودهم إلى طور لاحق أكثر ثورية وجذرية.

تاريخ الثورات الكبرى يكشف بوضوح أن الحركات الثورية لم تكن تنتقل إلى مقاصدها دفعة واحدة أو تعمل على تحقيقها في قفزة واحدة، بل إنها كانت تحتاج إلى مرحلة طويلة في صنع الواقع «في صورتها». فحدة التحويل واتساعه كانا يزدادان مع تطبيقه، وذلك بسبب ترابط الكل الاجتماعي الذي يعمل على تجديده، فعندما تصح الوضعية الثورية والحركة الثورية التي تعبر عنها، فإن العمل الثوري، وإن كان محدوداً في بداية الأمر، لا يلبث أن يجد نفسه ينتقل من طور إلى آخر، وبشكل مستقل عن الإرادة الثورية التي رافقته عند البداية. الأنظمة التقليدية كانت، من ناحيتها، تدفع أيضاً إلى تثوير الثورة ودفعها إلى تجاوز ذاتها بسبب عجزها التام عن الاستجابة للتاريخ كما يضع نفسه، أو عن التعبير عن أية كفاءة في استيعاب التحولات الجديدة بأي شكل كان. الثورات الحديثة تكشف كلها عن هذه الظاهرة. إننا نجد الشيء نفسه في حركة التمرد الديني ضد الكنيسة الكاثوليكية. فجميع الحركات الدينية التي قاومت الكنيسة والبابوية ابتداء من القرن الحادي عشر حتى القرن السادس عشر ـ تاريخ انتصار البروتستانتية ـ ابتدأت من دون أي قصد صريح بمهاجمة الكنيسة أو استبدالها بكنيسة أخرى، ولكن بغية تطهيرها من بعض الانحرافات، ولكن عجز الكنيسة عن التجاوب بأي شكل كان مع التحولات الجديدة كان يدفع هذه الحركات إلى اتخاذ مواقف أكثر حدة، كانت في ترابطها تقود أيضاً إلى توسيع نطاق التمرد وبلورته بشكل متزايد.

طبيعة الحركة الثورية التي تعبر عن مرحلة انتقالية جذرية، تفرض عليها أن تكون ديناميكية بشكل مستمر إن هي أرادت النجاح وتأكيد ذاتها. عليها كي تكون قادرة باستمرار على تعيين المنعطفات الجديدة التي تسمح بها موضوعية المرحلة فتعين مواقف أو حتى مقاصد جديدة دون توقف أو انقطاع. كل توقف أو جمود قبل أن يتم الانتقال إلى نظام جديد ويتكامل فيه، يعني موت الحركة الثورية. ولكن من ناحية أخرى، يمكن القول إن نجاح كل حركة ثورية في تحقيق هذا يعني موتها وتحولها إلى

نقيضها، أي حركة محافظة. إن ديالكتيك عملها الثوري ينقلها في ذاته، في موضوعيته المستقلة، إلى هذا المصير نتيجة تكامل نجاحاتها في تغيير الواقع وتجديده.

أمام هذه الظاهرة في الثورة الفرنسية وخلفيتها التاريخية تكلم كوندورسيه في أواخر القرن الثامن عشر عن «قانون ثوري» عام قصده المحافظة على الثورة، توجيه مجراها ودفعه باستمرار. ديالكتيك الثورة الموضوعي هو إذن ديالكتيك الثورة الدائمة التي تنتقل في سلسلة مترابطة من الأطوار. راكوزي أشار إلى هذا العنصر في ديالكتيك الثورة عندما أعلن أن الاستيلاء على هنغاريا خطط على أساس أطوار متتابعة ومترابطة، ونبه إلى ما أسماه بتكتيك «السلامي» (Salami). فقال إننا لا نستطيع أن نأكل السلامي دفعة واحدة ولكننا نستطيع أن نأكلها قطعة، قطعة. فالشيوعيون كانوا ضعافاً وليس بإمكانهم الاستيلاء على هنغاريا دفعة واحدة، ولكن كان باستطاعتهم تحقيق ذلك تدريجياً، على دفعات، وضمن مخطط واضح الأطوار.

فكرة الثورة الدائمة تحصن اليسار الثوري ضد الجمودالذي يعني نهايته وتفرض عليه تجاوز ذاته، توسيع ممارسته وتصحيحها باستمرار، وفكرة الأطوار التي تقترن بها تفرض عليه سياسة مرحلية موضوعية يستطيع بالاعتماد عليها تحقيق مقاصده بشكل منظم والانتصار على الموانع والعثرات التي تعترض سبيله. الثوريون الكبار كانوا يدركون تماماً هذا الجانب من ديالكتيك الثورة الموضوعي. في كلامه على المشكلة الاجتماعية أعلن سان جوست، مثلاً، في أول ثورة كبيرة في العصر الحديث، بأن أولئك الذين يصنعون الثورة بشكل نصفي يحفرون قبورهم بأيديهم. بعد بضع سنوات أعلن بابوف في نقضه للموقف الإصلاحي الذي كان يمثله أنتوفيلي، أنه بعد هدم العديد من العادات والأنظمة التي كانت تعتبر مقدسة، فإن إلغاء نظام الملكية الخاصة، الذي كان يدعو إليه تلك البقية الباقية من النظام التقليدي، لم يعد حلماً بعيد التحقيق.

هذه الملاحظات التي تشير إلى بعض الجوانب الموضوعية الواحدة التي تميز الظاهرة الثورية تدل أن هذه الظاهرة تكشف عن ديالكتيك موضوعي ثوري مستقل متماثل يفرض ذاته. هذا التماثل يمتد في الواقع إلى المضمون الإيديولوجي نفسه. فعلى الرغم من أن هذا المضمون يختلف من ثورة إلى أخرى، من الممكن القول إن

هناك مجموعة من المبادئ والقيم ترافق هذه الثورات على الأقل في العصر الحديث. فالتحول الثوري الذي رافقها يرمي عادة إلى تحرير الإنسان من أشكال الإكراه، تحقيق عدالة اجتماعية، مساواة حقيقية، سعادة جماعية، والكشف عن إمكانات الإنسان كلها. لهذا كان اليسار الذي يعبر عنه يعني رفضاً لحاضر معين بغية إنشاء مجتمع جديد، وتعبيراً عن نظرة تفاؤلية إلى وضع الإنسان ومستقبله، ومقاومة لجميع الحركات والنظريات التي تدعو إلى سيادة شعب أو أمة على شعب أو أمة أخرى، أو إلى ممارسة أي استبداد على الإنسان. هذا اليسار، وخصوصاً الفكري، كان يتميز، بالتالي، بعقلانية جذرية في التفكير، بتقديس العقل، وبمقاومة ثابتة لكل اتجاه أسطوري يحاول إخضاعه. إنه كان يعبر عن مفهوم علماني جامع حول العالم والتاريخ، ينفتح للشك والنقد، يرفض جميع النظريات والمفاهيم والمذاهب المنغلقة على ذاتها، ويناضل بضراوة ضد جميع الأشكال الأسطورية واللا عقلانية التي تحاول تكبيل العقل، ويؤمن بإمكان تقدم الإنسان وتجاوز ذاته.

هناك في الواقع حالياً تقليد ثوري عام يفرض ذاته وتستوحيه الحركات الثورية الحديثة، وهو يمتد من الثورات الإنكليزية والأمريكية وبشكل خاص الفرنسية، وينتهي في الثورات الشيوعية والاشتراكية وفي طليعتها الثورة الروسية والثورة الصينية. هذه الثورات تشكل نماذج عامة كان لها الدور الأول في إقامة وتغذية هذا التقليد الثوري العام.

هذا يعني أن هناك اتجاهات موضوعية مستقلة تسود التجربة الثورية الحديثة ككل ليس فقط كعملية تحول اجتماعي سياسي، بل كعملية تحول فكري وإيديولوجي. «الثورات» التي تعارضت مع هذا التقليد كالفاشستية والنازية كانت انحرافاً عنه، وبالتالي انتهت بالخروج من التاريخ الحالي كما يصنع نفسه، فكانت الهزيمة الفكرية والإيديولوجية نصيبها وليس فقط الهزيمة العسكرية[1].

(1) هذا لا يعني طبعاً أن التاريخ منغلق على هذه الثورات في المدى البعيد، إذ من الممكن بعد أن يكمل التقليد الحالي دورته الحضارية ويستنزف ذاته في نجاحاته نفسها فيواجه تناقضات يعجز عن استيعابها وتجاوزها، أن يرجع التاريخ عنه وينتقل إلى دورة تاريخية أخرى تنفتح لهذا النوع من الثورات في أشكال جديدة.

لهذا يمكن القول إنه لا يمكن ظهور تجربة ثورية جديدة كلياً ـ على الأقل في المستقبل القريب ـ لأن هناك استمرارية في التجارب الثورية الحديثة تتفرع من تقليد عام يفرض ذاته على الرغم من أنه تقليد منفتح، متعدد الجوانب، مرن، تطويري، ويزداد خصوبة وتنوعاً بالإضافات التي تنتج عن تجارب وكتابات ثورية جديدة. الثورات الحالية تستوحي كلها هذا التقليد ولا يمكنها الوقوف خارجه، لأن الوقوف خارجه يعني الوقوف خارج اتجاهات اجتماعية تاريخية موضوعية تفرض ذاتها وتفسر هذا التماثل الكبير والأساسي في الظاهرة الثورية الحديثة. لهذا يمكن القول إن كل محاولة ثورية تتناقض مع هذا التقليد في ملامحه العامة تكون جزءاً من الثورة ـ المضادة.

هذه الملاحظات حول هذا الديالكتيك الموضوعي المستقل الذي تكشف عنه الظاهرة الثورية تدل أن على اليسار الثوري الفعال بأن يتميز بوعي موضوعي علمي مرهف يستطيع به التجاوب مع هذا الديالكتيك والاستجابة له في حركته المستقلة، لأن هذا الوعي وحده يستطيع أن يوفر له القدرة التي يجب أن تميزه في تحقيق ذاته وفي صنع الواقع في ضوء التصور الثوري الذي ينطلق منه.

ولكن هنا يجب التنبيه مرة أخرى بأن ترابط هذا الواقع الثوري الموضوعي ترابطاً ديالكتيكياً متشعب الجوانب يعني، فيما يعنيه، أن كل عمل، كل تحويل ثوري يجريه هذا الواقع أو اليسار الثوري يقود في ذاته إلى أعمال وتحولات أخرى تتفرع منه، وأن هذه الأخيرة تفرز بدورها أعمالاً وتحولات جديدة تترتب عليها، وهكذا دواليك!.. هذا يعني أنه من الصعب جداً، بل من المستحيل، على أي يسار ثوري بأن يستوعب تماماً اتجاهات هذا الديالكتيك الموضوعي أو يدرك مقدماً النتائج التي تترتب على أعمال يقوم بها على الأقل في المدى البعيد.

هذا الترابط الديالكتيكي الموضوعي المستقل هو الذي يفسر ما أسميناه في الفصل السابق بسخرية التاريخ من مقاصد الإنسان، وهي سخرية تبرز في ذلك التناقض المستمر تقريباً بين المقاصد العليا وبين النتائج التي تنتج عن العمل الثوري. فمن النادر، في الواقع، أن تأتي نتائج العمل الإنساني بشكل عام منسجمة مع تخطيط

سابق لها. هنا نواجه، في الواقع، إحدى الحقائق الأساسية التي تميز وضعنا الإنساني التاريخي.

هذا التناقض بين القصد والنتيجة يقترن تقريباً، وإلى حد ما بكل عمل سياسي محدود، كإضراب أو معاهدة، مثلاً أو بأعمال كبيرة كالثورة. فكما أن النية الفاضلة لا تقود بالضرورة إلى أعمال فاضلة، والتخطيط العقلاني لا يعني تحول الواقع تبعاً لما يفترضه من عقلانية، كذلك أيضاً لا تعني المقاصد الثورية العليا مجتمعاً يعكسها أو العمل الثوري نتيجة تتطابق معه. إننا لا نستطيع التحكم بالنتائج القريبة والبعيدة التي تترتب على أعمالنا، والمضاعفات المباشرة وغير المباشرة التي تتفرع عنها، كما نتحكم بزر المذياع.

هذا يني، أولاً، أن النظرية الثورية التي تعبر عن اليسار الثوري يجب أن تكون جامعة، ولكن أن تقتصر على التوجيه العام وتمارس دور الدليل للممارسة الثورية. هو يعني، ثانياً، أن عليه أن يعمل ضمن استراتيجيا مرنة، منفتحة، مستعدة دائماً بأن تتحول مع مفاجآت الواقع المتحرك وتحولاته. فدون هذا الوعي الموضوعي الثوري الجامع للمرحلة الثورية ككل، دون هذه الاستراتيجيا المنفتحة، يتعثر اليسار الثوري ويعجز عن صنع الواقع في ضوء تصوراته الثورية. توفر النظرية الثورية الجامعة، والوعي الديالكتيكي الذي يستطيع الاستجابة لتحولات الواقع الموضوعي، والاستراتيجيا المرنة والمنفتحة، لا يعني أن التناقض بين المقاصد الثورية أو بين الأعمال والنتائج التي تترتب عليها سيزول، بل إنه ينحسر جداً فيحقق اليسار الثوري آنذاك مطابقة نسبية بينها.

قد يكون العمل أو اليسار الثوري عاجزاً عن تجاوز هذا التناقض في تحقيق مقاصده العليا في إقامة مجتمع جديد معين، ولكن من الممكن له، عندما يتوفر له ما أشرنا إليه أن يتجاوزه ويتغلب عليه إلى حد كبير في الممارسة الثورية التي تلغي النظام القديم وتعمل من طور إلى آخر على تحويل الواقع نحوه. بما أنه ليس من الممكن مقدماً وعلى أساس نظري القول بأن المقومات الفكرية الإيديولوجية والقيادية والاستراتيجية التي تميز يساراً معيناً تضمن له النجاح في تغيير الواقع وقيادته، فإن

التحولات الموضوعية التي يستطيع إنجازها تشكل المقياس الصحيح لذلك. فهذه المقومات يجب أن تدل على صحتها وتجد شرعيتها في الواقع الموضوعي، وهي تكون دون قصد وقاعدة إن لم تكن مرتبطة بالممارسة الثورية. هذا ما كان في الواقع، يحققه اليسار الثوري الناجح الفعال.

* * *

ما تقدم يدل على أن المثال الثوري لا يقف خارج الواقع، بل يعني كمستقبل ممكن، إمكانات واتجاهات موضوعية تنطوي عليها حركة هذا الواقع. اليسار الثوري يتحرك مع الاتجاه الذي يتحرك فيه مجتمع معين وتقترن أعماله بهذا الاتجاه. ففي كل مجتمع يكشف عن مرحلة ثورية، نجد مواقف وسياسات صاعدة وأخرى متخلفة. اليسار الثوري يكشف عن الأولى، يرتبط بها، ويدعم التحولات الموضوعية التي تقف وراءها وتفرزها. إنه في إدراكه لهذه التحولات يستطيع، في الواقع تقدمها وقيادتها وتحديد المستقبل في ضوئها.

خروج العمل الثوري عن هذا الوعي الموضوعي والارتباط الديالكتيكي بالواقع المتحول يخرجه من هذا الواقع ويقوده إلى موقف مثالي. فعندما تصطدم رغباتنا بجُدُر الواقع فلا تنفتح هذه الأخيرة لها، يتحول الفكر إلى الشطحات المثالية يعبر فيها عن ذاته. فالمثالية هي السعي وراء مقاصد لا يمكن تحقيقها ويمكن أن نقسم ظواهرها العامة إلى قسمين: فهي أولاً، مواقف يحاول أصحابها العمل نحو قصدين أو أكثر يستثني بعضها البعض الآخر، وهي ثانياً مواقف تكون فيها الوسائل غير ملائمة في تحقيق المقاصد التي ترتبط بها. خروج العمل السياسي من الواقع يدفعه إلى هذا الموقف الإرادي الذي يرى أنذاك أنه من الممكن إحداث أية نتائج نريدها عن طريق تعبئة الطاقات والنشاطات الإنسانية، متجاهلاً أن تعبئة من هذا النوع تكون ممكنة فقط عندما تكون الأهداف التي نسعى إليها ممكنة تاريخياً.

أهم النتائج التي تترتب على فكر إرادي مثالي من هذا النوع هي، أولاً، تعثير الحركة الثورية ومضاعفة الصعوبات والحواجز التي تواجهها، لأنه يخلق أمامها مشاكل إضافية هي في غنى عنها. وهي، ثانياً، تجميد أو بعثرة طاقات وإمكانات ضخمة في

مسالك غير مفيدة أو فعالة، وذلك في نضال تحتاج فيه الحركة الثورية إلى كل ما يمكن أن يتوفر من جهود وطاقات. ثالثاً، إضعاف يصيب المقاصد الثورية نفسها، وذلك لأن الخيبة التي تنتظرها تؤدي إلى انسحاب الكثيرين، من العمل نحو هذه المقاصد، إلى تحييدهم أو إلى دفعهم نهائياً ضدها.

إنه فكر يقترن عادة بتصورات وصور حول الكمال، وتزمت مغلق ضد أي خطأ أو ضعف في العمل السياسي، وذلك لأنه يكون قد خسر أية علاقة حية موضوعية مع الواقع. إنه يتميز بجذور سيكولوجية، أهمها ضعف صاحبه أمام العالم كما يصنع نفسه أو كما هو، ويشعر لا واعياً بهذا الضعف فيعالجه بخروج كامل من هذا «العالم» يعفيه من العمل المسؤول المنضبط والدؤوب فيه. إنه يعكس سيادة الرغبات العاطفية ويمثل سيادة مبدأ اللذة على مبدأ الحقيقة الواقعية. هذا النوع من التفكير المثالي، وخصوصاً عندما كان يقترن بمواقف ترمي إلى تحويل الإنسان والمجتمع، يضاعف قوة الإنسان وطاقته أضعافاً مضاعفة، وكان دائماً عبر التاريخ قوة في إلهام الإنسان ودفعه إلى تجاوز ذاته والوسط الذي يعيش فيه، وإلى الكشف عن أشكال كبرى ونقية من التضحية ونكران الذات. ولكن كي يكون فعالاً، لا يمكن له أن يخسر علاقته مع ديالكتيك الواقع الموضوعي المتحول. فكل محاولة جدية في تحسين أو تغيير وضع الإنسان أو المجتمع، يجب أن تكون محاولة «عقلانية» أي مطابقة لإمكانات الواقع في مرحلة تاريخية معينة.

في جميع المجتمعات والإيديولوجيات والثورات نرى هوة بين الواقع والمثل العليا التي يرتبط بها. هذه الهوة قد تتسع أو تضيق ولكنها ظاهرة تلازم الوضع الإنساني التاريخي في جميع نماذجه. هنا نكشف، في الواقع، عن جانب أساسي مهم من جوانب هذا الوضع. فدور المثل العليا ليس في التحقيق التام الكامل، بل في التحفيز على النضال في سبيل تغيير الواقع بشكل ينقله إلى صعيد إنساني أعلى. القصد منها ليس مطابقة الواقع مطابقة تامة بل اقتراب هذا الأخير منها بأكبر قدر ممكن. القصد منها تحريك الإنسان إلى تجاوز ذاته وخلق المجتمع من جديد وليس ممارسة حرفية لها في الواقع. القول بغير ذلك يعني، ضمناً على الأقل، نهاية التاريخ، لأن المطابقة التامة بين المثل والواقع تعني إزالة جميع التناقضات التي تدفع الواقع إلى رفض ذاته وتجاوزها.

الموقف المثالي الإرادي يعمل بوحي مبادئ مطلقة ومقاصد تأبى أية تسوية أو مساومة موقتة ومرحلية، ويتجه بما يشعر أنه واجبه دون أي اعتبار للنتائج أو اهتمام بصلة الواجب بالأوضاع التي تحيط به. فقصده الأول والأخير هو الطمأنينة الوجدانية بأنه يعمل باسم هذا الواجب. داعية العنف الثوري الذي يدعوإلى ممارسته ضد النظام القائم، في أي شكل، وبأي ثمن، دون أي اعتبار للنتائج لميزان القوى السائد، لإمكانات النظام أو الواقع المتحول الاجتماعي السياسي الجذري، للمشاكل والقضايا القائمة، يقدِم لنا مثلاً واضحاً عن ذلك. إنه موقف لا يرى أمامه سوى المقاصد الثورية التي يسعى إليها، فيأبى أن يربط بين العمل لهذه المقاصد وبين منطق الأوضاع القائمة التي تفرض عليه التراجع موقتاً، الاعتراف بوجود قوى معادية عليه الاعتراف بها والتعامل معها لمدة ما، أو الانسحاب قليلاً كي يعد العدة لقفزة كبيرة، الخ..

الموقف الثوري الصحيح الذي يربط ديالكتيكياً مع الواقع الاجتماعي التاريخي المتحول لا يتردد في صنع ما يرفض الموقف الأول صنعه. فهو يقوم عليه بعد دراسة دقيقة للوضع، فيرى أن التراجعات والتسويات تكون ضرورية في مرحلة معينة. إنها ذات طبيعة موقتة تسمح له بإعداد قواه وإمكاناته بشكل يضمن له خطوة كبيرة إلى الأمام عند تحول الوضع. إنه لا ينسى أبداً أن العمل نحو مقاصده الثورية هو عمل يقوم في واقع موضوعي مستقل عن إرادته، تسوده قوى تنفي هذه المقاصد، وتكشف عن اتجاهات تسمح بأعمال معينة ومحدودة في خدمتها ولا يستطيع استخدامها كيفما شاء وأراد، ولذلك فهو يسعى وراء الممكن دون أن ينسى أبداً المقاصد الثورية العليا التي تحدد سعيه وتحفزه، وإلى أن يكشف الواقع عن مرحلة أو منعطف جذري يسمح له بسحق النظام نهائياً. إنه موقف يفتش عن أحسن الوسائل الممكنة في خدمة هذه المقاصد، يعرف كيف يتحرك الواقع عبر مراحل مترابطة وإن كانت منفصلة بما تفرضه من سياسة ووسائل وخطوات مختلفة. إنه يتميز بوعي ثوري لا يقتصر على مقاصده النهائية بل يمتد إلى الطرق الممكنة والمرحلية الفعالة في خدمتها، ويدرك أن العمل الثوري ليس ارتجال التاريخ بل العمل معه كي يمكن تحويله وبناؤه من جديد.

هذه الملاحظات تدل أن كل موقف من هذين الموقفين اللذين يتجاذبان العمل الثوري يتميز بإطار نفسي أخلاقي يختلف به جذرياً عن الآخر، ولكن هذا يعني أنه من

الممكن الفصل بينهما أو حتى تحقيق هذا الفصل. فالعلاقة بينهما تكشف عن توتر دائم وتشكل معضلة لا تجد حلاً عاماً حاسماً لها. فالعمل الثوري يحتاج إلى الموقف الإرادي المثالي الذي يختار طريقاً معينة تستثني غيرها لأنه يؤمن بصحتها الأخلاقية. كما يحتاج إلى العمل المترابط ديالكتيكياً مع الواقع المتحول فيختار بين أعمال مختلفة بعد أن يزن ويعادل بينها في ضوء إمكانات الواقع، وما يسمح به هذا الواقع في فترة معينة. ولكن من الممكن القول إن اليسار أو العمل الثوري الكبير يوفقان إلى تركيب (Synthesis) صحيح بينهما أو إلى مزيج موزون ناضج يتمثل بشكل خاص في الطليعة المسؤولة عنه.

اليسار الثوري لا يعني إذن مذهبية لا ترى في الأحداث أو تقبل منها إلا ما يتصل بها وينسجم مع منظورها العقائدي أو تصورها الثوري النهائي، بل يعني استراتيجيا فعالة مرنة وواقعية ترى في الأحداث صعيداً تجب مناورته بغية توجيهه مرحلة مرحلة، خطوة خطوة نحو قصدها الأخير.

هذا لا يعني أن استراتيجيا أو بالأحرى النظرية الثورية التي تنطلق منها يجب أن تكون عند المنطلق صحيحة بشكل عام في مطابقتها للواقع وتوقعاتها لتحولاته، بل أن تكون ذات صحة موضوعية نسبية تعطينا درجة كافية من الهيمنة على الواقع وسيادته، وتتميز بقدر كافٍ من النضج يمكن معه تصحيح النقص فيها عن طريق الممارسة.

نقطة الثقل في تحديدنا لليسار هي إذن، كما يتضح، تمييزه بعقلانية موضوعية تعرف كيف توجه الواقع نحو مقاصده الثورية، وكيف تعمل على تحقيق أهداف معينة عن طريق وسائل ملائمة تسمح بتحقيقها. ولكن في كثير من الأحيان، في الذهن الشعبي العام، وبين كثير من الجماعات «الثورية» لا يحدد اليسار بشكل بعيد عن هذه العقلانية الموضوعية فقط، بل يقترن بصورة الرفض في ذاته، بأكثر الأفكار تطرفاً ومبالغة، ويتحول إلى قضية عنف، ودم، أو كفاح مسلح في المدن أو بعض الجبال. هذا طبعاً قد يكون جزئياً، وهو يشكل عادة هذا الجزء، من اليسار الثوري، ولكن العمل الثوري أكثر وأبعد من ذلك بكثير. فجوهره هو أولاً وقبل كل شيء ديالكتيك تحول تاريخي موضوعي ينتقل فيه المجتمع من نموذج اجتماعي إيديولوجي إلى نموذج آخر ينقضه، والقدرة على التعبير عن هذا الديالكتيك وتحريكه.

إن شكل الصراع والقصد الثوري يرتبطان، لأن الشكل الذي يمارس في فترة أو مرحلة معينة يتم لأجل تحقيق مقاصد معينة، ولهذا فإن استخدام أشكال صراع غير صحيحة أو مناسبة، غير كافية أو متطرفة جداً، يمكن أن يهدد تحقيق المقاصد نفسها. مفهوم الثورة كعنف ودم وشعارات متطرفة، ورفض، هو في الواقع المفهوم الذي تحمله العقلية المحافظة. لهذا، فإن العمل الثوري الذي لا يستطيع أن يقترن بالثورة عن طريق الديالكتيك الانتقالي الذي يتحكم فيها، يلتقي في أرضية واحدة مع العقلية المحافظة أو الرجعية. الخطر في مفهوم كهذا هو أن «الثورة» نفسها تنفصل آنذاك عن الواقع الموضوعي الذي يضبطها ويقيسها، وتتحول، في غياب هذا القياس الموضوعي الضابط، إلى كرة قدم تتقاذفها مجموعات مختلفة تحاول كل منها تأكيدها بمواقف إرادية، والمزايدة على الأخرى في مبالغات شعائرية مما قد يؤدي، وغالباً ما يؤدي، إلى زرع البلبلة في صفوف الثورة، إلى الخيبة من إمكانات الثورة وبالتالي الانحراف بها عن قصدها.

اليسار الثوري الفعال يجد قياسه الأخير في حركة الواقع والممارسة التي تعبر عنها، وذلك لأن هذه الحركة تعطي دائماً وزناً نسبياً أكبر لبعض النظريات والاستراتيجيات ولا تساوي أبداً بينها. فبين الأخيرة ما هو أكثر حقيقة وموضوعية من أخرى، ويمكن لها من منظور معين أن تحقق درجة أعلى من القرابة والالتصاق مع حركة الواقع الموضوعية. فإن كانت جميع النظريات الاجتماعية السياسية نظريات ذات حقيقة نسبية، وجب علينا أن نجد قياساً نستطيع به أن نختار بينها من ناحية علمية، قياساً يدل بأن بعضها يتميز بدرجة ابستمولوجية (epistemological) أعلى، وأنها أكثر حقيقة وموضوعية. المنظورات الثورية الديالكتيكية توفر لنا هذا القياس وتقدم لنا حقائق أعلى وأصح من المنظورات المحافظة والرجعية، مثلاً، لأنها وحدها قادرة على الاعتراف بالتحول الاجتماعي التاريخي، بترابطه الديالكتيكي، وبالعمل معه. النظريات البورجوازية الصاعدة، من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر، والنظريات الاشتراكية ابتداء من أواخر القرن التاسع وعبر القرن العشرين، توفر لنا مثلاً على ذلك. فمن زاوية منظور ثوري أو حركة ثورية فقط يمكن لنا الكشف عن تناقضات نظام معين، وعن التاريخية التي تميزه. هذا المنظور يجنبنا، في الوقت

نفسه، مزالق المبدأ النسبي المتساوق منطقياً، التي تستثني وجود حقيقة عامة أو مهيمنة، وتقول بوجود عدة حقائق جزئية متساوية من حيث الصح والخطأ. فهناك حقيقة اتجاهات سياسية مختلفة دون اتجاه أساسي يهيمن عليها أو يمكن له أن يسودها لأنه أكثر صحة وحقيقة، وهناك حقائق طبقية متعددة، كما هناك حقائق إيديولوجية متنوعة الخ. . . هذا يعني بكلمة أخرى أنه لا يمكن تقديم تاريخ حقيقي عن أية ثورة، بل تواريخ مختلفة تمثل الحقائق المختلفة التي تتصل بها. نتيجة كهذه تتناقض بشكل واضح مع حركة التاريخ التي تكشف باستمرار، في مراحلها وأطوارها عن سيادة وهيمنة حقيقة إيديولوجية، طبقية، أو سياسية معينة.

حركة الواقع الاجتماعي التاريخي المترابطة والمتفاعلة ديالكتيكياً تعبر عن ذاتها ليس فقط في نجاحات وفاعلية اليسار الثوري الذي يعبر عن منعطفات جذرية في مجراها، بل في هزيمة وعجز الحركات المحافظة والرجعية.

التاريخ الحديث كله ابتداء من القرن السادس عشر كان سلسلة طويلة من الهزائم التي كانت تصيب الحركات المحافظة والرجعية أو اليمين، فالسلطات والإيديولوجيات والحركات والأنظمة الدينية والبابوية، والإقطاعية، والملكية، والقيصرية، والنازية، والفاشيستية، والاستعمارية، كلها خسرت وانحسرت وأصيبت بهزائم متواصلة. القصة نفسها تعيد ذاتها حالياً في آسيا حيث نجد سلطات وحركات وأنظمة مماثلة تنتقل من هزيمة إلى أخرى، الخ. .

عندما يفرز التاريخ تحولات تاريخية اجتماعية جذرية يصبح من غير الممكن معارضة الإرادة الإيديولوجية السياسية التي تعبر عنها، منذ 65 عاماً فقط كانت الشيوعية تقتصر على قائد واحد مع مجموعة من الرفاق يقضون أيامهم في سويسرا ومكتباتها، وبعض الخلايا الموزعة هنا وهناك في روسيا، انتشار الشيوعية السريع فيما بعد يشكل ظاهرة مدهشة ولكنها غير فريدة في التاريخ. فهي تماثل انتشار حركات أخرى، كحركة الثورة الفرنسية، البروتستانتية أو الإسلام قبل ذلك. إنها حركات استطاعت الانتشار بتلك السرعة، لأن التاريخ كان قد دخل منعطفاً جذرياً ناضجاً لها كل النضج.

أربع عشرة دولة تمثل الرأسمالية الرجعية هاجمت روسيا عام 1918 وتحالفت مع القوى الداخلية البيضاء في محاولة تبغي منها سحق الثورة الشيوعية، ولكنها عجزت وارتدت مهزومة.

الحركات والأنظمة والطبقات الرجعية والمحافظة حاولت بجميع الوسائل الممكنة في أواخر القرن الثامن عشر وعبر القرن التاسع عشر مقاومة اليسار التقدمي الثوري الجديد، ولكنها فشلت وكانت عاجزة عن صده أو تقديم الأيديولوجيات البديلة، وذلك لأنها كانت تعمل في وجهة معاكسة للتاريخ. لهذا كان القرن التاسع عشر قرن المد الليبرالي الثوري. ما يحدد هوية عصر ما هو الأمل الذي يراوده وليس المخاوف التي تنتابه، كما لاحظت مرة بربارة وارد. مشاعر الأمل والتفاؤل كانت كلها في الجانب الآخر، الجانب الليبرالي الذي كان يشعر ويعتقد أن موجة التاريخ تدفع به إلى الإمام نحو مستقبل أحسن.

بعد هزيمة نابليون بونابرت الأول، شكلت الدول الملكية الكبرى في أوروبا تحالفاً رجعياً بتوجه من الأمير ميترنيخ، كان القصد منه الحفاظ على النظام القائم واستمراره. هذا التحالف أصاب قدراً من النجاح في البداية، عندما استطاع إخماد الموجة الثورية التي انفجرت في 1820 ـ 1821، خصوصاً في أسبانيا، البرتغال، اليونان، ونابولي. ولكن هذا التحالف سقط فيما بعد، وعجز عن مقاومة هذا المد الثوري. ففي الموجة الثانية عام 1848، اضطر ميترنيخ، «روح» الحلف، أن يهرب من فيينا.

الحلفاء في الحرب العالمية الثانية كانوا يريدون هزيمة دول المحور، ولكن ليس في خدمة المقاصد السياسية والاقتصادية العليا التي كانوا يقولون بها. فالقصد كان، كما عبر عنه تشرشل، إعادة النظام السابق والامبراطوريات الاستعمارية مع أقل قدر ممكن من التعديل. إنه، مع حلفائه، فرض الأنظمة الملكية في اليونان، وبلجيكا، وإيطاليا، وساعد في إعادة سيطرة فرنسا على الهند الصينية، والسيطرة الهولندية على أندونيسيا. كمرادف لهذه السياسة التي أرادت المحافظة على الوضع الراهن رأى تشرشل أيضاً مع حلفائه أنه من الضروري حصار الاتحاد السوفياتي كي لا يستخدم

قوته المادية والمعنوية في مساعدة الثورات بعد الحرب. هذه السياسة كانت السياسة التي تبنتها الولايات المتحدة وهي لا تزال تعيش فيها.

ولكن هذه السياسة لم تستطع أن تقاوم قوى التحول التاريخي التقدمية في أي مكان تقريباً، فزال سريعاً الوضع الذاتي الذي أرادت استمراره. المصير نفسه كان بانتظار سياسة الولايات المتحدة الامبريالية الجديدة التي أخذت تعاني هزيمة في كل مكان، وخصوصاً في السبعينات، أمام قوى التحول الاجتماعي السياسي في آسيا، وأفريقيا وأميركا اللاتينية. إن الامبريالية الجديدة تستطيع صرف مليارات الدولارات في تسليح الأنظمة الرجعية، ولكن ذلك كان عاجزاً، وسيعجز دائماً في مقاومة حركة التاريخ. النتائج السلبية التي ترتبت ولا تزال على هذه المقاومة امتدت إليهافي داخلها وأخذت تقوض قواعد نظامها من الداخل، وتشير بوضوح أنها دخلت في الواقع طور انحطاطها، طور النهاية.

مقومات اليسار التبشيري

ما تقدم يكشف بوضوح أن هناك حدوداً موضوعية للعمل الثوري تطرحها طبيعة الواقع الاجتماعي التاريخي نفسها. فالمفاهيم والتصورات الثورية لا تستطيع، إن أرادت أن تكون فعالة في الواقع، أن تنفصل عن إمكانات واحتمالات هذا الواقع، القوى والاتجاهات التي تحدد سيره. ما نرغب في تحقيقه يمكن له التحقق فقط عندما يرتبط بما يمكن للواقع المتحول المتحرك الانفتاح له واستيعابه. «ما يجب أن يكون» يجب أن يرتبط، بكلمة أخرى، بالممكن الذي ينفتح عنه الواقع.

ولكن كثيرين من الثوريين يخرجون عن هذا الإدراك الموضوعي ويعجزون عنه، ينظرون إلى الثورة نظرة مثالية ويتوقعون، بسبب نقص في الوعي الثوري، الثقافة الاجتماعية السياسية والانضباط الذاتي، أن ينتقل اليسار الثوري دفعة واحدة إلى النظام الجديد، وأن تلغي الثورة معالم النظام القائم بسرعة خاطفة دون أن تلوث يديها بالتعامل معه أو مع أي جانب يمثله. هذا النوع من الثوريين يعجز عن بناء مواقفه في ضوء ديالكتيك الواقع الاجتماعي التاريخي، فيستعجل كل شيء، يعجز عن الرؤيا الموضوعية لمصلحة الثورة في المدى البعيد، وينتهي بالتالي في الانحراف عنها. لهذا كان اليسار الذي يعبر عن هذه المواقف يساراً «تبشيرياً» لأن الإطارات الفكرية التي ينطلق منها هي أخلاقية ومثالية تحاول فرض تصوراتها المجردة على الواقع من دون تفاعل ديالكتيكي معه، وبشكل بعيد عن القوانين، والقوى الفاعلة فيه والدافعة له.

بدلاً من تحمل المسؤولية السيكولوجية والفكرية والسياسية الصعبة التي تفرض ممارسة ثورية «نسبية» في معالجة الواقع، مناورته، وتغيير الوسائل في مناورته ومعالجته بغية تأمين حاجات الثورة في وضع معين، فإن اليسار التبشيري يشطر الواقع إلى شطرين متناقضين، شطر الخير وشطر الشر، ويرفض التعامل مع الثاني، ويركز على المقاصد ويتمحور عليها، ويحاول فرضها على هذا الواقع دون استيعاب موضوعي، وإن كان نسبياً له. هذا يقوده في النهاية إلى موقف يلغي ضمنياً، على الأقل، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والتاريخية التي تحيط به، فيعمل وكأن تحقيق المقاصد الثورية ومعالجة الوضع يرتبطان بالنقاء الثوري أو الإدارة الثورية. ولهذا فهو يعجز، فيما يعجز عنه، عن الإنباء بالتطورات والصعوبات التي تعترض طريقه، وهو عند مجابهة هذه الأخيرة التي تفاجئه يصاب بخيبة تؤدي به إما إلى اللا مبالاة الثورية وإما إلى صعيد تبشيري جديد يعوض فيه عن العجز الذي يعانيه في الواقع.

الممارسة الثورية هي دائماً ممارسة حلول جزئية ومرحلية، وهي لا تستطيع، مهما كانت فعالة وثورية ومهما كانت الأوضاع مؤاتية لها، أن تزيل ما يعترضها أو أن تحقق ما تريده دفعة واحدة. الفكر الثوري يدرك خطل أية محاولة في فرض نموذج أخلاقي أو إيديولوجي عام مباشرة على الواقع. فهو فكر موضوعي وليس قبْلياً ونموذجه هذا هو فقط أداة للنقد التحليلي، لضبط وتوجيه العمل السياسي، وليس لوحة طوباوية ينبغي تطبيقها بحذافيرها عن طريق مجموعة من المهندسين الاجتماعيين، إنه فكر يدرك تماماً ما عجز طوباويون كثيرون من أمثال أفلاطون، وكامبينيلا، وفورية، وأوبن، الخ.. عن إدراكه، وهو أن الواقع الاجتماعي التاريخي لا ينفتح لتحولات «سحرية»، لتحولات نريدها لأنها أخلاقية، مثالية، وجميلة، من ناحية مجردة، بل لتحولات تنسجم مع وضع اجتماعي تاريخي معين ينفتح لها.

أشكال هذا اليسار لا ترى سوى الصور المثالية والميتافيزيقية. فهناك أبيض وهناك أسود. ما تحتاج إليه هو تلقيح ديالكتيكي فترى أن هذه التناقضات القطبية غير موجودة في العالم الاجتماعي السياسي. فالمنهج الديالكتيكي يعني، كما رأينا، تداخل الشر بالخير ـ والجوانب السلبية بالجوانب الإيجابية، وقياس كل شيء قياساً

نسبياً في ضوء معين، لهذا كان على الممارسة الثورية أن تتوقع التعامل مع «الشر» وأن تشق طريقها إلى قصدها عبره وبالقبول بدرجات مختلفة منه. لو كان من الممكن أن نعين بوضوح تام الأعمال «النقية الصالحة» فنضعها في جانب، وأن ندل بالوضع نفسه على الأعمال «الفاسدة» فنضعها في جانب آخر، لهان الأمر جداً، إذ كل ما نحتاج إليه آنذاك هو الاتجاه في خط مستقيم نحو الأعمال الأولى دون عناء أو جهد، دون تناقضات وأزمات وجدانية، ولكن هذه الثنائية «المانوية» (manichean) لا تنطبق على الواقع الاجتماعي التاريخي، كما أنها لا تنطبق على وضع الإنسان الإنساني. ففي هذا الواقع يتشابك الخير بالشر، والثوري لا يشطر العالم إلى شطرين من حيث الممارسة الثورية ـ وإن كان عليه أن يشطره من حيث التصور الإيديولوجي النهائي حول الحياة والتاريخ ـ بل يعي ديالكتيك هذا الواقع في تحريكه العام من طور إلى طور آخر، من وضع إلى آخر، فيعمل على تغليب «الخير» ـ الخير الذي يقيسه بمقياس مقاصده الثورية وفلسفة الحياة التي ينطلق منها ـ فيعمل خطوة خطوة، مرحلة مرحلة، على دعم القوى والاتجاهات التي تغلب «الخير» على «الشر». كل موقف ثوري ينتقد الأخطاء والضعف والنقص يمنة ويسرة، دون أي وعي ديالكتيكي يستوعبها في ضوء مقاصد وفلسفة من هذا النوع، دون إدراك لاتجاهات الواقع التي تعمل في وجهة دون أخرى، يتحول إلى موقف تبشيري أخلاقي لا يتميز بقدرة على ممارسة ذاته بفاعلية في الواقع وعبره. الموقف الثوري الصحيح يدرك أن كل تحول يتميز ببعدين متشابكين، بُعد أساسي وبعد ثانوي، بعد الواقعة المنفصلة، وبعد المرحلة ككل، بعد الحادثة الفردية وبعد الظاهرة ككل، بعد ظاهري وبعد حقيقي واقعي، الخ.. اليسار التبشيري يتجاهل هذا ويركز عادة على بعد دون الآخر. الموقف الذي يتحدد شكلياً فلا ينقصه سوى التحقق الآلي وكأنه وصفة طبية تحتاج فقط إلى مزج العناصر المختلفة في تركيبها. إنه موقف غير ثوري لأنه لا يتفاعل مع الواقع المتحرك المتحول، ويفرض ذاته من الخارج باسم بعض المجردات المطلقة. بدلاً من أن يتحرك من داخله بشكل يجاري تحولاته ذاتها. اليسار التبشيري يعبر عن هذا التفكير الخارجي الذي ينفصل عن الأشكال والتحولات التي يفرزها الواقع نفسه في حركته.

التجارب الثورية الحديثة وكتابات كبار الثوريين، تكشف بوضوح أن الانقسام الثوري الأهم هو الانقسام الذي يقع بين الجناح «المعتدل» والجناح «المتطرف» أو بين ما أسميناه هنا باليسار الثوري واليسار التبشيري. كل تجربة ثورية تعرف هذا الانقسام. فمن ناحية نجد الذين ينادون بأكثر المقاصد نقاء وراديكالية وأكثر الوسائل عنفاً وتطرفاً. ومن ناحية أخرى الذين يعبرون عن درجة من الكبح لمشاعرهم، الانضباط لسلوكهم، فيقبلون بالتعامل والمساومة والتسوية مع الوضع القائم كطريقة في تغييره، ولكن دون أي تفريط أو تجاهل لمقاصدهم الثورية النهائية، ويعتمدون على تحول مرحلي ووسائل متنوعة متعددة. هذا التناقض بين هذين الجناحين يأخذ عادة أشكالاً أكثر حدة من تلك التي يتخذها التناقض بينهما وبين عدوهما المشترك، وذلك لأن كليهما يرى في الآخر عنصراً يشوه العمل الثوري ذاته وبالتالي يخون القضية الواحدة التي يعملان لأجلها.

إن أحد الأسباب الرئيسية لهذا التناقض بين الجناحين الثوريين هو أن اليسار الثوري يدرك، على خلاف اليسار التبشيري، بأن الصراع الثوري يدور حول «الوسط» ويجب أن يكسب أكثر القوى والاتجاهات التي يمكن كسبها في تدمير النظام القائم أو ضد خصم معين. ولهذا، فهو يحدد العدو الرئيسي في مرحلة معينة، ومن ثم يعمل على كسب جميع القوى والاتجاهات التي يمكن أن تتحالف معه ضد هذا العدو أو النظام. بما أن اليسار لا يستطيع أن ينتصر ـ وهذا واضح من تجارب التاريخ الثورية الحديثة، ابتداء من الثورة الإنكليزية وانتهاء بالثورات الشيوعية[1] ـ دون تحييد أو كسب هذه الأخيرة، فإن ما حددناه كيسار ثوري ينتصر، بينما يفشل اليسار الآخر، أو التبشيري، لهذا كان العنف الثوري الذي يسحق النظام التقليدي أو اليمين، يسحق أيضاً فيما بعد اليسار التبشيري، فالمقصلة التي قطعت رأس الملك هي التي قطعت رأس بابوف. والإرادة الثورية التي أعدمت شارل الأول هي التي سحقت المساوتيين (Levellers)، والقوة التي مزقت النظام القيصري هي نفسها التي مزقت التروتسكيين، وهكذا دواليك!..

(1) المجال يضيق تماماً هنا عن متابعة هذه الظاهرة التي رافقت هذه الثورات، وهي بسبب أهميتها تتطلب تاريخاً وتحليلاً في دراسة مستقلة خاصة، وهذا ما نرجو القيام به في المستقبل القريب.

هذه الظاهرة لا تقتصر على الثورات العلمانية الحديثة بل تؤكد ذاتها في الثورات الدينية الكبرى أيضاً. إن دونام يكتب مثلاً، «إنه لمن المدهش أنه في كل المسائل الكبرى» التي تواجه آباء الكنيسة المسيحية، «كان القرار الذي يتخذونه من النوع الذي يقنع ويوحد الأكثرية الكبرى من المسيحيين . . . فقسم من المسيحيين، مثلاً كان يحب المسيح الإنسان أكثر، وآخرون المسيح الإله. . فاعتبروه (أي آباء الكنيسة) إنساناً وإلهاً في آن واحد. عدد من المسيحيين تأثروا أولاً ببنوته، وعدد آخر بألوهيته، فقرروا أنه ابن الله ومشارك له في ألوهيته. البعض خافوا أن تخسر الأسرار المقدسة قيمتها إن أشرف عليها المهرطقون، وآخرون بأن صحة هذه الأسرار ستصحح المهرطقين. فقالوا إن الأسرار المقدسة تبقى كما هي والمهرطقون كما هم». الكاتب يخلص إلى القول بعد دراسة هذه الظاهرة «إنني أفكر بأن لا شك هناك بأن وراء وعي الآباء كانت تتحرك كفاءة كبيرة، وعبقرية تنظيمية. إنهم لم يختاروا أبداً مفهوماً جزئياً أو طائفياً متعصباً (sectarian) بل كانوا دائماً ينتقون العقائد التي تحقق أعلى درجة من الوحدة مع أعلى درجة من العضوية»[1].

هذه التجارب الثورية تدل أن القيادات والحركات الثورية الناجحة كانت تحاول فيما يواجهها من أوضاع، تحولات وخيارات، أن تعمل مع ما يبدو أنه يخدم الثورة بشكل أحسن، أو الذي يشكل في الفترة أو المرحلة التي تعانيها أحسن ما يتوفر في دعم الثورة ودفعها نحو مقاصدها العليا. لهذا نرى أن هذه القيادات والحركات تركز ليس فقط على شجب ومحاربة القوى التي تقف إلى يمينها، بل تلك التي تقف إلى يسارها أو ما نسميه باليسار الطفولي، الانتهازي، المغامر، الخ. .

إن أحد الخطوط الأساسية الفاصلة مثلاً بين اليسار الماركسي واليسار غير الماركسي كان دائماً توكيد الأول بأن قوى التحول الاجتماعي التاريخي يجب أن توجد في المجتمع نفسه فلا تعكس فقط الرغبة الذاتية للثوريين. حول هذه المسألة الأساسية دارت معظم المماحكات بين ماركس وأنجلز من ناحية، وباكونين وبرودون من ناحية أخرى، التي فصلت بين الجيل الأول من الماركسيين الروس وبين النارودنيك؛ وفي

(1) Dunham,: of. cit. p:92.

اليسار الماركسي نفسه كنا نرى أيضاً أن الحركات الثورية المختلفة كانت تتهم بعضها البعض الآخر بالخروج من هذه القوى. هذا المفهوم هو الذي دعا، مثلاً، كوتسكي، باسم الماركسية الكلاسيكية (Ortodox) بأن يهاجم البولشفيك كيعقوبيين جدد. والمشادة الحادة التي لا تزال دائرة بين الغيفاريين والماركسيين في أمريكا اللاتينية كانت تدور حول الدور الأساسي الذي تلعبه القوى التاريخية الموضوعية التي تقود الحاجات المتفرعة عنها إلى الثورة الاجتماعية وعلاقتها بحرب العصابات في المدن والريف.

إن لينين كان أول من قام بحملة فكرية وسياسية منظمة (systematic) ضد هذا اليسار التبشيري أو ما أسماه باليسار الطفولي، ففي «مرض الشيوعية الطفولية»، مثلاً، يكتب إن الأشكال القديمة تمزقت، ونشاطنا أصبح الآن يتميز بمضمون بلغ درجة من القوة والحيوية والسلطة تجعله يؤكد ذاته في أي شكل جديد أو قديم. أمام هذا الواقع، يتصلب النظري اليميني في قبول الأشكال القديمة فقط، كما أن النظري اليساري يتصلب في نقض مطلق للأشكال القديمة دون أن يعي بأن المضمون الجديد يشق طريقه عبر جميع الأشكال الممكنة والتي من الممكن تصورها[1].

اليسار التبشيري يستطيع فقط تحريك المشاعر ولكنه لا يستطيع خلق الثورة، لأن الثورة لا تعني فقط تصوراً ثورياً نقياً، بل تغييراً جذرياً للتركيب الاجتماعي الإيديولوجي الذي يعبر عنه، وممارسة ثورية فعالة تستطيع إحداث هذا التغيير أو مساندة التاريخ في إحداثه، وهذا يعني عملاً واعياً لحركة التاريخ الموضوعية يعمل معها في تحقيق هذا التغيير وإفرازه، وهذا ما لا يتميز به هذا اليسار ويعجز عنه.

* * *

هذا الانحراف عن ديالكتيك الواقع الموضوعي وحركة التاريخ يقرر مقومات نفسية تلازم اليسار التبشيري في كل مكان وتضفي عليه ملامح تميزه.

---

(1) في كتاب «حرب الفلاحين الألمانية» يكتب فريدريك أنجلز بأنه أثناء عصر ديني نرى أن الأفكار الثورية نفسها تعبر عن ذاتها بلغة دينية وبأن الأفكار نفسها التي تنبه إلى المستقبل تتخذ أشكالاً سابقة، ثم يكتب بأنه عندما يحاول قائد أن يعمل بوحي أخلاقية لم تنضج بعد تاريخياً، فإن النتيجة تكون الفشل أو خيانة الذات.

عندما يخسر اليسار علاقة حية مع التاريخ كما يصنع نفسه، يجد ملجأً له في تصورات ذاتية تحاول أن تفرض على الواقع ما يجب أن يكون عليه، ولا يلبث أن يتميز بصورة عن المظالم التي يشكو منها أكثر وضوحاً، ليس فقط من الوسائل التي يمكنها أن تقود إلى المقاصد، بل هذه المقاصد نفسها.

عندما لا يرتبط الفكر بالواقع الموضوعي كما يصنع نفسه، يضيع في تجريد عاقر، لأن الإمكانات الممكنة في عالم الأفكار المجرد غير محدودة لا يمكن استنفادها. فكما أن وقائع الواقع الموضوعي تكون عمياء من دون أفكار موضوعية واعية تعبر عنها وتضبطها، كذلك أيضاً الأفكار المجردة التي لا تقترن بعلاقة حية معه تصبح، هي الأخرى عمياء، وتحمل معها أشد أشكال الحقد والغضب والمشاعر العارمة في التعبير عن ذاتها.

عندما يرى يسار ما أنه انفصل عن مجرى التاريخ الطاغي في مرحلة ما وأصبح خارجه، وخارج التيار الثوري الذي يسوده، فإنه يزداد عجزاً آنذاك عن الرؤيا الموضوعية للواقع الذي يعيشه ويتهرب منها. بما أنه لا يستطيع الرجوع إلى الواقع الموضوعي لأنه يكون يمارس عملية صنع ذاته دونه وعبر إرادة أخرى، فإنه يلجأ إلى التصورات التبشيرية والمثالية يعبر فيها عن ذاتها. ويميل إلى توكيد متزايد للعناصر الذاتية على حساب القوى الموضوعية. هناك ظاهرة واضحة في تاريخ الفكر عامة وتاريخ الفكر الثوري خاصة، وهي أنه كلما زاد ضعفنا في سيادة الواقع وإدراكه زاد اعتمادنا على الشطحات الأخلاقية والميتافيزيقية، على الألفاظ والمزايدات والتخريجات اللفظية. عندئذ يصبح من السهل على المقاصد الطيبة أن تتحول دون وعي إلى نقيضها.

عندما يتخذ المريض ردة فعل شديدة الحدة نتيجة منبه معتدل غير قوي، فإن الطبيب يشتبه آنذاك بوجود توعك عميق الجذور. المفكر الاجتماعي يجب، بطريقة مماثلة، أن يشتبه أيضاً بصحة الأسباب التي يعطيها الفكر للمواقف المتطرفة الحادة عندما يجد أن هذه الأسباب لا تستدعي رد فعل عنيفاً من هذا النوع، فيفتش عن تلك الأسباب في بعض أشكال الاضطراب في وضعه النفسي. لهذا كتب لينين «بأن الشتم في السياسة يغطي غالباً الفقدان التام للمضمون الإيديولوجي الضعف، والعجز، عجز

الشاتم المزعج». إن جايمس كنون، قائد التروتسكيين الأمريكيين في الأربعينات، كتب على أساس تجربة خاصة امتدت امتداد حياته، «يظهر أن هناك قانوناً يدل أنه بقدر ما تزيد عزلة حزب عن حركة العمال الحية. . . بقدر ما تزيد ثورية مفاهيمه وبرنامجه، الخ. . . يمكن رؤية هذا في الفرق التي انشقت عن الحركة التروتسكية ـ جماعاتنا المتطرفة المجنونة»[1]. التروتسكية نفسها ابتدأت، في الواقع، بانحراف من هذا النوع. فالاختلاف بين ستالين وتروتسكي كان اختلافاً «كمياً» وليس نوعياً. إن ستالين آمن بالثورة العالمية، وتروتسكي آمن ببناء الاشتراكية في بلد واحد. كون ستالين أكد على بناء الاشتراكية في روسيا، وتجاهل الثورة العالمية كي يحافظ على استمرار الثورة في روسيا يعود إلى أوضاع موضوعية أدركها ستالين آنذاك وليس إلى رغبة شخصية. فالثورة الشيوعية التي اعتمد عليها لينين وتروتسكي لم تحدث في الغرب، والاتحاد السوفياتي كان محاصراً من جميع الجهات. تكريس جهود الاتحاد السوفياتي وقواه آنذاك في تحقيق هذه الثورة في الخارج كان يعني إهمال الثورة الوحيدة التي أصبحت واقعة، ومن الممكن عملاً انتحارياً لها. لو أن تروتسكي كان في موقع ستالين لاضطر إلى ممارسة السياسة نفسها.

ديالكتيك هذا الانحراف عن حركة الواقع الاجتماعي التاريخي كما يصنع نفسه يقود إلى روح التشيع المنغلق الذي يميز عادة هذا اليسار التبشيري، والذي حدده الكثيرون من الماركسيين بأنه تصور ذاتي للفضيلة الثورية، لا يرى خارج جماعة أو حركة معينة من أحد يتميز بأي خير أو ثورية صحيحة. الخوف من التخلف في ثوريته، من تقدم آخرين عليه في ثورية الثورة، كان باستمرار يميز اليسار التبشيري. رؤية الواقع الموضوعي يتحول في وجهة غير وجهته كان يفرز هذا الخوف أو يساعد على إفرازه، وهو خوف كان، في الواقع، لعنة على الكثيرين من الثوريين الذين خسروا وعيهم الموضوعي وتنكروا له بسبب هذا الخوف، فكانوا عاجزين عن رؤية أكثر سمات الواقع وضوحاً بسببه.

الجماعات والاتجاهات التي تجد ذاتها مهزومة في نضالها مع أخرى تمثل الخط الأساسي في الحزب أو الحركة الثورية، كانت تزداد جذرية إيديولوجية كتغطية

---

(1) CANNON, JAMES; The History of American Tratos Kyism, 1944, PP: 10, 12.

لهزيمتها أو عقلنة لها. المطلب الإيديولوجي يزداد قوة وإلحاحاً بالنسبة للمهزوم. فكي يتمكن من البقاء والاستمرار ويحفظ ثقته بنفسه والمستقبل يحتاج هذا الأخير إلى مواقف إيديولوجية أكثر جذرية، يبسط فيها الوضع العام ويحوله إلى ثنائية بسيطة بين خير وشر، وبشكل تخسر الإيديولوجية علاقتها مع الواقع المتحرك، فتصبح «طوباً». «هناك المصابون بعصاب (neurosis, nevrose) السلطة، البخل، الأنانية، الحسد، الطاعة، التمرد، الخ.. ولكن هناك درجة ثانية تبدأ بعدها الحالات المرضية.. عندما يتخذ الفرد سلوكاً دون أية علاقة مع الواقع»[1]. ديالكتيك الانحراف عن حركة الواقع الموضوعي يقود اليسار التبشيري نهائياً إلى هذه الحالات. إنه قد يكون مدفوعاً بخيبته من منجزات الحركة الثورية أو الثورة التي تبدو له أقل مما يجب أو ما يجب أو ما يمكن أن تكون، ولكنه قد يحسد اليسار الثوري الذي يعبر عنها على ما حققه. إنه يريد بشكل بائس تقريباً أن يدلل بأن هذا الأخير على خطأ وبأن الحق والصواب إلى جانبه، بأنه الثوري الحقيقي والأحسن. الموقف التبشيري الذي قاد إلى الانحراف الأساسي الأول يزداد تبشيرية مع الوقت في انتقاله من انحراف إلى آخر، إلى أن يصبح عذراً في التهرب من تحمل المسؤوليات الثورية أو بالأحرى خروجاً تاماً عن هذه المسؤولية، فيتخذ أسهل الطرق دون أية فكرة واضحة عن الغد أو أي اهتمام بما يترتب على ذلك من نتائج. هذا يعني، بدوره، التركيز على مشكلة واحدة، ينتقل بعدها إلى مشكلة أخرى، لأنه يكون قد خسر آنذاك كل علاقة ديالكتيك مع الواقع. هنا نجد سمة من أهم السمات التي يقود إليها ديالكتيك الانحراف ذاته.[2] هذه السمة

(1) Baechler, Jean,: Qu'est - ce que L'idéologie? Gallimard, 1976, P:143.

(2) إن اليمين كان في بعض الأحيان أكثر قدرة في الواقع من اليسار التبشيري على إدراك الواقع المتحرك لأنه يركز على سلبيات هذا اليسار وعلى جوانب الوضع الإنساني التاريخي التي تمتنع على التغيير السهل، ولأن هذا اليسار لا يستطيع الرجوع إلى الإتجاهات الموضوعية التي تحرك هذا الوضع في مرحلة معينة لأن اليسار الثوري السائد قد عبر عنها.

ماركس اعتبر مثلا أن بالزاك المحافظ والعدو الملكي الرجعي للثورة الفرنسية كان كروائي أكبر بكثير من العديد من الكتاب الإشتراكيين، إن صهره نقل عنه أنه كان يريد أن يكتب كتاباً عن «الكوميديا الإنسانية» بعد أن ينتهي من مؤلفاته الاقتصادية، ولكن الموت عاجله قبل أن يتمكن من تحقيق هذه الرغبة. إن ماركس رأى في الواقع أن بالزاك استطاع أن يكتب مؤلفه الرائع هذا لأنه كان بالضبط رجعيا(*). في ملاحظة حول تعليق ماركس حول بلزاك يكتب المفكر الماركسي هارينجتون أنه «حتى في النظرية الاقتصادية ولكن أكثر من ذلك في الفن ليس هناك من علاقة بسيطة بين المجتمع =

واضحة في جميع أنواع اليسار التبشيري، ومنها الأشكال الدينية التي تتمرد على الاتجاه العام السائد، «فمن طبيعة الهرطقة» كما يكتب دوسون «التضحية بالحقيقة الكاثوليكية والوحدة المسيحية عن طريق تركز انتباهها وجهودها على حل مباشر لمشكلة معاصرة ملحقة تواجه الفكر أو العمل المسيحي. الهرطوقي ينحرف لأنه يحاول أن يأخذ طريقاً مختصرة تعود إلى نفاد صبر إنساني طبيعي أمام ما يبدو من بطء وصعوبة في طريق الإيمان المنفي»[1]. وبراين ويلي يكتب، في حديثه عن الحركات الألفية (millennialist) السبتية (adventist) في القرون الوسطى «بأن أعضاء هذه الحركات كانوا يكشفون غالباً عن قدرة في استمرار التزامهم المسيحي عندما يضطرون مباشرة ودون وعي على العمل تحت وطأة مشاعر حادة يثيرها وضع من الحرمان الاجتماعي والاقتصادي. إن حدة مشاعرهم كانت تستطيع دعم مسيرة، ولكنها كانت عاجزة عن تحقيق برنامج عمل اجتماعي مستمر. إنها كانت عاجزة عن المساومة مع العالم بغية تحقيق مقاصدها التي كانت النقض التام للنظام الاجتماعي السائد»[2]. هذه ميزة كل يسار تبشيري. إن غرامشي، مثلاً، يصف تروتسكي بأنه «المنظر السياسي للمجابهة المباشرة في مرحلة لا يمكن لهذه الاستراتيجيا أن تقود إلا إلى الهزيمة.»[3]. عندما أعلن ماوتسي تونغ في بداية الكفاح المسلح معارضته لسياسة إرهابية في الإغارة على الإقطاعيين وقتلهم، اتهمه «اليساريون» بأنه «إصلاحي».

في سبتمبر، عام 1850 ألقى ماركس خطاباً أمام اللجنة المركزية للجامعة الشيوعية أعلن فيها:

«إن الأقلية تستعيض عن الملاحظة النقدية بالتزمت، وعن الموقف المادي بموقف مثالي. إنها تعتبر إرادتها الخاصة العارية كالقوة الدافعة للثورة بدلاً من وقائع

= وإنتاجه الفكري. الرجعيون والأرستقراط يتميزون في بعض الأحيان بنظرة أعمق من الثوريين(**).

(*) Harrington, Michael,: The Tuwilight of Capitalism Simon 8 Schuster, 1976, p:71.

(**) Ibid, p: 71.

(1) Dawson, Christphor,: The Dynamics of World History, The New American Lilerary, 1962, p: 263.

(2) Wilson, Bryan,: Religion In Secular Society, Penguin Books, 1966, p: 42.

(3) Macciochi, Maria-Antonietta,: pour Gramsci, Editions du Seuil, 1974, p: 95.

الوضع الحقيقية. بينما نحن نقول للعمال، يجب أن تعانوا خمسة عشر، عشرين، خمسين عاماً من الحرب، والحرب الأهلية، ليس فقط بغية تحويل الأوضاع الموجودة، بل تحويل أنفسكم، وكي تصبح هذه الأنفس مؤهلة للاستيلاء على السلطة، فأنتم، على العكس، تقولون لهم يجب عليكم الاستيلاء على السلطة رأساً، أو اذهبوا وناموا. بينما نحن نوجه بشكل خاص انتباه العمال الإلمان إلى طبيعة البروليتاريا الإلمانية المختلفة، فأنتم تمتدحون بخشونة مشاعرها القومية وأهواءها الطبقية. وهذا موقف، وذلك طبيعي، شعبي أكثر. فكما صنع الديموقراطيون من كلمة شعب كائناً مقدساً، فأنتم تصنعون تماماً الشيء نفسه من كلمة بروليتاريا».

المؤرخون يفصلون عادة بين طورين أساسيين في حياة ماركس، طور ماركس الرومانطيقي، الثوري الذي يدعو الناس إلى المتاريس، وماركس الناضج الذي يعتمد المنهج العلمي بجدية وإبداع. ولكن المشكلة هي تعيين الخط الفاصل بين الطورين، لأن ماركس كان، في الواقع، الاثنين معاً طيلة حياته، والفصل التام بينهما أسلوب خاطئ، القضية هي فقط قضية سيادة أحدهما على الآخر، وليس استثناء الواحد للآخر. كثيرون من المؤرخين رأوا في الواقع أن هذا الخط هو في هذا الخطاب الذي يحدد نوعين من «اليسار».

لينين كتب مطولاً حول «اليساريين». عندما رفضوا قيادته أخذ يشير إليهم بين هلالين، مما خلق تقليداً لا يزال سائداً إلى الآن حتى بين الشيوعيين الصينيين عندما كانوا يتكلمون عن اليساريين المعارضين للماوية. إن اهتمام لينين الأساسي في هذا الموضوع كان يدور حول تمييز يساره عن اليسار الذي كان يعارضه وسحق هذا الأخير إيديولوجياً. لهذا نجد، كما لاحظ ميهنيرت، أن كتاباته، الطبعة الرابعة، تشير إلى هذا اليسار في 850 صفحة، وهذا طبعاً لا يشمل الإشارة إلى اليسار دون هلالين[1].

(1) MEHNERT, KLAUS,: Moscow and The New deft UnIversity of California press, 1975, p:1.

في أحد مؤلفاته «شيوعية الجناح اليساري ـ اضطراب طفولي»، وقد صدر عام 1920 ينتقد لينين بغيظ شديد هذا اليسار الذي خسر كل شعور بالواقع، ويطالبه في ثلاثة فصول بالاستعداد للتسوية وللتعاون حتى مع أكثر البرلمانات ونقابات العمال «رجعية». إنه رأى فيه فقط متمردين دون أي تخطيط، ضحايا الفوضى لأنهم لا يملكون أية إيديولوجية واضحة، تماماً «كبورجوازي صغير أصبح جامحاً».

إن لينين كان يحذر مرة بعد أخرى وباستمرار من مخاطر هذا اليسار المتطرف الذي أسماه باليسار الطفولي. ففي مقال ظهر في «البرافدا»، في 21 فبراير، 1918، نراه يصف هذا اليسار بالقدرة على صنع الكلام الثوري فقط، وأن ما يعنيه بذلك هو ترديد الشعارات الثورية ولكن دون قدرة على ربطها بالأوضاع الموضوعية التي تميز منعطفاً معيناً للأحداث أو المرحلة الخاصة التي تحدث فيها. إنها شعارات ممتازة، جذابة وحتى مسكرة. ولكنها دون أرضية. فاليسار الطفولي الذي يتميز بصنع الكلام الثوري يماثل الحكَّة، أو جلداً يحتاج إلى الحك، ويسيء إلى الثورة على الرغم من أن هذه الشعارات تصدر غالباً عن أحسن وأنبل وأعلى الحوافز. ثم يدعو إلى النضال ضد الجملة الثورية، ومقاومتها مقاومة مطلقة كي لا يشير الناس في المستقبل إليهم بالحقيقة الأليمة بأن «جملة ثورية حول حرب ثورية خربت الثورة».

هذا التحذير الشديد من مخاطر هذا اليسار الطفولي ومزالقه كان ظاهرة مستمرة تميز جميع الحركات الشيوعية الظافرة، من اللينينية إلى الماوية.

إن ماوتسي تونغ يتكلم عن الصراع الثوري ضد أشكال الانحراف اليميني واليساري بين الثوريين «كأهم أنواع هذا الصراع»... «فاللجنة المركزية قاومت الانحرافات اليسارية واليمينية في الحزب، ولكن بشكل خاص الانحرافات اليسارية... كل حركة ثورية تواجه في صعيدها الخاص يساراً يحاول أن يتجاوزها دون وعي موضوعي للواقع، ويميناً يحاول أن يعثر سيرها لأنه يخاف من مجابهة الواقع. فعندما يبالغ الثوريون من قوة العدو أو من عنصر المقاومة، الثبات، والجحود في الواقع، يتحولون إلى يمين ثوري. وعندما لا يعطون العدو والواقع الذي يحاربونه ما يجب من أهمية وصحة تقدير لقواه يصبحون يساراً ثورياً، أي يساراً يريد تخطي

المراحل المختلفة سريعاً من دون أي تقييم صحيح للقوى الموضوعية التي تسود هذا الواقع»[1].

الحزب كان يناضل باستمرار ضد هذين الانحرافين من اليمين ومن اليسار. «من ناحية عامة، إن حزبنا تعلّم في السبعة عشر عاماً الأخيرة استخدام سلاح الصراع الإيديولوجي الماركسي ـ اللينيني ضد الأفكار الخاطئة في الحزب، على جبهتين ـ ضد الانتهازية اليمينية وضد الانتهازية اليسارية». ولكن ماو كان يرى أن الانتهازية اليسارية كانت، في الواقع، تشكل خطراً أكبر. « إن نظرية اليسار المتطرف تخلق المشاكل ولا تزال تشكل الخطر الأول في الحزب». هذا اليسار كان يلحق باستمرار الأذى والضرر بالحزب.«إن الميل إلى الطيش اليساري الذي يهمل كلاً من العناصر الذاتية والعناصر الموضوعية يضر كثيراً بالحرب الثورية وبأية حركة ثورية»[2].

إن ماوتسي تونغ يتكلم باستمرار عن هذه «الانتهازية اليسارية» وعن «اليسار المغامر» الذي يحاول فقط أن «يبرهن على روحه الثوري». إنه يحذر «من المتحجرين في صفوف الثوريين الذين يفشل تفكيرهم في التقدم مع الأوضاع الموضوعية المتحولة والذي يعبر عن ذاته تاريخياً كانتهازية يمينية لأنه لا يرى أن صراع الأضداد قد دفع العملية الموضوعية إلى الأمام، فتبقى معرفته ثابتة في مرحلة سابقة، منفصلة عن الممارسة الاجتماعية، عاجزة عن السير إلى الأمام كدليل لعجلة المجتمع». ولكنه من ناحية أخرى يحذر بشكل أشد من «اليسار اللفظي (أو المتاجر باللفظ)، لأن تفكيره يقفز فوق مرحلة معينة في تطور العملية الموضوعية، فيعتبر بعضه أن تخيلاته حقيقية، بينما يحاول البعض الآخر أن يحقق في الحاضر مثالاً يمكن تحقيقه فقط في المستقبل، فينفصلون بسبب ذلك عن الممارسة السائدة التي تشمل أكثرية الشعب، وعن حقائق الحاضر الموضوعية فيكشفون عن أنفسهم كمغامرين في أعمالهم». ثم

(1) Mao - Tse - Tung: Selected Works, Foreign Languages Press, Peking 1961, Vol IV. pp:422, 219, 181-182.

(2) Ibid, Vol. II, 1965 PP: 205,359, 380-381, 206, 293, 441, 444.

يضيف بأن «المثالية والمادية الآلية، الانتهازية والمغامرة، تتسم كلها بانفصام بين الذاتي والموضوعي، بانفصال بين المعرفة والممارسة»[1].

«إن كنا بالنسبة إلى الوضع ككل نبالغ في قوة عدونا، وبالتالي لا نتجاسر على إسقاطه، وعلى كسب الانتصار، فإننا نقترف خطأ انتهازياً يمينياً. إن كنا غير حذرين بالنسبة إلى كل جزء، كل مشكلة معينة، لا تدرس بعناية ولا تحسن فن الصراع، ولا نركز جميع جهودنا للمعركة، ولا ننتبه إلى كسب جميع الحلفاء الذين يجب أن نكسبهم (المزارعون المتوسطون، الحرفيون، والتجار الصغار المستقلون، البورجوازية المتوسطة، الطلاب، المدرسون، الأساتذة الجامعيون والمثقفون العاديون، موظفو الحكومة العاديون، المهنيون، والارستقراطية المتنورة) فإننا سنقترف خطأ انتهازياً يسارياً. في نضالنا ضد الانحرافات اليسارية واليمينية في داخل الحزب، يجب أن نقرر سياستنا تبعاً لأوضاع محددة».

إنه يكتب بأنه كان على الحزب أن يناضل ضد الانحرافات اليمينية والانحرافات اليسارية، ولكن بشكل خاص الثانية. ثم يضيف «بأن الانحرافات اليسارية تتشكل حالياً (عام 1948) بشكل أساسي من الاعتداء على مصالح المزارعين المتوسطين والبورجوازية القومية، التأكيد المتحيز على مصالح العمال المباشرة في الحركة العمالية، عدم التمييز في معاملة الإقطاعيين والمزارعين الأغنياء، في معاملة الإقطاعيين الكبار، المتوسطين، والصغار، أو بين الإقطاعيين الذين كانوا مستبدين محليين، وبين الذين لم يمارسوا الاستبداد، عدم إعطاء الإقطاعيين وسائل العيش الضرورية كما يجب طبعاً لمبدأ التوزيع المتساوي. . . رفض وجود أحزاب تمثل البورجوازية القومية، رفض الارستقراطية المتنورة. . . »[2].

ماو ينتقد بشدة الرفاق الذين أرادوا في مرحلة معينة من نمو المقاومة أن يطرحوا جانباً أي اعتماد على حرب العصابات وعارضوا بشدة استراتيجيا الانسحاب وإغراء العدو بالتقدم العميق في البلاد، متهمين كل من لا يقبل هذه الأشياء بالانتهازية وداعين

(1) Ibid, Vol. I, 1967, PP: 155, 306-307.

(2) Ibid, Vol. IV, PP:181-182,219, 270-271.

إلى معاقبته، هذه النظريات والممارسات كانت كلها خطأ، لم تكن سوى تصورات ذاتية تعبر عن ذاتها بالطيش والتعصب البورجوازي الصغير عندما تكون الأوضاع ملائمة، وبالتهور البائس والمحافظة والهروب في أيام المحن عندما تسوء الأوضاع. إنها كانت نظريات المتهورين والجهلة. إنها لم تكن تتميز بأية نكهة ماركسية، بل كانت في الواقع ضد الماركسية[1].

«في مجرى هذه الصراعات الكبيرة غرق بعض رفاقنا في مستنقع الانتهازية، أو صنعوا هذا على الأقل لمدة من الوقت. الأسباب هي كما ترى مرة أخرى أنهم لم يتعلموا التواضع من تجربة الماضي، لم يدركوا التاريخ الصيني والسمات والقوانين الخاصة بالثورة الصينية، كما أنهم لم يتميزوا بوعي الوحدة بين الماركسية ـ اللينينية وبين ممارسة الثورة الصينية»[2].

ماو كان دائم التأكيد على الممارسة كقياس لليسار الثوري الصحيح. «اكتشاف الحقيقة عن طريق الممارسة، ثم تحقق من طور الحقيقة عن طريق الممارسة. إبدأ من المعرفة الحسية وطوّرها بنشاط إلى معرفة عقلانية، ثم ابدأ من المعرفة العقلانية ووجه بنشاط الممارسة الثورية نحو تغيير العالم الذاتي والموضوعي. الممارسة، المعرفة، ثم الممارسة، المعرفة»[3].

هذه المفاهيم كانت تؤكد باستمرار أن «التحليل الذاتي لوضع سياسي، والتوجيه الذاتي للعمل يقودان حتمياً إما إلى الانتهازية، وإما إلى البوتشية (Putschism)[4].

هذه الملاحظات تعطي مثلاً واضحاً عن موقف الحركات الشيوعية الناجحة أو اليسار الآخر، الطفولي والانتهازي، الذي كانت تعززه هذه الحركات، إننا نجد المفاهيم نفسها في كتابات القادة الشيوعيين الكبار الآخرين، ولا حاجة هناك إلى الاسترسال في عرضها.

(1) Mao-Tse-Tung: Selected Military Writings, Peking, 1963, PP: 110-111,116-118, 288.

(2) Mao-Tse-Tung: Selected Works, Vol, II, P: 293.

(3) Ibid, Vol, II, P: 293.

(4) Military Writings: p:57.

إن كاسترو قال مرة «لو سئلت من هم أهم حلفاء الامبريالية في أميركا اللاتينية، لما قلت بأنهم البحارة الأميركيون ومدفعيتهم، لما قلت إنهم الفئات الأولغاركية أو الطبقات الرجعية، بل إنهم الثوريون المزيفون»[1]. ثم يضيف في مكان آخر بأن التطرف هو ما يدعى غالباً بداء الحصبة ويجب أن لا يخلط بينه وبين الصلابة الثورية. التطرف هو مظهر من مظاهر الروح البورجوازي الصغير في الحركة الثورية ويجب النضال ضده تماماً كما نناضل ضد التزمت الحزبي[2].

عندما نتابع أقوال وكتابات لينين، وستالين، وماوتسي تونغ وكاسترو الخ، . . . وغيرهم من كبار قادة اليسار الشيوعي، يبدو لنا وكأن المعركة الأساسية التي كان يخوضها هذا اليسار كانت في الواقع ضد اليسار الآخر، اليسار الطفولي ـ الانتهازي، وليست ضد القوى الرجعية في الداخل وفي الخارج. النقطة الأساسية التي كانت تعيد ذاتها في النقد الذي كان يوجهه هؤلاء ضد هذا اليسار الأخير كانت، كما يبدو من هذه الملاحظات، تركزه على الهدف، على المستقبل، ولكن من دون قدرة على ربط ذلك بالحاضر، دون قدرة على العمل مع تحولات هذا الواقع، التفاعل معه مرحلياً، وإدراك ديالكتيكه الموضوعي، ولهذا كانت مقاصده تنفصل عن هذا الواقع المتحول المتحرك والاتجاهات المرحلية التي كان يعززها، فتحوم حوله من الخارج عاجزة عن التأثير فيه وضبطه.

* * *

اليسار التبشيري يجهل أو يتجاهل الواقعة الاجتماعية العلمية، وهي أن الوقائع تتمرد على الرغبات الإنسانية، إنها ليست مطاوعة لهذه الرغبات، وإننا إن أردنا استخدامها يجب على هذه الأخيرة أن تكشف عن موضوعيتها، عن ديالكتيكها الموضوعي، والاتجاهات الأساسية التي تسوده، فتعمل معها، إنه لا يدرك أن خلق نظام جديد يعني عملاً مرحلياً دؤوباً مستمراً عبر تحولات الواقع المترابطة وحركته البعيدة المدى. لهذا كان من الممكن تسمية هذا اليسار باليسار الطفولي أو المراهق،

(1) Constant, Luis,: Fidel Castro: Revolution Cubaine, Vol. II, Maspero, 1968, p:109.
(2) Ibid, Vol. I, p:214.

لأن عجزه عن إدراك طبيعة الواقع الموضوعي المستقل يذكر بمرحلة الطفولة أو المراهقة وينطبق عليها.

فالمراهقة دور يتشوق فيه الفرد إلى مثل عليا ولكن دون وعي لصلتها مع التاريخ والواقع. والطفولة تعني نزوع الطفل إلى تحقيق رغباته رأساً ومباشرة ودفعة واحدة، وعندما يتعذر ذلك عليه يبدأ بالبكاء والصراخ وتكسير ما يمكن أن تصل يده إليه. هذا يعني أن الطفولة مرحلة يستطيع فيها الطفل أن يعي مبدأ الواقع الموضوعي، إن هذا الواقع يقدم اختيارات معينة يجب أن نوازن ونختار بينها، إن اختيارنا محدود بالواقع الذي نتفاعل معه، وهو بالتالي اختيار نسبي. فالطفل، وهو لا يزال عاجزاً عن الحركة، يعني شعوراً بقدرة كلية يؤمن معها أن العالم يمثل امتداداً لذاته، يتجاوب مع صراخه لأجل الغذاء والدفء والنوم والحرارة الإنسانية. الخ. . ولكن فيما بعد، عندما يبدأ الطفل بالاعتراف بوجود عالم خارجي مستقل عن مشاعره وإرادته، فإنه يحقق وعياً مخيفاً، إذ يكتشف أنه بدلاً من أن يكون كلي القدرة، فإنه دون سلطة تقريباً ويعتمد كلياً في حياته نفسها على عناية الكبار الذين لا يمارس أية سيطرة أبداً عليهم. في مرحلة لاحقة عندما يحاول الطفل سيادة طاقاته النفسية والعضوية، يتعلم بأن يتخذ الكبار نماذج يقلدها في سلوكه. هذه السمات التي تميز الطفولة أصبحت مألوفة من كتابات فرويد وأتباعه، وهي تكشف، كما يتضح، عن قرابة كبيرة مع السمات التي تميز اليسار التبشيري، لهذا لم يكن غريباً الإشارة إلى هذا الأخير كيسار طفولي.

وقوف هذا اليسار خارج الواقع الاجتماعي التاريخي كما يصنع نفسه، يعني تقلصه عن حركة هذا الواقع، وبالتالي نكسات وهزائم متواصلة، قد تقود في دورها إلى انتشار ليس فقط لا مبالاة ثورية بل عدمية عامة بين الثوريين، أي شعوراً بأن ليس هناك قصد أو وجهة غائبة للإنسان وأعماله، وأن الفراغ يسود حركة التاريخ، وهذا يدفع بدوره إلى الانغماس في الملذات الحسية والمقاصد الشخصية المحصنة.

التطرف الثوري الذي يترتب على اليسار التبشيري يفرض على الحركة الثورية قرارات ومواقف تزداد مغالاة أو تطرفاً ثورياً، وذلك كي تحافظ على استمرار تماسكها وحماسها. ولكن إن كان الوضع غير ناضج للعمل الثوري، فإن الحركة تواجه خطر

التفسخ والتبعثر إن لم تحقق تغييراً أساسياً في موقفها. بما أن اليسار التبشيري يتركز أساسياً على طبيعة المقاصد الثورية النهائية، على تصور حول المستقبل، يجد ذاته في هذاالتصور ويريد أن يحكم عليه في ضوء هذا الصعيد المجرد أو اللفظي، وكأن الإعلان عن المقاصد أو التصور كافٍ في تحقيق ما يبغيه. إنه يسلخ بذلك ذاته عن الواقع الموضوعي وبالتالي يعاني باستمرار عجزاً ثورياً أو بالأحرى يضع نفسه في وضع عاجز في ذاته بأن يتحول إلى وضع ثوري أو ناضج للثورة. بما أن الثورة ليست كما يبدو لهذا اليسار جوهراً ثابتاً لا يمكن لأي حادث أو تحول أو واقع أن يغير شيئاً منه، وكل ما نحتاجه هو الكشف عن هذا الجوهر والتعبير عنه كي يمكن للثورة أن تنتقل إلى الواقع فتغيره بسرعة بموجب صورتها، بل هي مسألة وسائل ملائمة وتنظيم وممارسة تستطيع التعبير عن حركة الواقع وضبطها، فإن اليسار التبشيري يجد نفسه عاجزاً باستمرار عن الإفادة من أية وضعية ثورية يمكن لهذه الحركة أن تعززها، هذا يعني، في دوره، حالة تعزز باستمرار الانشقاق في صفوفه وتقود إلى التبعثر.

هناك في كل مجتمع، في كل حركة ثورية طاقة نفسية تحاول التعبير عن ذاتها، ولكن هذه الطاقة محدودة. هذا يعني بالنسبة لليسار الثوري ضرورة استخدام هذه الطاقة بحكمة ودراية وتخطيط محكم فلا يفرط بها بل يوفرها ويضعها في خدمة أكثر الوسائل فاعلية ثورية. ثم إن كشفت الظروف بأن هناك حاجة إلى طاقة إضافية في مجال دون آخر، أو تركيزها في مجال جديد، وجب نقل ما يتوفر منها إلى حيث تكون الحاجة إليها أعلى. خروج اليسار التبشيري عن حركة الواقع يعني تبذير هذه الطاقة وبعثرتها في مجالات غير مفيدة للثورة، هذا إن لم نقل مضرة بها.

الشعب يكون، من ناحية أخرى، مستعداً للتضحيات مهما كبرت عندما يكون مقتنعاً أنها ذات قيمة في تحقيق مقاصد يتطلع إليها، أي إنها تؤدي إلى نتائج محسومة فعالة في تمهيد الطريق، اختصارها، والتحرك فيها بسرعة نحو هذه المقاصد. إن كان الشعب مقتنعاً بهذا فإن آماله الثورية تستطيع آنذاك أن تكشف عن طاقات هائلة مخزونة لم تستخدم، وأن تحرك طاقات مماثلة حتى بين الجماعات التي كانت تتميز سابقاً باللا مبالاة تجاه قدرها الاجتماعي السياسي. لهذا، فإن اليسار التبشيري يواجه عاجلاً أو آجلاً، يوم حسابه. فالوعود والمقاصد يجب أن تتحقق. والاستراتيجيا نحوها يجب

أن تكشف عن فاعليتها في تغيير الواقع، وهذا ما يكون هذا اليسار عاجزاً عن صنعه. عندما يتضح هذا العجز يخسر هذا اليسار بالتالي ما كان يتمتع به من ولاء، وينتفض الشعب عليه بسبب تضحيات ذهبت هدراً. الأفكار والمفاهيم السهلة ـ وهي سهلة دائماً عندما تقف خارج حركة الواقع الموضوعي ـ تكون مضرة لأنها تخلق وهما حول سهولة تحقيق المقاصد الثورية.

هذا الخروج من الواقع، والعجز عن التفاعل مع ديالكتيكه كانا يقودان إلى تمزقات وانقسامات مستمرة في صفوف اليسار التبشيري تقضي عليه نهائياً، سلبه في صفوف كل يسار ثوري لا يكشف عن فاعلية ثورية في المرحلة التي يعبر عنها.

الشيوعيون الصينيون، مثلاً، أمضوا ثلاثة عقود تقريباً في معركتهم ضد النظام التقليدي والاحتلال الأجنبي، فواجهوا مخاطر كبيرة وعثرات هائلة في حرب أهلية تحريرية طويلة. في هذا الصراع الطويل كان الحزب الشيوعي الصيني يكشف عن وحدة كبيرة في صفوفه وفي قيادته. سبب ذلك كان الصراع الذي كان يمارسه بفاعلية ونجاح ضد العدو، والذي كان يوجه طاقاته النفسية والأخلاقية إلى الخارج فتتركز على العدو وتكشف عن ذاتها في حربها ضده. إنها كانت، بكلمة أخرى، طاقات تنشغل بالعدو فتتحد في فاعلية أو ممارسة فعالة توفرت لها بسبب الأوضاع التي كانت تحيط بالمعركة، ما كان يجنبها الانشغال بنفسها انشغالاً ذاتياً يمزقها.

الصورة التي توفرها لنا التجربة الشيوعية الروسية كانت تعكس ما نجده في التجربة الصينية. فمعظم قادتها عاشوا في المنفى. فلم يقاتلوا معاً ولم يعانوا سوية نفس الآلام والصعاب والمخاطر، والتنظيم الثوري كان محدوداً في الواقع على كوادر قيادية، ويعمل سراً. هذا كان يعني، على عكس التجربة الصينية، وضعاً لا يساعد على تجنيد وتوجيه الطاقات النفسية إلى الخارج وتركيزها عليه في صراع فعال يعجن وحدة الحزب ويصهرها في قيادة موحدة. لهذا نرى أن المشاحنات والانقسامات الداخلية المختلفة والخطرة كانت ترافق الحزب قبل الثورة وبعدها إلى أن قضى عليها الجناح الستاليني نهائياً في الثلاثينات.

تماسك الحزب الشيوعي اليوغسلافي ووحدته عبر السنين أثارا الإعجاب. فبعد إزالة العدد القليل من الستالينيين بين القادة عام 1949 نجد أن المجموعة نفسها القيادية

تقريباً استمرت على ممارسة السلطة منذ ذلك التاريخ. فمن مجموعة مناضلين في حرب تحريرية، تطوروا إلى قادة بيروقراطيين متقدمي السن دون أن ينزلقوا في الصراعات الدامية حول السلطة التي رافقت تقريباً كل حزب شيوعي آخر في أوروبا الشرقية. السبب هو أن الأحزاب الأخرى لم تعرف الصراع الخارجي الذي كان يعزز، في التجربة اليوغسلافية، ممارسة فعالة كانت قادرة على استقطاب طاقات الحزب وتركيزها في تغيير ناجح للواقع الذي يحيط بها. إن قضية دجيلاس نفسها كانت قضية شاذة وتعلن في الواقع عن فرادة الحزب الشيوعي اليوغسلافي وتميزه، وذلك لأن دجيلاس كان من نوع نادر تحدى القيادة بسبب دوافع إيديولوجية ومزاجية وليس لأنه كان يرغب في المركز الأول لنفسه.

الحزب الشيوعي في فيتنام الشمالية يتميز أيضاً بوحدته التي لا مثيل لها تقريباً. ففي تاريخ يمتد إلى أربعين عاماً لم يمارس أي تطهير في صفوف قيادته الرئيسية. هذا لا يعني أن الحزب لم يعرف اتجاهات «يسارية» ويمينية»، و«عبادة شخصية». إنه كان يعرف كل هذه الظواهر، ولكن جميع الاختلافات كانت تجد حلاً لها بشكل ودي وعائلي دون انقسام حزبي ودون «إزالة» بعض القادة أو الأجنحة. هذه الظاهرة الفريدة تزداد أهمية ومعنى عندما نعلم أنه عند ولادته في أوائل الثلاثينات كان يلوح وكأن مصيره سيكون مماثلاً لمصير الحزب الشيوعي في جارته بورما أي التمزق والانقسام إلى ثلاثة أحزاب.

هذا التبعثر أو الانقسام الداخلي الذي كان نصيب عدد كبير من الأحزاب الشيوعية في الثلاثينات، والذي رجع إلى عدد كبير منها في الستينات، لم يمتد إلى الحزب الشيوعي الفيتنامي، على الأقل بالشكل الذي كشفت عنه الأحزاب الأخرى، فما هو السبب؟.. هل يعني أن الشيوعيين الفيتناميين يتميزون بطينة خاصة غير الطينة التي صنع منها الشيوعيون الآخرون؟... هل يعني أن قيادته هي، بسبب سر غريب، كانت أكثر ذكاء وتضحية ونكراناً للذات وقدرة قيادية من القيادات الشيوعية الأخرى؟... كلا طبعاً!.. السبب الأساسي الذي يفسر هذه الظاهرة هو أن الحزب، قيادة وتنظيماً وأعضاء، كان مشغولاً وغارقاً حتى الأذنين، يومياً وباستمرار، ليس فقط في معركة ضارية بل فعالة ضد هجوم الاستعمار والإقطاع الشرس. هذا يفسر ظاهرة

أخرى تشتق كما يبدو من هذه الظاهرة، وهي الفقر الفكري النسبي الذي وجد فيه. فالحزب لم يحاول إضافة شيء مهم إلى الماركسية ـ اللينينية، ومن يراجع كتابات قادته من أمثال هوشه مينه، وجياب، وترونغ شينه، فإن الفقر الفلسفي النسبي فيها يستوقف ولا شك نظره. فكتاباتهم كانت كتابات قادة عمليين همهم الأول إقامة الدولة الاشتراكية الأولى في جنوبي ـ شرقي آسيا.

ظاهرة هذه الانشقاقات تطالعنا بشكل واضح في أوضاع المنفى والتشرد التي ينتقل إليها الثوريون بعد خروجهم من أوطانهم. ما كان يستوقف انتباه المراقبين باستمرار في سلوك هؤلاء، في باريس مثلاً التي كانوا يرحلون إليها، كان الخصومات والمنافسات الفردية الحادة والريبة ليس فقط بين المجموعات المختلفة بل في داخل المجموعة الواحدة. ولكن السبب واضح. ففي باريس أو المنفى يتحولون إلى أفراد فقط دون قواعد وعلاقات وانتماءات شعبية أو صراعات ومجابهات توجههم ضد سلطات معينة، ولهذا ينكشف بوضوح ما قد ينطوون عليه من أفكار ومشاعر ونوازع وأذواق مختلفة ومتناقضة. فمن دون كفاح خارجي يومي من هذا النوع ترتد طاقاتهم عليهم وتمزق صفوفهم. الحركات الثورية التي تستطيع أن تتفاعل مع الواقع وتعمل على سيادته وتحويله بفاعلية، تنشغل بذلك عن ذاتها وتكشف عن وحدة قيادة وصف هي النقيض التام للتمزق الذي يكشف عنه عادة اليسار التبشيري.

بعض المفكرين يرى أن سبب فشل الحركة الاشتراكية في الولايات المتحدة يعود إلى الانقسامات الحادة المتعددة التي كانت تمزقها باستمرار. الذين يقدمون تفسيراً كهذا يقفون دون شك أمام الفرع وليس الأصل، لأنهم يتجاهلون الأسباب الموضوعية التي تقف وراء هذا التمزق، ويحولونه إلى أسباب ذاتية محضة. الأخيرة هي نتائج فقط ترتبت على الأولى، وهي من النوع الذي لا يدفع إلى انتصار حركة اشتراكية وخصوصاً ثورية. المجال لا يتسع طبعاً بأي شكل للبحث في هذه الأسباب الموضوعية وعرضها، ولكن من الممكن الإشارة إلى بعضها وأهمها وهي: 1 ـ غياب نظام إقطاعي وطبقة ارستقراطية. 2 ـ المجتمع كان مجتمعاً متفتحاً، ديناميكياً، متحركاً، يقوده وعي طبقي وسطي. 3 ـ الامتداد الجغرافي المستمر إلى الغرب واستعماره، ما كان يخلق باستمرار فرصاً جديدة للذين فشلوا ولم ينجحوا وراء

الحدود السابقة. 4 ـ المساحة الجغرافية الضخمة والثروات الطبيعية الهائلة التي كانت تكشف عنها. 5 ـ قلة السكان وارتفاع مستوى المعيشة باستمرار بين أوساط الشعب. 6 ـ الحصانة العسكرية والسياسية التي ولدتها العزلة الجغرافية عن أوروبا ودولها الكبرى. هذه الأوضاع خلقت مجتمعاً مرناً ومنفتح الحدود الطبقية نسبياً منع قيام طبقة عمال مستقرة تتميز بوعي طبقي ثوري. لهذا كان تاريخ الحركات الاشتراكية والعمالية الأميركية يكشف أنها كانت تنشغل، في الواقع، بانقساماتها ومشاحناتها الداخلية بدلاً من الانشغال بالإضرابات والثورة والنضال ضد الطبقة الحاكمة. هذا ما يحدث عندما لا يعبر اليسار عن تحولات موضوعية قوية تقدم له وترافقه.

القطاعات الماركسية في اليسار التقليدي في أميركا ـ كشيء يختلف عن اليسار الجديد في الستينات والسبعينات ـ كانت في الواقع تركز قصدها على مصير الاشتراكية العالمي وذلك بسبب عزلتها السياسية الداخلية، والخيبة التي تعانيها. بعد الحرب العالمية الأولى عجزت هذه القطاعات الممزقة عن تشكيل قوة سياسية ذات معنى. اليسار الأميركي أصبح، في الواقع يتميز، ابتداء من أواسط العشرينات حتى الآن، «. . . بالتشيع، الهامشية، والاستلاب (Alienation) في الحياة الأمريكية»[1]. هذا يصف بدقة مصير اليسار الأميركي التقليدي الذي كان قد وصل إلى طريق مسدودة إلى أن تجددت حيويته في الثلاثينات إثر الكارثة الاقتصادية الكبيرة التي وقعت آنذاك. ولكن تقلصه رجع يتابع طريقه في الأربعينات والخمسينات. في الخمسة عشر عاماً من الحرب الباردة، كان هذا اليسار يتشكل من بعض الفرق التقليدية كالحزب الشيوعي، بعض الخلايا التروتسكية ومجموعة من الفئات الهامشية الأخرى. أعلام الفكر اليساري الجديد من أمثال ميلز، باران، سويزي، ماركوزه، الخ. . . بقوا رغم شهرة واسعة محصورين في هامش الحياة الفكرية الأميركية. جماعات اليسار الجديد بقيت تعاني الخلل نفسه رغم الدور الكبير الذي لعبته بسبب حرب الفيتنام، وهزيمة أميركا فيه، وذلك بسبب الطريق المسدودة نفسها.

هذه الظاهرة أعادت ذاتها في ما يسمى باليسار الجديد في الغرب أثناء الستينات

(1) LASCH, CHRISTOPHER,: The Agony of The American Left, Alfred Knopf, 1969, p:40.

والسبعينات. فهذا اليسار كان مبعثراً ممزقاً ومنقسماً على ذاته، وذلك لأن الوضعية التي كانت ترافقه لم تكن وضعية ثورية أو منفتحة للثورة. فالمواقف الثورية التي كان يعبر عنها لم تكن تجد صدى لها في صفوف الشعب ولم يكن ينفتح لها الواقع الذي تعانيه. وإنه من اليابان إلى أوروبا كان ينقسم في كل مكان إلى جماعات عديدة تبلغ العشرات في بعض الأحيان، تبعاً لميولها الماوية، والتروتسكية، الغيفارية، الخ.. وتنشغل عادة في خصوماتها ومماحكاتها.

الحركة التروتسكية كانت دائمة التمزق إلى فئات وجماعات صغيرة متشاحنة ومتقاتلة، وللأسباب نفسها.

تروتسكي مات أو بالأحرى قتل عام 1940 ولكن حركته استمرت ودللت على قدرة كبيرة على البقاء رغم غياب أي قائد يستطيع أن يفرض قيادته أو أساساً نظامياً قوياً. إن حيوية التروتسكية المنظمة لا تكمن، في الواقع، بوحدتها بل في قدرتها على التناسل عن طريق الانقسامات الداخلية. تاريخ هذه الانقسامات لم يكتب بعد، ولكن من الواضح، أن الجماعات التروتسكية المتعددة في العالم لم تحقق في أية فترة من تاريخها علاقات طيبة مع بعضها البعض الآخر[1].

هذه الأمثلة كافية في التدليل عما أشرنا إليه من نتائج سلبية تترتب على خروج اليسار التبشيري عن حركة الواقع الاجتماعي التاريخي وعجزه عن التفاعل مع ديالكتيكه الموضوعي المستقل. هذا الخروج يدفع به في كثير من الأحيان إلى مواقف وأعمال دون كيشوتية تلغي الواقع تماماً ولا يعلم المرء إن كان يجب أن يضحك أم يبكي أمامها. فاليسار «الجديد» في أوروبا والولايات المتحدة. مثلاً، كان يقارن بين دور الجامعات «المحررة» وبين المناطق الجغرافية المحررة في الصين أثناء الحرب الشعبية، وذلك كقاعدة لتحرير المجتمع ككل من النظام الذي يسوده. فالجامعات التي يحررها الطلاب قادرة بأن تقوم بدور مماثل لدور تلك المناطق قبل انتصار الثورة النهائي عام 1949. الخروج من الواقع يبلغ هنا ليس فقط درجة عليا من الاعتباطية بل

(1) Tucker, Robert,: stalinism W.W.Norton and Co.1977, PP.39 - 40.

من الهلوسة، لأن هذا المفهوم يتجاهل تماماً الفروق والتناقضات القائمة بين المناطق الجغرافية المحررة في الثورة الصينية وفي كل حرب شعبية أخرى وبين جامعات يستولي عليها الطلاب. الذين قاموا بهذه المقارنة وقالوا بها تجاهلوا تماماً أن المناطق المحررة كانت تعني قيام دولة جديدة، نظام جديدة، نظام جديد بكل ما يميز النظام السياسي من عناصر أساسية. فهي كانت تعتمد أجهزة إدارية وسياسية تنظمها، تعبر عن إرادتها، تشرف على قضاياها وتدبر أمورها، ومراكز إنتاج صناعي وزراعي توفر لها اقتصاداً مستقلاً خاصاً لها يؤمن حاجاتها. إنها كانت تشمل ملايين من الناس الذين كانوا يقفون وراءها، تعمل على دعمها والدفاع عنها، وقوة عسكرية ضخمة تؤمن حمايتها والدفاع عنها، وتخوض في سبيل ذلك معارك ضارية ضد جيوش النظام الاقطاعي الامبريالي فتهزمها وتحرر مناطق إضافية منه تكون قادرة على مد حمايتها إليها بقوة السلاح. هذه المناطق المحررة كانت تعني النقيضين: الجديد الذي ينافس النظام القائم ويتحداه في كل مجال من مجالات الحياة، وتمثل بالتالي صراعاً بين نظامين دخلا معركة حياة وموت. الجامعات المحررة كانت لا تتميز لا عن قريب أو بعيد بأي شيء من هذا، وكانت تعتمد كلياً في استمرارها على المناطق التي يسودها ويتحكم بها النظام القائم. فهي كانت عاجزة عن البقاء أكثر من بضعة أيام إن ضرب النظام حصاراً قوياً حولها. الذين تكلموا عنها كمناطق محررة تجاهلوا تماماً وجود الدولة الرأسمالية والإمكانات الهائلة التي تعتمدها، فكانوا يتكلمون كأن هذه الدولة غير موجودة أبداً بأنظمتها المختلفة، بسيادتها المحكمة على جميع المناطق، بقواتها العسكرية والبوليسية الضخمة، وبالدعم الشعبي العام الذي يقف وراءها، أو كأن هذه الدولة ستسمح بتحرير هذه الجامعات وتحصينها وتموينها، إلخ.. دون أن تصنع شيئاً. المسألة التي تجدر الإشارة إليها هنا والتي تثير الدهشة هي، كيف يمكن لمفهوم اعتباطي كهذا المفهوم أن ينتشر أو أن يتوفر له من يقول به دون أي حرج؟..

الثوريون الفرنسيون احتلوا قصور التويليري وفرساي، والجماهير البولشفية احتلت قصر الشتاء، في مجرى ذلك سحقوا القوى التي كانت تدافع عنها، فكان سقوط القصور مؤشراً بسقوط النظام كله، ولكن الشيء الوحيد الذي استطاع اليسار الطلابي أو الجديد احتلاله كان بعض قاعات الدارسة والإدارة في بعض الجامعات.

هذا الانحراف الذي يميز اليسار التبشيري وأشكاله المختلفة لا يترتب فقط على إدراك حركة الواقع، وعن التفاعل مع الديالكتيك الموضوعي المستقل الذي يكشف عنه، بل يتفرع إلى حد كبير عن ديالكتيك الموقف الثوري الداخلي ذاته. ففي نقضه للنظام القائم وتركيزه على هذا النقض، يميل هذا الموقف ـ وخصوصاً عندما لا يتميز بالإدراك العلمي الموضوعي والمنهج الديالكتيكي كما حددناه سابقاً ـ إلى رؤية الجوانب التي تنفيه فقط فيركز اهتمامه عليها ويصبح تفكيره عاجزاً عن رؤية الجوانب الأخرى، أو الامتدادإلى الوضع ككل[1].

من ناحية أخرى، إن التناقض الكبير الذي يبرزه الموقف الثوري بين تصوره للمستقبل وبين النظام القائم، يرفع كثيراً حدة المواجهة الثورية. هذا يعني أن هذا الموقف الذي يتشوق إلى بناء مجتمع جديد يحل محل المجتمع التقليدي، يرى نفسه مضطراً ومدفوعاً بشكل آلي عفويٍ إلى تخطي المراحل والأطوار المترابطة. هذا يجعله، في دوره، نافد الصبر أمام الحواجز الموضوعية، ضيق الصدر بكل ما يعترض طريقه، قليل الاحتمال لكل منطق موضوعي يذكره بموضوعية الواقع واتجاهاتها المستقلة التي يجب العمل معها، ولكل شيء يمكن أن يعثر سيره ويعّوق حركته. الانضباط الموضوعي يصبح أمراً لا يطاق لأنه يعني، الانتظار، والانتظار الطويل في

(1) هذا النوع من الأعمال المسرحية التي تصدر عن اليسار التبشيري عندما يعمل تماماً تقريباً خارج إمكانات الوضع الموضوعي الثورية تذكر بأعمال دون كيشوتية مماثلة في اليمين. فعندما يخرج هذا اليمين تماماً من حركة التاريخ التي تميز مرحلة معينة يقوم بمغامرات عسكرية وفتل عضلات مسرحية تثير الشفقة!.. بعد هزيمة فيتنام وكارثة كمبوديا اللتين أصابتا أميركا، استولت القوات الكمبودية على الباخرة الأمريكية «المایاغواز» التي دخلت مياهها الإقليمية، فأمر الرئيس فورد بعض القوات الأميركية البحرية الموجودة على مقربة من كمبودية بتحرير الباخرة بالقوة لأن أميركا يجب أن لا تخضع لهذا النوع من «القرصنة»!.. ولكن على الرغم من تفاهة الحادث الكبرى، بأنه لم يكن مقصوداً كتحدٍ أو إهانة لأميركا، وعلى الرغم من أن القوات الأميركية خسرت 40 قتيلاً في محاولة استرداد باخرة تحمل فقط 29 بحاراً، وعلى الرغم من أن الحكومة الكمبودية كانت قد أطلقت سراح هؤلاء قبل الهجوم، فإن هذه المحاولة لقيت ترحيباً كبيراً كتعبير عن «الروح» الأميركي وانتصاراً له، محاولة الرئيس كارتر في تحرير الرهائن الأميركية عن طريق «حملة جوية» انهارت في الطريق بسبب ما أصابها من «عطل ميكانيكي»، توفر مثلاً آخر، إسقاط طائرتين لليبيا من قبل القوى الأميركية في البحر الأبيض المتوسط كتحدٍ للقذافي يوفر، مثلاً ثالثاً. الخ.. أعمال كهذه تشكل مؤشرات فقط وتدل على الانحطاط التاريخي للنظام الذي يقوم بها.

بعض الأحيان، في الانتصار على النظام القائم، أو في تسجيل انتصارات مهمة ضده. الثوري يفقد آنذاك هذا الانضباط، وينزلق بالتالي في عالم من التصورات الذاتية التي لا تلبث أن تقطع علاقته مع ديالكتيك الواقع الموضوعي.

في حالة كهذه يمكن للموقف الثوري أن يخسر أية علاقة موضوعية حية مع الواقع، فينتقل إلى أعلى مرتبة من مراتب الفكر التبشيري. فهو يشعر آنذاك وإن لا واعياً بعجزه التام تقريباً أمام الواقع فيعالجه بخروج كامل منه يعفيه من مسؤولية العمل فيه.

من ناحية ثالثة، جميع التنظيمات والقيادات الثورية تشمل كثيرين، كثيرين، من العاجزين عن الفكر الموضوعي أو الفكر الانتقادي، وبالتالي لا ينجذبون إلى الثورة بسبب فكر خلاّق أو ناضج، بل بسبب مشاعر ومصالح. ولهذا فإن وجودهم ذاته يولد ضغوطاً هائلة على اليسار في تبسيط مفاهيمه وتصوراته، وهو تبسيط يزداد حدة مع الوقت إلى أن يخرجه تماماً من الواقع إن هو عجز أثناء مجراه عن التفاعل مع هذا الواقع والكشف عن ممارسة ثورية فعالة في التأثير فيه وضبطه.

من ناحية رابعة. يمكن القول أيضاً إنه عندما يبلغ وضع اجتماعي معين درجة قوية من الانغلاق أمام مقاصد «ثورية» جديدة، فإن نفسية الخروج منه وعليه تزداد حدة في أواسط اليسار الذي يدعو إليها. ففي مجتمعات يتحقق فيها نوع من الإجماع العام، السياسي والإيديولوجي، يصبح هذا الخروج جذاباً وخطر الاعتماد على «الإرهاب» أو العنف في ذاته كأداة تعبير عنه كبيراً. هذا يعود طبعاً إلى كون السياسة التي تتفرع عن هذا «الإجماع» تترك متنفساً أو مخرجاً ضعيفاً وضيقاً جداً لذوي الأفكار الجديدة والثورية في التعبير عن هذه الأفكار وبإحداث أي أثر عن طريق ما يتوفر من وسائل دستورية. عزلة هؤلاء النفسية تصبح ثقيلة الوطأة وتشجع على الاتجاه إلى اعتماد «الإرهاب» في ذاته طريقاً في التعبير عن تصوراتهم الثورية. لهذا يمكن القول إن اليسار التبشيري يشكل، من هذه الزاوية، أداة سيكولوجية في التنفيس عن النفس، في تصريف غضب مكبوت وليس عنصراً فعلياً في تحقيق التحول الثوري، ولهذا فإن ممارسته تكون غير منتجة أو حتى ضارة بقضية هذا التحول.

وأخيراً يجب التنبيه بأن الموقف الثوري خارج السلطة يختلف عما هو عليه داخل الحكم والدولة. ففي الأول يستطيع أن يمارس كل أنواع المبالغات والشعارات والتطرف، أما في الثاني فإن ضغوط ممارسة السلطة نفسها تفرض عليه درجة من الموضوعية لا تتوفر للأول.

* * *

هنا في هذا الخروج من حركة الواقع الاجتماعي التاريخي والديالكتيك الموضوعي الذي يعبر عنها يلتقي اليسار التبشيري باليمين، الأول لأنه يتجاوزها بشكل يفصله عنها، والثاني لأنه يتأخر عنها وعن مجاراتها بشكل يقطع علاقته بها. الأول يعثر غير واعٍ سير هذا الواقع، لأن الممارسة الثورية الفعالة يجب أن تقترن بتفاعل ديالكتيكي صحيح معه، والثاني يعثره لأنه يحاول واعياً تجميده[1].

الفكر المحافظ أو الرجعي يقترن أساسياً بالمفهوم القائل إن القوانين الاجتماعية أو العلاقات الانتظامية (Regularities) غير موجودة في التاريخ أو أن وجودها جانبي دون معنى كبير. إنه يرى أن كل حادثة تاريخية هي حادثة فردية. (هذا القول متناقض لأنه إن كانت جميع الحوادث التاريخية حوادث فريدة، فإنها تشارك على الأقل في فرادتها).

اليسار التبشيري يدل هو الآخر، من حيث الممارسة، على موقف مماثل لأن هذه الممارسة تعمل وكأن التاريخ يتشكل من ظواهر منفصلة، من إرادات، ومن قوى ذاتية.

اليسار الثوري يعني تغيير الواقع ودفعه نحو مقاصد جديدة، ولكن الأمانة لقضية الثورة لا تعني أن صاحبها يعرف كيف يخدم هذه القضية، أو أنها تستطيع أن تؤمن

---

(1) إننا نجد حالياً مثلاً واضحاً عن هذا اليمين العاجز عن اللحاق بحركة التاريخ في سياسة الولايات المتحدة الخارجية وخصوصاً في العالم الثالث، التي تخرج من هذه الحركة جميع الصراعات والثورات الاجتماعية التي تحدث فيه. وبدلاً من أن تعيدها إلى ديالكتيك الواقع الموضوعي الذي يتفرع عنه فإنها تجد تفسيراً لها في «المؤمرات» الشيوعية والتدخلات السوفياتية. إنها في كل مكان تساند وتدعم الأنظمة والقوى المحافظة أو الرجعية التي لا يمكن لها الاستمرار طويلاً بسبب حركة التحول الاجتماعي التاريخي التي تتجاوزها بسرعة. إنها سياسة تعتمد الوسائل العسكرية والعنف لأنها لا تستطيع اعتماد قوى هذا التحول الموضوعية.

ليسار يلتزم بها أن يتميز بالوعي الثوري الفعال الذي يمكن أن يتوفر له من هذه الزاوية. لهذا فإن الثورة ـ المضادة تتمثل ليس فقط بالقوى الرجعية والمحافظة، بل أيضاً بجميع القوى «اليسارية» التي تعجز عن الإسهام بهذا التحويل، ولكنها تتصدى معادية ومخاصمة للحركة الثورية التي تجريه وتصنعه، وذلك باسم مقاييس مجردة حول ما يجب أن تكون عليه الثورة. هذا اللقاء يمتد في كثير من الأحوال إلى استخدام حجج متماثلة ضد الوضع القائم أو اليسار الثوري الذي يقود عملية تجاوزه. عندما تقف جماعة ما ضد اتجاه تاريخي يهيمن على مرحلة ما لأنها لا تستطيع الاستجابة له والتفاعل معه، فإنها تجد نفسها مضطرة بشكل عفوي إلى توفير الحجج والمفاهيم التي تبرر موقفها، ما يدفعها عفوياً أيضاً إلى تبني الكثير من حجج ومفاهيم تستخدمها الجماعات والتيارات الرجعية والمحافظة المهزومة.

عندما نراجع أحداث وتحولات التاريخ الثورية نرى بوضوح كم كان من السهل على الذين خرجوا من التاريخ، على اليمين أو اليسار، تجنب الكوارث وأشكال الفشل التي أصابتهم لو أنهم استطاعوا فقط رؤية ما كان يكشف عنه التاريخ بوضوح. ولكن اللا عقلانية كانت ولا تزال تلعب دوراً أساسياً في صنع العمل السياسي. فالطبقات والقوى التقليدية الحاكمة تعجز أو تمتنع عن رؤية الواقع كما يصنع نفسه، عن صنع ما يجب، وما يمكن صنعه، بسبب مصالحها والإطارات الإيديولوجية الاستاتية التي تنطلق منها. واليسار التبشيري أيضاً يعجز أو يمتنع عن رؤية هذا الواقع بسبب أفكاره وتصوراته المجردة والمتسرعة التي تفقده القدرة على التجاوب الفعال معه.

هذا اليسار يعمل وكأن كل شيء ممكن له. فكما أن اليمين يعيش في الماضي دون صلة حية مع الحاضر، فكذلك أيضاً هذا اليسار يعيش في مستقبل لا صلة له مع الحاضر. كلاهما يخسر علاقته الحية مع التاريخ كما يتحول في مرحلة معينة. ولذلك ليس من الغريب أن نراهما يلتقيان في الكثير من مواقفهما.

الثورة ليست ضرورة أخلاقية فقط، بل هي علم، والعلم يعني حقائق ووقائع واتجاهات قد تأباها وترفضها الثورة كضرورة أخلاقية. المهم ليس أن يكون اليسار

مؤمناً بالثورة مخلصاً لها فقط لأنه قد يلتقي مع أعدائها إن لم يعرف كيف يخدمها.

بما أن اليسار التبشيري ينظر إلى الواقع نظرة مطلقة مثالية لا نعرف التفاعل معه عبر استراتيجيا مرحلية موضوعية أو تكتيك ديالكتيكي، ويحاول إسقاط النظام مباشرة وليس عن طريق النضال الطويل النفس، المتعرج الاتجاه، الممتد والصبور، فإنه يتجه إلى العنف عفوياً وإلى ممارسته كأداة في تحقيق الثورة. رؤية نفسه خارج مجرى التاريخ في مرحلة معينة يزيد من هذا الميل بسبب أشكال الخيبة المريرة التي يتعرض لها.

نقض واقع لا يعني إذن أبداً أن الفريق أو الاتجاه الذي يعلن ذلك يشكل يساراً ثورياً. فالفكر الاشتراكي الحديث عند ظهوره والفكر اليميني التقيا مثلاً في كراهية للصناعة والأعمال التجارية ـ فيما يتعلق بالفكر الماركسي بكراهية الصناعيين فقط وليس الصناعة. من ناحية أخرى، إن كروبوتكين، وروسو، وتولستوي، وموريس، وبلاتشفورد، وغاندي، تنكروا للصناعة الحديثة التي تجرد الحياة «من عفويتها وجمالها» كما كتب كروبوتكين، ولكن هذا التنكر وجد صدى في حركة «الدم والأرض» النازية، وفي الدولة النقابية الفاشيستية التي كان «يفترض» بها وضع نهاية لبواعث الربح والمصالح الطبقية. ثم إن الفكر الاشتراكي والفكر المحافظ شاركا آنذاك بحنين إلى ماضٍ مثالي أو بالأحرى جُعل مثالياً.

في أواخر القرن التاسع عشر، وخصوصاً في السبعينات والثمانينات اتجه الثوريون الروس إلى الاعتماد الصرف على «الإرهاب» بعد أن فشلت مرحلة «الرجوع إلى الشعب» التي كشفت، في الواقع، أن الشعب ـ وخصوصاً الفلاحين ـ لم يكن مستعداً أو حتى منفتحاً لفكرة الثورة. في ذلك الوقت حلت فكرة الأقلية المفكرة، أو كما كتب لافروف آنذاك، فكرة الأفراد «ذوي التفكير ـ الانتقادي» مكان فكرة الشعب كصانعي التاريخ. العنف «الثوري» ـ أو بالأحرى الإرهاب ـ [1] كان أداة هذه الأقلية في تحقيق هذا الهدف، صنع التاريخ.

(1) كلمة «إرهاب» تشير هنا إلى عنف يمارسه ثوريون لا يعملون مع حركة التاريخ كما تعبر عن ذاتها وفي وضعية ليست وضعية ثورية. أما العنف الثوري فهو عكس ذلك ويعمل مع حركة التاريخ ويعبر عن وضعية ثورية.

إن جورج بلاخنوف، أب الماركسية الروسية، كتب في وصف هذا التحول. . «الشعبيون الاشتراكيون» الروس لم يتجهوا دائماً إلى أنفسهم، ولم يضعوا آمالهم في الإنتيليجنسيا فقط. فقد مر وقت حاولوا إثارة الشعب الذي كان يعني طبعاً الفلاحين، ولكن كما كان متوقعاً بقي الفلاحون في حالة صمم أمام دعواتهم الثورية. ولهذا اضطروا رغم إرادتهم بأن يحاولوا تحقيق الثورة بقواهم الخاصة. ولكن ماذا يمكنهم صنعه بهذه القوى؟. . لم يكن هناك من طريق أمامهم سوى ما نسميه بالإرهاب. . . التمرد الفردي»[1].

المنظمات «الثورية» الروسية في القرن التاسع عشر، من «الديسمبريين» (Decembrists)، إلى «الشعبيين الاشتراكيين و«النارودنيك» كانت تمثل جماعات «ثورية تتشكل من أقليات محدودة العدد من الإنتيليجنسيا، ولكن دون قواعد شعبية ووضعية ثورية. البولشفيك كانوا أيضاً أقلية ثورية محدودة من الإنتيليجنسيا دون قواعد شعبية، ولكن كان هناك وضعية ثورية جامعة استطاعوا التعبير عنها وضبطها، وبالتالي كسب القواعد الشعبية العريضة، وتحقيق الثورة.

الظاهرة نفسها تواجهنا في اليسار الطلابي الذي ظهر في الستينات والسبعينات، وخصوصاً في الولايات المتحدة. هذا اليسار طور نقده للسلطات إلى درجة جيدة ولكن كان من المحتوم عليه الفشل بسبب غياب الوضعية الثورية والقواعد الشعبية العريضة. هذا اليسار لم يكن فقط في عزلة عن الشعب يعمل بعيداً عن الولاءات والانتماءات السياسية والاجتماعية والإيديولوجية التي تسوده، بل كان أيضاً على نقيض اليسار الطلابي الروسي في القرن التاسع عشر، مثلاً، لا يمثل هجرة الطلاب أنفسهم. ففي أميركا كان يمثل، في أوج نجاحه، عدداً لا يتجاوز خمسة في المئة. هذا اليسار استطاع أن يرفع صوته عالياً بسبب هزيمة النظام الأميركي في فيتنام، ولكن عندما انتهت هذه الحرب أو بالأحرى أخذت طريقها نحو النهاية، لم يجد هذا اليسار صدى له. النتيجة كانت أن الأكثرية الساحقة منه انسحبت من العمل السياسي كلياً، أو اندمجت ثانياً بحياة النظام تعمل وتشارك فيه. القسم القليل الضئيل عددياً الذي استمر

(1) FEUER, LEWIS,: The Conflict of Generations Basic Books, 1969, P: 423.

في «ثوريته» أصبح أكثر جذرية وتحول، في الواقع، وخصوصاً مجموعة «الإرصاديين»، (Werthermen) إلى تقديس العنف في ذاته، وإلى درجة ناقشوا فيها مرة، إن كان يجب قتل الأطفال البيض لأنهم قد يتحولون إلى «خنازير»، أي إلى شرطة.

العفوية، التمجيد الرومنطيقي لغيفارا وماوتسي تونغ، رفض الأشكال البيروقراطية، التنظيم، والتركيب (Structure)، كل شيء يذكر بالنظام (System)، والسلطة التنظيمية (Intitutional) من ثقافية، وإيديولوجية (ومنها الماركسية ـ اللينينية)، إلخ. . كل هذا قاد اليسار الطلابي آنذاك إلى نوع من اللا عقلانية مماثلة لما نجده في الفوضوية كانت تعبر عن تمرد صادق ضد اتجاه تاريخي عام ابتدأ من القرن التاسع عشر بشكل بارز يتجه نحو التركيز السياسي والاقتصادي وما يترتب عليه من استبدال للقيم الشخصية بقيم جماعية، ومن إخضاع الفرد للدولة وأجهزتها البيروقراطية. إنها تتخذ ولا شك مفاهيم ونماذج سياسية مختلفة ولكن ما يجمع بينها ويوحد بين القائلين بها، سواء كانوا نبلاء من أمثال كروبوتكين أو مناضلين ثوريين من أمثال باكونين، هو الاعتقاد بأن جميع أشكال السلوك الإنساني تستطيع التحقق بصورة أحسن إن هي تحررت من الإرغام أو أشكال القسْر السياسي. لهذا رأوا أن الدولة التي تقترن بأعلى أشكال هذا القسْر تمثل الشر، وأنها شر يجب مقاومته وتجنبه.

هذا التفكير قد يكون بليغاً جداً من ناحية لفظية وتبشيرية، ولكنه دون معنى من ناحية سياسية وتاريخية. لهذا كانت الفوضوية عاجزة عن الاستمرار كظاهرة أو حركة سياسية، وذلك لأنها طرحت ذاتها، في الواقع، خارج التاريخ ومجراه.

عندما ابتدأت حركة تمرد الطلاب الفرنسيين عام 1968 اتهمتها منظمات الطلاب اليسارية وفي طليعتها اتحاد الشباب الشيوعي الماركسي ـ اللينيني بأنها «رجعية أصيلة»، ما كان يعني بشكل خاص العفوية، وذلك بسبب ما تميزت به من رفض للسلطة والتنظيم.

هذا «العنف» اتجه، خصوصاً في الجناح الطلابي الإيطالي، ضد أفراد كأداة في إسقاط السلطة القائمة، وهو ما كان مناقضاً بشكل سافر للمبدأ الماركسي القائل بأنه لا

يجب الخلط بين الأنظمة الرأسمالية، وهي العدو الأساسي، وبين الأفراد الذين يعملون فيها ولها.

لهذا يمكن القول إن الاعتماد على العنف في ذاته يحول اليسار التبشيري رغم مفاهيمه الإيديولوجية التقدمية، إلى فاشستية يسارية.

في الانتخابات الفرنسية التي جرت بعد «ثورة» الطلاب عام 1968 انتصر حزب ديغول بسهولة فائقة. «البرافدا» حللت الوضع آنذاك وخلصت إلى القول بوجود اتجاه قوي إلى اليمين، وأن السبب يعود إلى تلك «الثورة»، لأن سلوك الطلاب الفوضوي ساعد الرأسمالية الاحتكارية على نشر الخوف في أواسط الشعب من حرب أهلية، وبذلك غذت تلك «الثورة» ردة يمينية. وفي 2 يوليو، علق كوروف في «البرافدا» أيضاً، فكتب بأن اليسار الفرنسي (أي الحزب الشيوعي الفرنسي بشكل خاص) عانى هزيمة انتخابية في حزيران كانت ثمن مغامرات اليسار المتطرف في أيار، 1968. إن جوهر موقع موسكو من «ثورة» 1968 كان يرى أنها أدت بطريق غير مباشر إلى تعزيز اليمين. فاليسار الجديد وسع وعمق الخوف الموجود في الغرب من الثورة الشيوعية، وسمح لنفسه بأن يستخدم من قبل أعدائه أنفسهم في تثبيت النظام القائم وفي دعم وتقوية دعوتهم إلى سيادة القانون والنظام. خوف الأكثرية الغربية من الشيوعية تضاعف عندما بدا لها أن هذه الشيوعية تحالفت مع هذا اليسار الفوضوي، موقف موسكو من اليسار الجديد كان، في الواقع، مماثلاً للموقف الليبرالي في الغرب الذي رأى أن العمل «الثوري» إلى يسار الحزب الشيوعي يخدم اليمين ويسمح له بممارسة سياسة قمع صريح للقوى التي تدعو إلى التحويل الاجتماعي.

فشل هذا اليسار الجديد دعم في الواقع بشكل غير مباشر ليس فقط اليمين بل اليمين المتطرف في الولايات المتحدة، حيث أصبح ظهور نظام فاشستي متكامل الأبعاد احتمالاً كبيراً في المستقبل. هذا الفشل كان ولا شك أحد الأسباب في إفراز هذا الاحتمال.[1] من ناحية أخرى، يمكن القول إن الهزة العنيفة التي أحدثها اليسار

(1) لقد نبهت إلى هذا الاحتمال سابقاً وأنه يجب أن نأخذ ذلك بالاعتبار كعنصر من عناصر معركة تحرير فلسطين من الاحتلال الأميركي ـ الصهيوني. فقيام هذه الفاشستية سيجرد على الأرجح وبشكل =

الجديد دعمت من حيث لا يدري مركز التنظيمات التقليدية لطبقة العمال التي تطلعت إليها جماعات هذا اليسار كعدو داخلي للثورة، وبذلك عززت الطريق النقابي الإصلاحي أمام هذه التنظيمات.

إن ماركس وأنجلز أشارا إلى الأولوية أو الأهمية السياسية التي كانت تتمتع بها حركة الطلاب الروسية في القسم الأخير من القرن التاسع عشر كانت تشير إلى الانحلال السيكولوجي في المجتمع الروسي، وأن نشاطاتها كانت في الواقع دون قيمة. في عام 1877 كتب ماركس بأن «السلوك الغريب للطلاب الروس كان فقط مؤشراً دون قيمة في ذاته، ولكنه مؤشر. جميع قطاعات المجتمع الروسي هي اقتصادياً، وأخلاقياً وفكرياً في حالة انحلال. منذ بدايتها، كانت حركة الطلاب تعبر، في رأي ماركس وأنجلز، عن مرض الجمعيات السرية والعمل الإرهابي. فهي «تتشكل بأكثريتها من أبناء الفلاحين وفقراء آخرين... كانوا يحلمون بتحقيق مباشر للأفكار الاشتراكية». ولهذا كانوا يميلون، كما رأى ماركس وأنجلز، إلى اللا عقلانية واللا مسؤولية. إنهما عبرا عن احترامهما ليس للمناضلين الإرهابيين في الجمعيات السرية بل للذين واجهوا «بجدية أكبر» سياسة القمع عن طريق تنظيم جمعيات مساعد متبادلة، الذين انضموإإلى الأولى انتهوا، في سيبيريا كمنفيين دون فائدة، بينما الذين انضموا إلى الثانية لم يعطوا الحكومة أية ذريعة في قمعهم.[1]

هذه الحركات التي أشرنا إليها بهذه الأمثلة ـ بغية التمثيل العابر ـ كانت جزءاً مما أسميناه باليسار التبشيري لأنها عجزت، من حيث الممارسة، عن إقامة نظام جديد، عن الكشف عن أية مقاومة فعالة للنظام الذي تنقضه، وعن الاستمرار. هذا العجز كان يقود إلى ما أشرنا إليه سابقاً باستمرار من أسباب تفسر هذا اليسار وتحدد طبيعته، وبشكل خاص، إلى خروجها عن حركة الواقع الاجتماعي التاريخي وعجزها عن التفاعل معها. بما أن خروجه هذا يعني، من ناحية، مقاومته المباشرة وغير المباشرة لليسار الذي يعبر عن هذه الحركة وبالتالي عن قدرته على إقامة نظام ثوري

= محتمل جداً الصهيونية في قاعدتها الأميركية التي تشكل قاعدة احتلالها لأرضنا، وبالتالي يسهل علينا جداً قضية التحرير.

(1) Feuer, L: of, cit, P:162 ذكرها (نقلا عن ميهرينغ).

جديد، ومن ناحية ثانية، لقاءه مع اليمين في هذه المقاومة، فإن كثيرين اعتبروه جزءاً من الثورة المضادة. في حديثه عن تروتسكي والتروتسكية كتب غرامشي، مثلاً، «بأن معارضة تروتسكي تأخذ موضوعياً طابع حركة مضادة ـ للثورة»[1]، وميدفيديف المفكر الماركسي الروسي يكتب بعد بعض الملاحظات التي أبداها حول الانتهازية اليمينية كالتي ظهرت في تشيكوسلوفاكيا عام 1968، بأنه «يعتقد أن الخطر الأساسي الذي يواجه الحركة الشيوعية هو الانتهازية اليسارية»[2]. وغارودي يكتب، من ناحيته بأن «. . خطر اليسار يستطيع أن يتحول في فترة معينة إلى الخطر الأكبر لأننا لم نقاومه كما يجب منذ مدة طويلة»[3].

هنا يجب التنبيه بأن الوقوف عند نقد كهذا، وإن صح من زاوية معينة، يكون خاطئاً لأنه يهمل جانباً آخر إيجابياً في هذا اليسار، وهو أنه يكرس في كثير من أشكاله تقليداً ثورياً بطولياً يغذي فيما بعد ويلهم اليسار الذي يتمكن من سحق النظام القديم وإقامة مجتمع جديد. هذا واضح في التجربة الروسية. فأفكار ومفاهيم وتضحيات وبطولات هذا اليسار في القرن التاسع عشر كانت حافزاً من هذا النوع. اليسار الجديد في الولايات المتحدة كان عاجزاً عن تحقيق مقاصده، ولكنه خلق هذا النوع من التقليد الذي قد يلهم في المستقبل يساراً ثورياً آخر يتمكن من سحق النظام القائم وإقامة نظام آخر جديد على أنقاضه[4]. من ناحية أخرى يجب، عند نقد هذا اليسار «التبشيري» أن لا ننسى أن المفاهيم والتصورات التي يقول بها ويناضل في سبيلها هي، وإن تجاوزت إمكانات الحاضر، تشكل نقيضاً لما يدعو إليه اليمين، نقيضاً يبشر بمستقبل جديد أفضل.

* * *

---

(1) Macciochi, M. A: of. cit. P:96.

(2) Medvedev, Roy: On Socialist Democracy, Alfred Knopf, 1975, P:327.

(3) Ganrandy, R, Peut-on être Communist aujourd'hui Grasset, 1968, P:16.

(4) «على الرغم من أن عصابات الكفاح المسلح هُزمت في البيرو وبوليفيا، وعلى الرغم من الأخطاء التي قد تكون رافقتها، فإن صداماتها مع العسكريين ومقاصدها النبيلة التي أعلنت عنها في بياناتها كانت ولا شك من المؤشرات التي أدت إلى تغييرات في القوات المسلحة في هذين البلدين، قادت بدورها إلى إقامة حكومات تقدمية ضد الامبريالية في البلدين».

Woodis, Jack: new theories of revolutions, International Publishers, 1972, P:272.

في تحديد اليسار التبشيري وتحليل أوضاعه يجب علينا هنا التنبيه إلى جوانب أخرى مهمة في العمل الثوري. إنها، أولاً، تدل أن نجاح الحركة الثورية كان يؤدي إلى تحويل بعض القطاعات التي شاركت في نجاحها في بعض أطوارها إلى جزء من الثورة ـ المضادة في أطوار أخرى. هذه القطاعات كانت تتحول إلى مواقف «محافظة» دون وعي أو سابق تخطيط لأنها كانت تعجز عن دفع الثورة إلى الأمام أو مجاراة مجراها الموضوعي عندما يفرز مرحلة جديدة تتطلب أساليب جديدة أو تثوير الثورة. فأفكارها كانت تنغلق على ذاتها في إطار معين وتكشف عن جمود إيديولوجي كان في ذهن توماس مان، على الأرجح، عندما يتكلم عن عقلية «ثورية محافظة».

إن التحول الثوري يجرد بعض القطاعات التي شاركت فيه في البداية من موقفها الثوري. فالجيروند، مثلاً، كان حزباً ثورياً في الجمعية التشريعية ولكنه في جمعية العهد أصبح حزباً رجعياً. الجيروندیون، وقد رأوا أنهم خسروا زمام الأمر في المرحلة الجديدة، أخذوا يفتشون عن حلفاء في اليمين، وبسبب نفورهم من «تطرف» خصومهم اليعقوبيين، اتجهوا خطوةً خطوةً إلى موقف يمكن اعتباره رجعياً. إن ميشالية كتب في القرن التاسع عشر، في دراسته القيمة حول الثورة الفرنسية «بأن سوء تصرفهم قادهم في النهاية إلى موقف أخذوا يظهرون فيه وكأنهم ملكيون». الأمثلة على ذلك في التجربة الثورية العربية عديدة وهي تحتاج، في الواقع، إلى تأريخ خاص في دراسة مستقلة. هنا تكفي الإشارة إلى بعضها على سبيل التمثيل. عندما بدأت ثورة الجزائر المسلحة في الجبال أعلن مصالي الحاج معارضته واتهمها بالتهور، وزعم أن القائمين بها فئة من الشباب المتحمس الذي يريد أن يحل محله في قيادة الحركة الوطنية. تلك كانت الخطوة الأولى وهي قد تكون خطوة بريئة. ولكن ما لبثت تلك الخطوة وقد اتخذت أن تأدت إلى أخرى عندما رأى أن الثورة مستمرة تفرض منطقها وتخرجه قليلاً قليلاً من المسرح، فإذا به ينحرف عنها ويخونها بالتعاون مع الاستعمار الفرنسي ضدها. بعد نجاح الثورة وقف حسين آيت أحمد، ومحمد خيضر وآخرون موقفاً سلبياً من الاتجاه الثوري الذي عبر عنه بن بيلا في طور جديد. قد يكون ذلك في ابتداء الأمر موقفاً بريئاً ولكنه كان الخطوة الأولى التي جرّت إلى خطوات أخرى إلى أن انتهت بقيام مقاومة مسلحة للثورة والتعاون مع المنظمة الفرنسية السرية، إسرائيل، والمخابرات الأميركية في ضرب الثورة التي كانوا من أبطالها.

هذه الظاهرة رافقت جميع الثورات الحديثة، وتمثل في الواقع أحد القوانين البارزة التي تكشف عنها التجربة الثورية.

إننا نرى، ثانية، أن بعض الأخطاء التي كانت تصدر عن القطاعات الثورية كانت تؤدي إلى دعم الثورة ـ المضادة ونجاحها. المنشفيك، مثلاً، اتخذوا موقفاً خاطئاً في منعطف تاريخي حاسم، فقضوا على أنفسهم بالانزلاق في منحدر يناقض مبادئهم الاشتراكية نفسها، ولم يلبث أن قاد إلى تمزقهم الإيديولوجي الذي لم يستطع مارتوف نفسه إيقافه، وانتهى في التنكر للماركسية والاشتراكية واتخاذ موقف بورجوازي ديمقراطي ليبرالي.

الكومنترن كان يرى في العشرينات وبداية الثلاثينات أن العدو الأساسي يتمثل في المانيا في الاشتراكيين الديمقراطيين وليس في النازية التي اعتبرها ظاهرة عابرة تهيئ الطريق فقط لانتصار الشيوعية في تدميرها لجمهورية فايمار، فساعد بذلك على انتصار النازية، ولكن دون الانتهاء في الشيوعية.

من ناحية ثالثة، نرى أن الحركة الثورية قد تتمكن من استلام السلطة بسبب أوضاع استثنائية طارئة، ولكن إن لم تكن الأوضاع مختمرة لها، فإنها تكون مهددة بالفشل أو بنكسة كبرى قد تدمرها. «إن أسوأ شيء يمكن أن يحدث لقائد حزب متطرف هو» كما كتب أنجلز: «الاستيلاء على السلطة في عصر لا تكون فيه الحركة ناضجة بعد لسيادة الطبقة التي تمثلها...»[1].

الثورات التي تحدث قبل أوانها تنجح جزئياً، ولكن هزيمتها النهائية قد تزيد من صعوبة الثورة في المستقبل. ثورة 1848، مثلاً، التي كان يتطلع إليها ماركس سحقت بسرعة. وثورة الكومونة هزمت، وهذا قد يكون أحد الأسباب في كون الثورة البروليتارية أو الشيوعية لم تحدث في فرنسا.

في كتابه «حرب العصابات» كتب شي غيفارا أن الثورة الكوبية تدل «أنه لا يجب أن ننظر بالضرورة ظهور وضعية ثورية، لأنه من الممكن خلقها». ولكن هذا الخلق لم

(1) Engles, F, The Peasant war In Germany, Moscow, 1956, P:138.

يتم في بوليفيا، وهزيمته كانت من الأسباب التي أدت إلى تقوية الثورة ـ المضادة على الأقل مرحلياً.

العمل الثوري يستطيع أن يكون فقط الحافز الذي يطور وينضج الوضعية الثورية ويعبر عنها، ولكن كي يتمكن من ذلك يجب أن تكون هناك وضعية من هذا النوع، أن تكون العناصر التي يمكن لها إفراز هذه الوضعية موجودة ومتوفرة. المفهوم القائل، مباشرة أو غير مباشرة بأن جرأة وتصميم مجموعة أو حركة ثورية يكفيان في إثارة الجماهير ودفعها إلى الثورة هو مفهوم خطر. وغيفارا دفع حياته ثمناً لهذا المفهوم.

أما من حيث كوبا، فإن عناصر وضعية ثورية من هذا النوع كانت متوفرة، إن كاسترو أشار، في خطابه الشهير «التاريخ سوف يبرئني» بأن عدد العمال الزراعيين خمسمائة ألف، يشتغلون أربعة أشهر في العام ويجوعون في الأشهر الثمانية الباقية. وبول باران يكتب إن سكان الريف في كوبا كانوا أساسياً بروليتاريين مفصولين تماماً عن أدوات الإنتاج، لا يملكون شيئاً للبيع سوى قوة عملهم[1]. الأكثرية الساحقة من القرويين كانت تتشكل من عمال زراعيين يعملون في مزارع السكر الكبيرة والدخان والقهوة بأجور تضمن فقط البقاء وذلك في شهور موسم الحصاد القليلة فقط.

الوجود الأميركي كان في كل مكان يسود، ليس فقط السياسة بل الصناعة والزراعة وحتى الحياة الليلية في هافانا.

في عام 1958 كانت الولايات المتحدة تملك ثلث جميع أراضي قصب السكر، تستثمر 956 مليون دولار في المناجم، البترول، التجارة الصناعة والمنافع العامة التي كانت تملكها كلها. إن سيادتها لصناعة السكر والاقتصاد ككل شوهت حياة الجزيرة الاقتصادية التي كان عليها أن تستورد الأرز، البندوره، البصل، الدجاج، البيض، وأن تدفع دولارات ثمناً لهذه الموارد التي كان باستطاعة الجزيرة إنتاجها بسهولة. هذا كان يعني الاستبداد والفقر للشعب. فمن شعب يبلغ الستة ملايين ونصف كان هناك ميلون من السكان لا يلبسون أبداً الأحذية، ونصف مليون من العمال الزراعيين لا يعرفون في

(1) Baran, Paul: Refflections on The Cuban Revolution 1961, P:11.

حياتهم الحليب أو اللحم، وغذاؤهم كان أساسياً من الأرز والفاصوليا السوداء. ومن قوة عمل تبلغ المليونين والأربعمائة ألف، كان هناك سبعمائة ألف عاطلين عن العمل أثناء ركود موسم السكر، الذي كان يبلغ نشاطه الأعلى لمدة أربعة أشهر فقط، ومائتا ألف عاطلين عن العمل في مجرى العام[1].

إن ماركس أشار، في الواقع، في مناسبات عديدة إلى احتمال أو حتى حتمية انهيار الثورة إن هي حدثت في أوضاع تاريخية موضوعية لا تطابق مثلها، وبلاكهتوف كتب أيضاً عدة مرات حول الموضوع ونبه بأن استلام السلطة في أوضاع اجتماعية غير ناضجة للثورة، يعني تحويلها إلى «فظاعة» سياسية، كالامبراطورية الصينية أو امبراطورية البيرو ـ القديمتين. . . أي إلى استبدادية قيصرية جددت ببطانة شيوعية.

من ناحية رابعة، إننا نرى أن الاستيلاء على السلطة يضيف بعداً جديداً إلى اليسار الثوري يفرض عليه أو على الثورة بعداً جديداً يقلص نقاءهما الثوري السابق ويجنح بهما في اتجاه يتخذ سمة محافظة عند مقارنته بالاتجاه الذي يميزها قبل الوصول إلى السلطة. كل الحركات الثورية تضطر عند استلام السلطة وممارستها إلى أن تقوم بأشياء وأعمال لا تنسجم مع مفاهيمها الثورية. العجز عن إدراك أو استيعاب هذه الواقعة كان، في الواقع، وراء الكثير من انحرافات وأخطاء وهزائم الكثير من الأحزاب والحركات الثورية. هذا يمثل في الواقع قانوناً عاماً لا يمكن لحركة ثورية أن تتجنبه. كل حركة ثورية، مهما كانت فعالة وجذرية، تتحول في المدى البعيد إلى حركة محافظة. فهي تتبع دورة تنقلها بديالكتيكها الخاص المستقل من الولادة إلى الموت، ومن طور خلق وإبداع إلى طور جمود، ومن الثورة إلى الثورة المضادة.

---

(1) Woodis, J. of, cit PP: 195, 189.

اليســـار الثــوري
والممارسـة الثورية

إن كل نظرية في المعرفة الاجتماعية ـ وخصوصاً عندما تكون حول تحول ثوري ـ تعتمد، في التدليل على صحتها، على الممارسة، أي على النتائج التي تترتب عليها وتؤدي إليها. فإن كانت النتائج منسجمة مع توقعاتها كانت النظرية صحيحة وموضوعية، وإن هي لم تنسجم معها كانت خاطئة ويجب بالتالي رفضها أو تعديلها. النظرية الثورية تكشف عن تحولات وتطورات معينة يفترض بالواقع الخارجي الموضوعي إفرازها وهي تعد بمنجزات تحققها في ضوء هذه التحولات والتطورات. صحتها ترتبط بالتالي بظهور هذه التحولات والتطورات، وفاعليتها تدلل على ذاتها بتحقيق المنجزات التي تعد بها، فإن استطاعت ذلك صح قبولها والإيمان بها، وإن لم يصح ذلك وجب إسقاطها والاستغناء عنها إن لم يكن في الإمكان تعديلها بشكل يجعلها أكثر قدرة على إحداث المنجزات أو الإنباء بالتحولات.

التحديد العام الذي قدمناه سابقاً للمنهج الديالكتيكي ولليسار الثوري يعني، فيما يعنيه، أن كل عمل سياسي له «ثمن»، ليس طبعاً بمعنى أنه يمكن شراء كل شيء، ولكن بمعنى أن كل شيء ينتج عن هذا العمل يكلف شيئاً قد لا نحبه أو نرغب فيه ويتطلب نوعاً من التضحيات قد تأباها أنفسنا. ففي كثير من الأوضاع والأحوال لا نستطيع تقديم وإنجاح قصد دون التضحية بمقصد آخر أو إهماله موقتاً. كل استراتيجيا ثورية فعالة وناجحة تتميز بنظام من الأولويات ترتبط به، وبقدرة تكتيكية تعرف كيف تقدم بعض الأعمال على غيرها والتركيز عليها.

مصالح اليسار الثوري وتطلعاته تختلف عن مصالح الأفراد وتطلعاتهم. فالثانية قصيرة المدى والأولى بعيدة المدى، ولهذا فإن الأمانة الثورية لليسار تتطلب التطلع إلى مصلحته وقياسها عبر مستقبل منفتح غير محدود. هذا يفرض ليس فقط الاستعداد على تقييم كل مصلحة مباشرة آنية بمقياس هذا المستقبل وفي ضوء مصلحة اليسار أو الثورة عبر هذا المستقبل، بل أيضاً القدرة الاستراتيجية والتكتيكية على ذلك. الموقف الثوري الصحيح ليس في انتصارات ومنجزات آنية قد تكون مضرة في المدى البعيد وإن كانت مفيدة بشكل آني، بل التركيز على الانتصارات والمنجزات التي يمكن أن ترتبط بهذا المستقبل وتخدم ولادته وإن هي رفضت إغفال وتجنب ما يمكن أن يتحقق منها ولكن دون هذا البُعد البعيد. دور اليسار الثوري ليس في تحقيق أكبر فائدة ممكنة في برهة معينة، بل قياس كل فائدة يمكن تحقيقها بفائدة النظام الجديد الذي يريد إقامته والذي يجب أن يقيس ويحكم على كل فائدة ممكنة في الحاضر. اليسار الثوري ليس في «انتصارات» يسجلها، بل في انتصارات ترتبط بهذا النظام، وهو إن حاول أن يزيد إلى حد أعلى الفوائد والانتصارات التي يمكن له تحقيقها في المدى القريب، قد يضعف أو يشل قدرته على تحقيق ما يجب من فوائد وانتصارات تخدم إقامة النظام الجديد في المدى البعيد.

القصد الثوري، القصد من أي عمل سياسي، لا يتحقق من ذاته، وفي ذاته لأنه قصد جيد أو ضروري، نريده ونطمح إليه. فهو يحتاج، كي يتحقق، إلى جهد ينفذه، أي إلى وسائل مناسبة لذلك. فاليسار الثوري لا يستطيع أن يعمل بوسائل واقعية، مادية متوفرة، وطالما أن الإرادة الثورية لا تنزل إلى صعيد هذه الأخيرة ـ ولكن دون أن تنسى أبداً مقاصدها النهائية ـ فإنها تبقى أشواقاً ومطامح وأفضليات أخلاقية ولا يمكن حتى تسميتها كإرادة، أو حتى كقرار في المعنى الصحيح لهذه الكلمة. إن الوسائل هي إذن المواد المادية من سياسية، واجتماعية وبشرية واقتصادية، الخ. . . تسمح بالانتقال من صعيد الإدراك والتصور إلى صعيد التطبيق والممارسة الفعالة. الإرادة الثورية التي لا تتوفر لها وسائل هذا التطبيق قد تكون «إرادة» ولكنها ليست ثورية، لأن الثورية تعني إحداث تحولات في الواقع وصنع التاريخ، وإرادة من هذا النوع لا تستطيع حتى الإمساك بالواقع والتاريخ.

اليسار الثوري يدرك تماماً أن قيمة الوسائل ليست في ذاتها وأن معناها هو في القصد الذي يقوم وراءها، والذي يحتاج إلى بعض الوسائل ويستثني غيرها. فإن أردت أن تكون طبيباً يجب أن تستخدم كذا وكذا من وسائل، وإن أردت أن تكسب حرباً يجب كذا وكذا من وسائل الخ، . . . ولكن اعتماد الوسائل الفعالة والمناسبة لقصد ثوري ما، يتطلب وعياً موضوعياً عميقاً وقوي الأبعاد، مرونة صلبة، قدرة على مبادرة الواقع والتاريخ، وأصالة ثورية. إن أحسن الوسائل المتوفرة لا تكون مفيدة لليسار الذي لا يتميز بهذه الميزات، أو لا يملك السلطة الكافية في استخدامها، أو الرؤيا الواضحة التي تستطيع تلمس أو كشف عن التعديلات والنتائج التي تدخلها أعماله أو أعمال العدو في الوضع القائم.

اليسار الثوري يدرك، من ناحية أخرى، أنه عندما يستخدم وسيلة أو وسائل معينة ناجحة، يجب أن لا يقع ضحية لها، أي يرجع إليها في جميع الظروف وينسى أن نجاحها الأول يعود أساسياً إلى الأوضاع الخاصة التي استخدمها فيها، وأنها وإن نجحت في هذه الأخيرة فذلك لا يعني أبداً أنها ستنجح في أوضاع أخرى. اليسار الثوري يستطيع أن يكون ناجحاً وفعالاً عندما يستطيع تحديد الوسائل التي تتلاءم مع كل مرحلة من مراحل الصراع الثوري، وتنسجم مع منعطفاته الأساسية، فلا تتقلص في مجاراة الأحداث ولا تتسرع فتسبقها بشكل يقطع علاقتها الديالكتيكية بها.

السؤال الأول الذي يتقدم على غيره في العمل الثوري هو: ما هي القوى التي يمكن تجنيدها أو الاعتماد عليها في دفع الثورة وحمايتها في فترة أو مرحلة معينة؟ . . هل يمكن لتلك السياسة أو هذه الوسيلة أن تضبط وتوجه هذه القوى الجديدة التي تنتج عن تفكك النظام التقليدي في وجهة ثورية؟ . . .

في رده على نقد روزا لوكسمبورغ لسياسة البولشفيك الزراعية التي رضيت في البداية بتوزيع الأرض على الفلاحين، يكتب جورج لوكاش، إن الطريقة الصحيحة في طرح المسألة الزراعية ليست أن تتساءل إن كانت سياسة البولشفيك في الإصلاح الزراعي عملاً اشتراكياً أو عملاً يقود في اتجاه الاشتراكية، بل إن كان الوضع كما تبلور آنذاك، عندما كانت الحركة الثورية الصاعدة تناضل نحو المنعطف الحاسم،

يسمح بتعبئة جميع القوى الأولية (elemental) في المجتمع البورجوازي المنحل ضد البورجوازية التي كانت تعد ثورة مضادة، وهذا بصرف النظر عن كونها بروليتارية صرفة أو بورجوازية صغيرة، أو عن كونها تتجه في وجهة الاشتراكية أو لا [1]. ثم يضيف «إن روزا لوكسمبورغ تغفل الاختيار بين ضرورات اشتراكية غير «نقية» فرضها القدر على الثورة البروليتارية من البداية. إنها تهمل الضرورة التي يواجهها حزب البروليتاريا الثوري في تعبئة كل القوى التي كانت ثورية في تلك الفترة، وبالتالي توحيد الجبهة الثورية بأكبر قدر ممكن من الوضوح والقوة في الإعداد للمرحلة التي يحدث فيها الاصطدام مع الثورة ـ المضادة. إنها كانت تعارض باستمرار متطلبات المرحلة الحالية بمبادئ أطوار الثورة في المستقبل»[2]. هنا تجدر الإشارة أن هذا العجز الذي يشير إليه لوكاش في موقف لوكسمبورغ أدى إلى إعدامها لأنها لم تعرف كيف توفق «بين مبادئ أطوار الثورة في المستقبل» وبين الضرورات المرحلية التي يجب إدراكها والعمل في ضوئها.

الانتقال إلى نظام ثوري جديد يشكل طبعاً قفزة أساسية جذرية، ولكن يجب أن لا ننسى أن هذه القفزة تكون نهاية الطريق لعملية (process) تاريخية يجب فيها على اليسار الثوري أن يكبت تطلعاته المثالية ويكبح رغباته العليا موقتاً، ويمارس باستمرار وسائل تكتيكية لا تنسجم في طبيعتها مع هذه التطلعات والرغبات.

أرسطو كان، كما أعلم، أول من قدم الفكرة القائلة بأن لكل مناسبة عملاً واحداً يطابقها بشكل ملائم. إنه دعا هذا العمل «بالوسيلة»، ورأى أن كل انحراف عنه يشكل خطوة غير ملائمة أو متطرفة، لأنه يعني أعمالاً تقدم أقل مما يجب للمناسبة أو أكثر مما يمكن لها تحمله. فإن كان هناك مثلاً فرقة عسكرية تسيطر على موقع من الممكن الدفاع عنه، فإن الوسيلة أو العمل الشجاع يعني البقاء في هذا الموقع. فإن هي انسحبت منه فإنها تكشف عن جبانة، ولكن إن هي تقدمت إلى الأمام، فعرضت نفسها وغامرت بخسارة الموقع، فإنها تكشف عن التهور. من ناحية أخرى، إن الوسيلة

---

(1) Lukacs, Gearg: History and Class Consciousness MIT PRESS, 1971, PP:273- 274.

(2) Ibid. PP: 276 - 277.

المناسبة تتغير بتغير الأوضاع. فإن أصبح، مثلاً، الموقع الذي تسيطر عليه الفرقة العسكرية موقعاً لا يمكن الدفاع عنه واستمر الجنود على الاحتفاظ به، فإنهم يكشفون عن تهور بدلاً من الشجاعة، ولكن إن أصبح الهجوم ممكناً واستمر هؤلاء في موقعهم فإنهم لا يكشفون عن شجاعة بل عن جبانة.

هذه النظرية التي تشكل إحدى الإضافات والإسهامات الأساسية التي قدمها أرسطو للفكر السياسي، تقدم في الواقع حقيقة كل تخطيط تكتيكي صحيح. إننا نجد، أولاً، تحليلاً للواقع الموضوعي كما هو، في موضوعيته العارية، ونجد ثانياً وجوب تحديد سياسة تتناسب تماماً معه ومع ما نبغيه منه؛ ونجد، ثالثاً العمل على تحقيق هذه السياسة وإنجازها. النقطة المهمة التي يجب توكيدها هنا بشكل خاص هي أن الواقع الموضوعي كما هو يشكل نقطة الانطلاق والمرجع الذي يجب أن نعود إليه ونرتبط به ارتباطاً وثيقاً في كل تخطيط من هذا النوع، وأن القدرة على ممارسة ذلك، على إدراك هذا الواقع كما هو، في الاتجاهات والقوى التي تسوده وتحوله، وفي التوازن الذي يحدد علاقة وتفاعل هذه الاتجاهات والقوى، هي أساس كل تخطيط استراتيجي وتكتيكي صحيح، لأنها تحرر الممارسة من الأهواء والنوازع الذاتية والتفكير الرغبي، وتجعلها مرتبطة بالواقع الذي تعمل فيه. العمل في ضوء تخطيط من هذاالنوع هو العمل الذي يميز، كما قال أرسطو، «رجل الحكمة العملية» أو في الموضوع الذي نعالجه، اليسار الثوري الصحيح، في مكان آخر كتب أرسطو أيضاً في تحديد الخير بأنه ما يمكن للناس تحقيقه أو الوصول إليه، وليس مُثلاً تقع خارج أو وراء إمكانات الإنسان أو إمكانات التحقيق.

عندما نريد مقاصد نتشوق إلى تحقيقها علينا أن نسأل أنفسنا أولاً إن كان هناك وسائل موجودة أو وسائل يمكن خلقها، وبالاعتماد عليها يمكن أن نصل إلى تحقيق هذه المقاصد. فإن لم يكن هناك وسائل من هذا النوع الآن، ولكن يمكن أن توجد في وقت لاحق، وجب تأجيل تحقيق المقاصد إلى ظروف أكثر انسجاماً وملاءمة. ولكن إن وجدنا أن تلك الوسائل لن توجد على الأرجح أبداً، وجب أن نعترف آنذاك بأن المقاصد التي نريدها هي مقاصد طوباوية وأن الفكر الذي يبشر بها هو فكر غيبي أو ميتافيزيقي. ولكن إن أردنا التمسك بها على الرغم من إدراكنا بأن الوسائل التي يمكن

اعتمادها في تحقيقها غير موجودة، وجب علينا أن نرى فيها في أحسن الحالات، مثالاً مجرداً فقط يحفز على التكامل وتجاوز الذات ولا يُفترض به التحقق.

الموقف الأخلاقي يحث الناس على السلوك بوحي بعض المشاعر دون اهتمام بالنتائج العملية التي تترتب على ذلك. ولكن الموقف الثوري، وإن كان يلتقي معه في حث الناس على الالتزام الكلي بقيم معينة، فإنه يطرح ذاته في الواقع الموضوعي، يدلل على صحته في هذا الواقع، يتصور النتائج التي يمكن أن تترتب على بعض الأعمالَ ويختار بين هذه الأخيرة تلك التي يمكن أن تقود إلى بعض النتائج المرغوب فيها.

هاملت الذي أدرك هذا التناقض المأسوي بين الأخلاقية المجردة، أخلاقية تصوراتنا، وبين الممارسة، أو الأخلاقية التطبيقية، قرر أن يعمل فقط عندما يستطيع أن يجعل أعماله تنطبق أخلاقياً على مقاصده، فوجد نفسه عاجزاً عن أي عمل على الإطلاق. ولكن عندما يقرر نهائياً أن يعمل، فإن أعماله جاءت خاوية من أي معنى أخلاقي.

إن غوته لاحظ مرة «بأن من يعمل يكون دائماً غير عادل، وأن العادل الوحيد هو الذي يتأمل فقط». فالعمل في ذاته يهدم أصالتنا الأخلاقية، ومن يريد الحفاظ على نقائه الأخلاقي يجب أن يتبع نصيحة هاملت لأوفيليا، «بأن تذهب إلى دير الراهبات».

السبب الأساسي أو بالأحرى الأسباب الأساسية لهذا التناقض هي تداخل الخير بالشر الذي يقترن بجوانب الواقع الموضوعي والسلوك الإنساني المختلفة، التعقيد الهائل الذي يميز الوضع الإنساني التاريخي، الديناميك المستمر الذي يسود هذا التعقيد، الطبيعة الديالكتيكية لهذا الديناميك أو التحول الذي يحقق قوة مستقلة تخلق تغييرات وتحفز على أخرى تتناقض في نتائجها أو مجراها مع المقاصد التي تبحث عنها هذه الجوانب تضع حدوداً طبيعية على عمل العقل الإنساني أو المقاصد الأخلاقية، فيعجز الإنسان بسبب هذه الحدود عن أن يحسب بدقة نتائج عمله، أن يسودها ويتحكم بها، ثم إن المطالب التي تفرضها الحياة على مقاصدنا تجعل من

المستحيل علينا تلبيتها كلها، ونحن عندما نحقق أحدها نجد أننا مضطرون إلى إغفال أو حتى التنكر لغيرها.

لهذا كان على اليسار الثوري أن يميز باستمرار ووضوح بين الاستراتيجيا والتكتيك فلا يخلط بينهما أبداً. فالاستراتيجيا تمثل مقاصده الثورية العليا التي ينطلق منها، المقاصد التي يجد شرعيته الثورية ذاتها فيها. أما التكتيك فيمثل مجموعة من الوسائل المرنة التي تتغير باستمرار ويحاول بها اليسار الثوري التكيف مع الأوضاع المتغيرة وتوجيهها لمصلحة المقاصد الاستراتيجية. هذا التمييز بين الاستراتيجيا والتكتيك يضفي عقلانية على ما يبدو ظاهرياً كتناقضات وتعرجات أو حتى انتهازية في ممارسة اليسار الثوري الصحيح. فهذه الجوانب لا تمثل قرارات مرتجلة يقوم بها قادة انتهازيون تحت ضغوط مباشرة بل قرارات مدروسة تجد عقلنتها وشرعيتها في العلاقة التي ترتبط بها بالمقاصد الثورية العليا. هذا يعني أنه على اليسار الثوري أن يعرف كيف ينسحب عندما يجب عليه ذلك، كيف يساوم التاريخ والأعداء، كيف يناور القوى المضادة، كيف وأين يقف بغية تثبيت منجزاته وإعداد عدته قبل أن ينتقل إلى طور آخر. اليسارات التي نجحت في بدايتها ولم تلبث أن فشلت، أو التي لم تستطع حتى تسجيل هذه الانتصارات الأولية، لأنها لم تتقن استراتيجيا المراحل وتدعمها بمرونة تكتيكية واعية ناضجة، هي أكثر بكثير من تلك التي استطاعت أن تتكامل لأنها تميزت بدرجة جيدة أو عليا من هذا الإتقان.

* * *

الملاحظات السابقة تدل على أن اختيار التكتيك المناسب والصحيح في وضع معين أو اتجاه مشكلة معينة أمر خطير جداً، لأن الخطأ هنا قد يدمر في بعض أشكاله الحركة الثورية أو بالأحرى اليسار الثوري. لهذا يجب على اليسار أن يحذر ما أمكنه الانحراف في تكتيك خاطىء كبير، وأن يعمل عند الوقوع فيه على الخروج منه وتغييره بسرعة فلا يسمح له بأن يجره إلى أخطاء مركبة تتفرع منه وتقوده في النهاية إلى الانفصال عن المقاصد الثورية نفسها التي يفترض بالتكتيك خدمتها. فالتكتيك يشكل أداة موقتة وعلى اليسار أن لا يسمح له بأن يتحول من وسيلة إلى غاية. هذا التحول المحتمل يشكل خطراً يهدد كل عمل ثوري. إن التكتيك لا يتميز، في الواقع، بأية

وحدة أو حتى تماسك، لأن العمل الثوري يضطر إلى الانتقال من تكتيك إلى آخر، وإلى ممارسة أعمال متناقضة من هذه الناحية التكتيكية. التكتيك لا يجد قيمته في ذاته بل في النتائج التي تترتب عليه في خدمة المقاصد الاستراتيجية، ليس في النتائج المباشرة، بل في النتائج غير المباشرة وفي المدى البعيد.

إن لينين كتب مرة «بأن الاختلافات الكبيرة تنمو في بعض الأحيان من اختلافات صغيرة جداً، وحتى تافهة في البداية. فكلنا يعلم أن جرحاً بسيطاً أو حتى خدشاً. . . قد يتحول إلى شيء خطير وفي بعض الأحيان قاتل إن أخذ يتقيح وقاد إلى تسمم في الدم. هذا ما يحدث في جميع الصراعات الشخصية الصرفة، هذا أيضاً ما يحدث في السياسة. فكل اختلاف وحتى التافه يمكن أن يتطور إلى اختلاف سياسي خطير إن امتد إلى انشقاقه، من النوع الذي يستطيع أن يهز ويدمر البناء السياسي كله. .»[1]. هذا ينطبق بشكل أكبر وأهم على الانحرافات التكتيكية وإن كانت محدودة وتافهة في بداية الأمر لأنها قد تؤدي، إن لم يحدث تصحيح سريع لها، إلى انحراف خطير قد يدمر اليسار الثوري نفسه.

لهذا عندما تقوم حركة ثورية ما بما يبدو لها كتصحيح للثورة أو النظام الثوري، يجب أن تكون حذرة جداً من تطور ذلك إلى حركة مضادة للثورة. هذا كان باستمرار في التاريخ. إن حركة التاسع من تارميدور مثلاً (27 يوليو، 1794) في الثورة الفرنسية أدت إلى سقوط روبسبيير، انهيار الحزب اليعقوبي، انتقال السلطة إلى «الديراكتوار»، وإلى تغلب البورجوازية الكبيرة النهائي على الشعب الثوري. لقد حدث هذا على الرغم من أن منظمي تلك الحركة كانوا يعتبرونها حركة تصحيح فقط في داخل الحزب اليعقوبي، وإن كانت تغييراً أساسياً في ميزان القوى الاجتماعية، ونهاية الحركة اليعقوبية نفسها.

عندما نتطلع إلى أي وضع ككل، فإننا لا نستطيع تصوره وإدراكه إلا كأجزاء مترابطة مع بعضها البعض الآخر. ولكن في كثير من الأحيان يتحكم الجزء في الكل. فطريقة متابعة الثورة تعني تحولات متشعبة تنتج عن أعمالها الفردية وتتجاوز هذه

---

(1) V.I. Lenin. Selected Works, Vol.III, Moscow, 1961, PP: 565 - 566.

الأعمال ككل عمل يقرر أعمالاً أو أحداثاً أخرى تتجاوزه. لهذا، فإن اليسار الثوري بضبط هذه الأعمال والأحداث ولا يتركها أن تقوده أبداً إلى الانحراف عن الثورة أو الخروج عن مجراها.

إن التكتيك الذي مارسته سياسة الكومنتيرن في العشرينات وبداية الثلاثينات، التي كانت تنبىء بثورة وشيكة الحدوث، شرقاً وغرباً، تدعو إلى نضال مباشر لأجل الاستيلاء على السلطة، ترفض أية جبهة موحدة بين الشيوعيين والاشتراكيين في أوروبا، وترفض الدفاع عن الحريات الديمقراطية التي اعتبرتها شعارات فاشستية اجتماعية، هذا التكتيك قاد إلى كارثة 1933. الحركات اليسارية عارضت دستور جمهورية فايمار ورفضت الاعتراف بأي فرق بين ديمقراطية بورجوازية ودكتاتورية بورجوازية، وحاولت القيام بثورة كان من السهل أنذاك قمعها بشكل دموي، فكانت نتائجها الوحيدة إضعاف الديمقراطيين الاشتراكيين، دفعهم بشكل أكبر إلى اليمين، وتوسيع الهوة بين الإصلاحيين والثوريين. هذا الحقد بين الطرفين اليساريين استمر إلى أن التقى قادتهما في المعتقلات التي أقامها هتلر. الشيوعيون ارتكبوا الخطأ نفسه في إيطاليا والنمسا، فأضعفوا بذلك الديمقراطية وساعدوا في نجاح الفاشستية. المفكر الماركسي المعروف، أنطونيو غرامشي، رفض التعاون مع الديمقراطيين الاشتراكيين حتى بعد أن استلم موسوليني السلطة.

بعد انتخابات عام 1930 نال النازيون أكثر من مائة مقعد في الرايتشستاغ. ولكن الكومنتيرن كان يتوقع نهاية جمهورية فايمار ويتطلع إليها رغم العلاقات الودية التي كانت تربط بينها وبين الاتحاد السوفياتي منذ عام 1922. النازية فُضلت على الاشتراكيين الديمقراطيين والأحزاب الكاثوليكية التي كانت تريد تقارباً مع بريطانيا وفرنسا، لأن الكومينتيرن يعتقد آنذاك أنها قد تدمر ما بقي من الديمقراطية الألمانية، ولكنها لا تستطيع إقامة نظام جديد قابل للنمو، وطويل الحياة. فالمرحلة النازية تستطيع فقط تثوير جماهير العمال الألمان ودفعهم نهائياً نحو الحزب الوحيد الذي يستطيع أن يحل القضايا الاجتماعية والاقتصادية، أي الحزب الشيوعي. إن فكرة ألمانيا شيوعية يجب أن تكون قد أسعدت ستالين إلى حد كبير، وذلك لأن لينين وتروتسكي وبوخارين وغيرهم كانوا يعلقون الكثير من الآمال على ذلك. لهذا تسلم

الشيوعيون الألمان أوامر ـ وكانوا في الواقع لا يحتاجون إليها ـ تطلب منهم تجنب أية جبهة مشتركة مع «الاشتراكيين الفاشيست»، كما كان القاموس الشيوعي يصف الاشتراكيين الغربيين آنذاك، وتمنعهم من القيام بأية محاولة في سبيل خلاص الجمهورية المتداعية المترنحة أمام هجوم النازيين.

هذا التكتيك الخاطىء قاد إلى هزيمة اليسار الشيوعي في ألمانيا هزيمة لم تكن موقتة بل نهائية كما يبدو إلى الآن. ما ينطبق على هذا اليسار ينطبق على جميع الحركات اليسارية التي قاومته في روسيا مباشرة قبل استلام السلطة وبعد استلامها. فالأخطاء التكتيكية التي مارستها قادت إلى هزيمتها هي الأخرى هزيمة نهائية.

من ناحية أخرى، إن ممارسة التسويات والمساومات الآنية التي تفرضها الضرورة التكتيكية تجعل من السهل نسيان المقاصد العليا وتجاهلها. إن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الغربية توفر لنا مثالاً واضحاً على ذلك. فالأوضاع التي فرضت عليها هذه الضرورة قادتها نهائياً عن طريق ممارستها الطويلة لها، إلى الخروج من المقاصد الثورية التي رافقت ولادتها. الشيء نفسه يهدد حالياً الأحزاب الشيوعية الغربية، الحزب الشيوعي الإيطالي، مثلاً يتخذ موقفاً حذراً جداً في مطالبه السياسية. فقد نظم الاجتماعات لدراسة وحماية الأعمال والمؤسسات التجارية والصناعية الوسطى والصغيرة، ويمارس سياسة معتدلة يصعب معها التمييز بينه وبين الاشتراكيين الديمقراطيين، ولكن الحزب لا يشعر أنه من النوع الاشتراكي الديمقراطي لأنه لم ينكر إيديولوجيته الماركسية. كثيرون أصبحوا يتساءلون الآن: ما نوع هذا الحزب؟. . هل أصبح جزءاً من النظام القائم أم لا؟. . هل تنازل عن نضاله لأجل الاشتراكية أم لا؟. ما قيمة مبدأ «التسوية التاريخية» مع الحزب الديمقراطي المسيحي؟. هل هر خطوة تكتيكية أم تخطيط استراتيجي؟.

بعض المراقبين يرى أن الحزب الشيوعي الإيطالي يمارس هذه السياسة الإصلاحية فقط كتكتيك في خدمة تصور لتحول اجتماعي كلي يرى أنه يمكن تحقيقه كنتيجة تترتب على تراكم خطوات صغيرة عديدة، آخرون يرون أن هذه السياسة تعني فقط النظام البرلماني الديمقراطي في الإعداد لفرصة جديدة مناسبة للاستيلاء على

السلطة عن طريق الثورة. ولكن هناك اتجاهاً ثالثاً وهو، كما يبدو الأغلب، يرى أنه تحول إلى حزب إصلاحي رغم أنه رفض هذه التسمية، وبالتالي إلى حزب في طريقه إلى أن يصبح حزباً بورجوازياً وليس حزب طبقة العمال، إن نابوليتانو، أحد كبار قادة الحزب، أعلن، في الواقع، «إننا لا نبغي أنموذج تحول اقتصادي جديد (في معنى شامل)، بل أنموذج تطور جديد، أي توجيهاً جديداً للاستثمارات في نطاق الأنموذج الحالي (رأسمالي) للتطور». يبدو أن قادة الحزب يفتشون عن شيء جديد يقف خارج الجماعية (Collectivism) السوفياتية والرأسمالية الحرة، شيء يمكن تسميته بالرأسمالية الموجهة[1].

سياسة التسويات المتواصلة دون الانطلاق الديناميكي الدائم من تصور إيديولوجي ثوري تحول اليسار الثوري إلى يسار إصلاحي. ولكن هنا يجب التنبيه بأن الكلمة الأخيرة هي للأوضاع التاريخية. فالأوضاع الأوروبية الحديثة قد تكون من النوع الذي أصبح لا ينفتح لثورة الأحزاب الشيوعية التقليدية، وهكذا اتجاهها الإصلاحي المتزايد ضرورة تفرضها هذه الأوضاع وليس خطأ تكتيكياً، أو تحولاً نتج عن ممارسة تكتيكية متواصلة الانحراف.

إن ماوتسي تونغ كتب مرة «إن من يعمل تبعاً لحافز ما ولا يستقصي النتيجة التي تترتب على عمله يكون مثل الطبيب الذي يقتصر على كتابة الروشتات ولا يهمه عدد المرضى الذين يموتون منها. . . دون شك الأخطاء تقع حتى عندما يكون هناك تقدير للنتيجة قبل مباشرة العمل، ولكن هل يكون القصد صحيحاً عندما يتابع الإنسان الطريق القديمة نفسها بعد أن تكون الوقائع قد برهنت أن النتيجة كانت سيئة؟ . . عندما نحكم على حزب أو طبيب يجب أن نتطلع إلى الممارسة، إلى النتيجة».

كل عمل ثوري يكون لا عقلانياً إن كان من الممكن التدليل بأنه يشكل وسيلة غير ملائمة في تحقيق المقاصد التي يضعها لنفسه، أو بأن هناك وسائل أخرى ممكنة وأكثر فاعلية في تحقيق هذه المقاصد.

(1) Kaplan, Morton, ed: The Many Faces of Communism, The Free Press 1978, P: 39.

التحديد العام الأكثر قبولاً «للعقلانية» يعتبر عملاً ما كعمل عقلاني عندما يكون موجهاً بمعرفة موضوعية علمية للأوضاع التي تحيط به. فهو عقلاني عندما تكون المقاصد التي يريد الوصول إليها أو تحقيقها مقاصد ممكنة في الوضع الاجتماعي التاريخي الذي يعمل فيه، وعن طريق الوسائل التي يعتمدها في هذا السبيل. العقلانية تعني، بكلمة أخرى، أحسن الوسائل الممكنة في الوصول إلى مقاصد معينة.

كل عمل يحدث في أوضاع معطاة لا سلطة أو دخل للفرد في وجودها، ولذلك فإن أوَل شرط من شروط العمل العقلاني يكون إدراكاً صحيحاً لهذه الأوضاع كما هي وكما تتحول، وفي علاقتها مع العمل الذي يمارس ذاته فيها وعبرها. في بعض الأوضاع كالأوضاع التقنية، العلمية، الطبية، يكون هذا العامل ـ أي ضرورة إدراك الأوضاع الموجودة إدراكاً موضوعياً في أي عمل تقوم به، وضرورة انسجام هذا العمل معها ـ يكون واضحاً لا يحتاج إلى تدليل. هذه الأهمية تؤكد ذاتها في كل صعيد من أصعدة الحياة، ولكن أشكال جهلنا، مشاعرنا، مصالحنا، هي التي تغفلها عندما تكون المسألة تدور حول سلوكنا السياسي والاجتماعي.

المشكلة الفكرية التي تواجهها الممارسة الثورية ليست أن تتمرد أو ترفض الأوضاع القائمة، بل أن تدركها، والمشكلة العاطفية ليست فقط إفراز المشاعر ضدها وتحرير الطاقات التي يمكن تعبئتها، بل أن تكون المشاعر التي تفرزها والطاقات التي تحررها منسجمة متفاعلة مع اتجاه التحول الموضوعي الذي يكشف عنه التاريخ في مرحلة معينة.

اليسار الثوري لا يستطيع التطلع إلى حركة التحول الاجتماعي التاريخي باسم أخلاقية جامدة أو موقف إيديولوجي ثابت، بل يجب عليه دائماً اعتماد الممارسة الفعالة من زاوية ثورية. القول بأن تلك أو هذه الوسيلة لا أخلاقية أو أنها غير ثورية، لا تحقق ذلك أو هذا النموذج الثوري أو الأخلاقي، قول مجرد وحتى سخيف لأنه يعني، في الواقع، بأنه لا يصح استخدام وسائل فعالة في تغيير نظام قديم وإقامة نظام جديد إن كانت هذه الوسائل مع ما نريده من «نقاء» أخلاقي أو ثوري. التفكير حول الواقع باسم مجردات ومفاهيم وشعارات لا تنعكس في الواقع، وخصوصاً عندما

تكون الوسائل التي تتصل وتتجاوب معه متوفرة، هو خروج عن هذا الواقع، وبالتالي عليه. «الضرورة الثورية» التي يجب، في كل يسار ثوري فعال، أن تحدد الوسائل الممكنة في تغيير الواقع في وجهة تصوراته الثورية، لا تعني إذن حتمية لا إنسانية، فوق الصعيد الإرادي، أو خارج دور يوفر ويفرز باستمرار احتمال اختيارات عديدة يجب الاختيار بينها، هي ضرورة عملية واعية تفرض على اليسار أن يعتمد بعض الوسائل إن هو أراد تحقيق بعض المقاصد، أو أن يغير المقاصد نفسها إن كانت الوسائل الضرورية لها غير متوفرة.

الأخطاء التي يقع فيها اليسار الثوري لا تنزع في ذاتها الصفة الثورية عنه. فهي طبيعية في كل يسار ثوري، في كل قيادة ثورية. كل يسار ثوري يتحرك ويتحول وينمو عبر ديالكتيك من الخطأ وتصحيح الخطأ. المهم أساساً ليس الخطأ بل قدرة اليسار على تصحيح الخطأ وتجاوزه، فلا يدع الخطأ يجره في انحرافات إضافية تتفرع منه، أو إلى ما يمكن تسميته بالخطأ المركب. المهم ليس في ذاته بل اتجاه اليسار مع التاريخ، مع ديالكتيك مرحلة معينة، الذي يسمح له، في الواقع، بالقدرة على تصحيح الخطأ، وتجاوز الخطأ والإفادة من الخطأ.

التطور الطبيعي نفسه يحدث عبر عملية مماثلة ويقدم لنا تجربة يمكن لها إغناء الوعي الثوري في هذا الصدد. فالطبيعة اتجهت مراراً وتكراراً في اتجاهات تطورية قادتها في طريق مسدودة، ولكنها كانت تغير الطريق وتصحح الاتجاهات في متابعة تطورها. خذ مثلاً قضية التطور العضوي الحيواني. ففي الماضي البعيد، منذ ملايين السنين خلقت الطبيعة الحيوانات الرخوية (mollusk) وطورت المفصليات (Trilobites) المنقرضة. ولكن فشل هذه المحاولة في خلق نموذج حيواني أعلى دفع الطبيعة إلى محاولات أخرى عديدة، عن طريق السمك، والبرمائيات، والزحافات والحيوانات الثديية، إلى أن استطاعت نهائياً أن تنجح فخلفت الإنسان. ولكن هنا أيضاً عانت الطبيعة الفشل عدة مرات. فال «Pithecantropus»، والـ «Eonthropos». ونماذج أخرى عديدة فشلت فانقرضت[1].

---

(1) Edwards, Lyford: The Natural History of Revolution, University of Chicago Press, 1970, PP: 12 - 13.

اليسار الثوري يدرك تماماً أن الممارسة الثورية تواجه باستمرار وقائع مزعجة يجب أن يتكيف معها ويعالجها، إنه يعي أنه أمام تلك أو هذه المشكلة يجب أن يعتمد تلك أو هذه الوسيلة، وأن تبني مقاصد معينة يفرض وسائل معينة في أوضاع معينة، إن هذه الوسائل قد تنطوي على جوانب سلبية قد تفرض رفضها، وإنه في حال كهذه يجب عليه أن يختار بين المقاصد والوسائل. ولكن بما أنه لا يستطيع التنكر للمقاصد، وبما أنه يجب عليه أن يدلل على وجوده بممارسة فعالة، يضطر إلى اختيار ما يتوفر من وسائل. المنهج العلمي في أي صعيد يكشف لنا عن قدر معين من المعرفة يسمح لنا على الأقل بسيادة نسبية له، واليسار الثوري لا يتردد في استخدام هذه المعرفة والوسائل التي تفرضها وإن كانت تتناقض مع نوازعه الأخلاقية والثورية الأساسية. هدف المنهج العلمي الحديث هو مساعدتنا على تحقيق وعي لذاتنا وتوفير معرفة للعلاقات والقوى الموضوعية التي تحيط بنا. إنه ليس نعمة يتسلمها صوفي أو نبي كي يحقق خلاص الأنفس، إنه ليس تأملاً يلجأ إليه العقل ويتساءل فيه عن معنى العالم أو عما «يجب» في خلق هذا المعنى أو إصلاح العالم، بل هو ممارسة فعالة في الواقع ترمي إلى تحقيق سيادة عليه.

مشكلة الوسائل التي يمكن اعتمادها أثناء الممارسة الثورية تفرض نفسها بإلحاح على كل يسار. فليس من حركة ثورية تستطيع، مثلاً، أن تتجنب التسويات العابرة، أو المرحلية مع الواقع ومع القوى المضادة التي يفرزها. ولهذا فعندما يقوم جناح ثوري باتهام آخر بأن يعتمد وسائل تنطوي على هذا النوع من التسويات، فالسبب الأساسي يكون، في الواقع، المقاصد المعينة التي يبغيها هذا الأخير من هذه التسوية. اليسار يعني مقاصد وتصورات ثورية تتجاوز الواقع، وعملاً يدفعه نحوها، أي عملاً يومياً لا ينسجم معها لأنه يعمل في واقع بعيد عنها. لهذا إن هو أراد ممارسة المسؤولية يجب عليه الالتزام بوسائل تستطيع أكثر من غيرها تحريك هذا الواقع نحو تلك المقاصد والغايات. فهذه الوسائل تجد شرعيتها في هذه الأخيرة وليس ذاتها. العنف مثلاً يفرض ذاته على كل يسار ثوري. ولهذا عندما تعلن جماعة ثورية ضرورة تجنبه، فإن السبب الأساسي لا يمكن أن يكون العنف في ذاته بل المقاصد المعينة التي يخدمها أو الشكل الذي يتخذه. لهذا عند تقييم العنف الذي تمارسه أنظمة وحركات سياسية

مختلفة لا يمكن الحكم على جميع ممارسته بشكل سويّ. قد يكون ذلك صحيحاً وحتى ضرورياً من ناحية أخلاقية محضة، ولكنه غير صحيح من ناحية ثورية أو سوسيولوجية، وذلك لأن العنف الذي يمارس بغية التحرير، دعم اتجاه التاريخ، التعجيل بإفراز تاريخي معين، مساندة قوى اجتماعية جديدة، بغية خلق نظام جديد يمثل صعيداً تاريخياً جديداً يختلف عن العنف المضاد الذي يمارس في الحيلولة دون ذلك، أي في الدفاع عن وضع راهن انحسر عن مجاراة تطور التاريخ. العنف الأميركي، مثلاً، في فيتنام يختلف عن عنف الفيتكونغ. العنف الأبيض في الحرب الأهلية الروسية يختلف عن العنف الشيوعي فيه. الأول كان يحاول تجميد حركة التاريخ وتثبيت نظام تجاوزته هذه الحركة، بينما الثاني كان يعبر عن هذه الحركة ويساندها. لهذا كانت حركة التاريخ نفسها تضفي شرعية على الثاني وتجرد الأول من كل شرعية، وذلك بصرف النظر عن أي مفهوم أخلاقي مثالي. تطبيق مقاييس مختلفة على ممارسات متماثلة شكلياً قد يكون أمراً لا يطاق من ناحية أخلاقية مجردة، ولكنه الموقف الوحيد الذي يمكن اتخاذه من ناحية سوسيولوجية وعلمية، وليس فقط من ناحية ثورية.

من ناحية أخرى، يجب أيضاً التمييز بين أشكال العنف التي يمارسها التمرد الثوري، وهو تمييز يجب أن يقيسها في ضوء إمكانات واتجاهات الوضع الاجتماعي التاريخي الذي تحدث فيه. فالعنف الثوري الصحيح، كما أشرنا سابقاً، يعمل مع هذه الإمكانات والاتجاهات التي تكون قد أصبحت ناضجة للثورة، يعبر عنها وينقلها إلى صعيد أو نظام جديد. إنه يكشف عن وضع أو نظام فرغ من مضمونه الإيديولوجي الديناميكي، من قدرته على التحرك مع التاريخ، وجُرد من شرعيته. هذا العنف قد يتخذ آنذاك أشكالاً مختلفة، ثورة شعبية عامة، حرباً أهلية، حرب عصابات، أو حتى انقلاباً عسكرياً، وهي أمر ثانوي. المهم هو الوضع المختمر ثورياً الذي يقود إلى الواحد أو الآخر من هذه الأشكال. ولكن عندما يحدث الضعف في وضع لا يكشف عن هذا الاختمار الثوري، فإنه يصبح عملاً إرهابياً. هذا لا يعني أن التكتيك الثوري دون أهمية بل إن الاعتماد على هذا التكتيك في تحديد الثورة أو اليسار الثوري يزيد البلبلة والابهام حول معناهما. فالأساس التكتيكي الذي يستخدمه اليسار الثوري قد

يسبب بلبلة كبيرة في تحديد معنى الثورة ومعنى اليسار إذ يوحي في الكثير من الأحيان أن التكتيك الذي يلجأ إلى العنف، الإرهاب والاغتيال هو تكتيك ثوري، وبالتالي يمثل اليسار الثوري الصحيح. إن أحد المصادر الأساسية للبلبلة القائمة في تعريف اليسار الثوري وحتى الثورة، يعود إلى طريقة شائعة في التمييز بين أشكاله على أساس التكتيك الذي يستخدمه. يجب أن لا ننسى أبداً أن لا قيمة للتكتيك، لأي تكتيك في ذاته، وأن قيمته هي في المقاصد التي يخدمها، في التحولات التي تمكن له التعبير عنها أو إحداثها.

مسؤولية اليسار الثوري مسؤولية ديالكتيكية تدرس جميع الجوانب وتناقضات الوضع الذي تعمل فيه، تحدد النتائج التي تترتب على عدد من الاختيارات والقرارات الممكنة، وتحاول اعتماد بعض الوسائل التي تحقق في مجرى ونسيج الأحداث بعض النتائج التي تبغيها وتريدها. هذا لا يعني استراتيجياً أنها تعتمد أية وسيلة ممكنة في المعنى المبتذل للمكيافيلية، بل إن الاستراتيجية الواعية تهتم أولاً بفاعليتها وبإنجاز أكبر قدر ممكن من الفاعلية وتتحدد باختيار الوسائل الملائمة للغايات التي تريدها.

اليسار الثوري لا يترك طبعاً هذه الوسائل الآنية والمرحلية أن تشغله عن مقاصده البعيدة أو تنسيه أن انشغاله بها يجد تبريره النهائي في هذه المقاصد. العمل الثوري يتميز ككل عمل سياسي أو حتى إنساني آخر بعنصر وجودي، أي إنه عمل قد ينتهي بإهمال الجوهري بسبب مجابهته اليومية للمشاكل العينية الفردية. إن حدث ذلك تحل الأهداف الآنية محل الغايات الكبرى، وما كان أو يجب أن يكون فترة أو مرحلة في العمل الثوري يهيمن ويسود عليه. عندئذ يخسر اليسار الثوري طبيعته ودوره كيسار ثوري.

«عندما نحاول تحديد قيمة قصد نهائي بموجب أحكام أخلاقية حول الخير والشر! فإن المسألة تصبح كل شيء أو لا شيء يجب الاختيار بينهما. ولكن عندما نحاول تحديد القيمة العملية لإنجاز مباشر، فإن المسألة تصبح مسألة تقريبية. . . كل تسوية نقبل بها تمثل، في الواقع، اختياراً يفرض ذاته على الوعي بين القصد الذي نبغيه وبين الهدف الجزئي الذي يمكن تحقيقه. الاعتياد على هذا النوع من الممارسة

يقود النشاط السياسي. . . بأن يرى في هذه الأهداف الجزئية القصد الأساسي. بعد قليل يقتصر طموح هذا العمل على تحقيق أهداف محدودة يعتقد بإمكان تحقيقها، فيستسلم كلياً إلى بواعث خاصة وجزئية تتجه نحو هذه الأهداف»[1]. هذا ما يجب على اليسار الثوري أن يحذره بشدة عندما يمارس هذه التسويات.

من ناحية أخرى، تنبغي الإشارة بأن الجهد الفكري الكبير الذي يتطلبه الإدراك الواعي للمرحلة التاريخية التي يعمل فيها اليسار، في جميع أبعادها الأساسية والثانوية، تحولاتها المباشرة وغير المباشرة، هو جهد كبير يميل الناس عادة إلى تجنبه بانغماس في التفاصيل والمشاكل الآنية. هذا يشكل خطراً إضافياً يهدد اليسار بالخروج من حركة التاريخ.

من ناحية ثالثة، يجب التنبيه أيضاً أن الإدراك الموضوعي العام للمرحلة التاريخية ككل يفرض على اليسار الثوري درجة عليا من الانضباط يحتاج إليها في تأجيل منجزات ونجاحات آنية قد تسيء إلى مقاصده العليا، لأن هذه المنجزات والنجاحات تتميز عادة بدرجة كبيرة من الجاذبية. فمن الصعب جداً إهمال ما يمكن تحقيقه في الحاضر لأنه لا ينسجم مع التصور الثوري النهائي وما ينطوي عليه من مقاصد، وخصوصاً عندما يعني ذلك ليس فقط التنازل عن بعض المنجزات والنجاحات الممكنة، بل القبول بدرجة من التراجع والانسحاب. موقف كهذا يتناقض مع ميل الناس العفوي إلى المكافآت السريعة، إلى رؤية الأشياء أساسياً كما يجب أن تكون من زاوية نوازعنا وأهوائنا التي لا تتميز عادة بالنفس الطويل الصبور، وليس كما هي أو كما تتجه بديالكتيكها الخاص المستقل. هذا أيضاً يواجه اليسار الثوري بخطر الانزلاق خارج حركة التاريخ، أي بخسارة ذاته كيسار ثوري.

اليسار الثوري يواجه أيضاً خطر هذا الانزلاق كنتيجة تترتب على ميل الناس العفوي إلى تبسيط الظواهر الاجتماعية السياسية وإرجاعها كلها إلى سبب واحد بسيط يبسط ويتجاهل طبيعتها المعقدة الديناميكية والديالكتيكية. اليسار يحتاج ولا شك إلى هذا التبسيط وإلى ممارسته ولكن ليس على حساب إدراكه الموضوعي الديالكتيكي

(1) De Man, Henri: Au Dela Du Marxisme, editions du Seuil, 1974, P: 255.

العام للمرحلة ككل وللاتجاهات التي تكشف عنها والذي يجب أن يتحكم أساسياً في ممارسته الثورية. فهو يحتاج إلى إجراء توازن ديناميكي دائم بين هذين الجانبين، وإن ترك الحاجة إلى التبسيط تسود الحاجة إلى هذا الإدراك، فإنه يتمزق وينهار كيسار ثوري. هذا التبسيط يكون جذاباً بشكل خاص في المراحل الانتقالية التي تفرز اليسار الثوري، لأنها تعني البلبلة والقلق والتمزق فيميل الناس آنذاك بشدة وبشكل تلقائي إلى الإجابات والحلول البسيطة.

إن «القوى التي تعمل نحو الثورة اليوم قد تعمل تماماً في وجهة معاكسة غداً. ومن المهم الملاحظة بأن هذه التحولات في الاتجاه لا تنتج آلياً عن الوضع الطبقي أو حتى الطبقة التي تتعرض لذلك. إنها تتحدد بشكل حاسم بالعلاقات المتغيرة مع الوضع التاريخي ككل والقوى الاجتماعية العاملة فيه»(1). لهذا كان تغير الارتباطات والوسائل، وبالتالي تجنب أي تبسيط أمراً ضرورياً جداً، بله قضية حياة وممات لليسار الثوري.

* * *

اليسار الثوري يعي دائماً أن هناك تناقضاً بين المثال الذي يسعى إليه وبين الواقع الذي يعمل فيه، فيدخل تسويات مع الغير، ولكن كي يحقق منها دعماً أو كسباً يساعد حركته نحو النصر النهائي. إنه يقبل بها لأنه يستطيع تطويعها في خدمة مقاصده العليا، لأنه يستطيع عن طريقها إعداد العدة لضربة جديدة قوية أو مهلكة يصيب بها العدو.

بعد أن يصف روح التشيع التي كانت تميزه يكتب لوكاش أن نقد لينين لبحث كان قد نشره وهاجم فيه فكرة المشاركة في البرلمانات البورجوازية ساعده في اتخاذ الخطوة الأولى في الابتعاد عن هذا التشيع. إن لينين، كما يكتب، «أشار بأن نظاماً ما قد يكون أصبح عتيقاً من زاوية التاريخ العالمي ـ مجالس السوفيات مثلاً جعلت البرلمانات عتيقة ـ ولكن هذا لا يعني استثناء المشاركة فيه لأسباب تكتيكية. على العكس، إنني رأيت رأساً قوة هذا النقد الذي اضطرني إلى إعادة النظر في منظوراتي التاريخية وتكييفها بشكل أكثر دقة وأقل مباشرة على متطلبات التكتيك

(1) LUKâcs, G: of, cit, P: 311.

اليومي. من هذه الناحية كان النقد بداية تغيير في مفاهيمي»[1].

هذه التسويات تفرض ذاتها. «كل ممارسة عملية، سواء كانت في الصعيد السياسي، النقابي أو أي صعيد آخر تشكل» كما يكتب دي مان، المفكر الماركسي، «صراعاً يدور حول هدف معين. وهذا الصراع ينتهي دائماً في اتفاق يربط مضمونه بالعلاقات القائمة بين القوى المتناقضة الموجودة «حتى القوة التي تتجه نحو قصد شامل لا تتحقق أبداً إلا عبر سلسلة من التسويات حول قضايا جزئية»[2].

إن لينين كتب مرة في البرافدا، 22 فبراير، 1918، «لنفترض أن كالِيايف يحصل، كي يقتل طاغية.. على مسدس من إنسان يتميز بنذالة تامة، وغد ولص، ويعرض عليه الخبز، والمال والفودكا لأجل هذه الخدمة.

هل يمكن لأحد أن يدين كالِيايف لهذه «الصفقة مع لص بغية الحصول على سلاح قاتل؟.. كل إنسان عاقل يجيب «لا». إن لم يكن هناك من أي مكان آخر يمكن فيه لكالِيايف أن يحصل على المسدس، وإن كان قصده هو حقيقة قصداً شريفاً (قتل طاغية، وليس القتل للنهب)، إذن يجب أن لا يلام، بل يمتدح لحصوله على مسدس بهذه الطريقة».

آلاف المفكرين في الغرب أعطوا ولاءهم للاتحاد السوفياتي في الثلاثينات والأربعينات رغم الأخطاء والقتل وحركات التطهير الهائلة، ليس لأنهم كانوا متعامين أو جاهلين بما حدث، بل إنهم كانوا يبررون ذلك بالمستقبل الإنساني المشرق الذي يمثله الاتحاد السوفياتي. أي موقف آخر كان يعني، كما رأوا، الوقوف مباشرة أو غير مباشرة، إلى جانب الفاشستية ودعاة الحرب. ولهذا كان من الضروري الصفح عن كل شيء تقريباً في سبيل الدفاع عن دولة العمال الأولى في التاريخ. إن مفكراً كبيراً كجورج لوكاش تراجع عن أفكار سابقة وكتب يمتدح ستالين لأن ذلك كان ضرورياً في محاربة الفاشستية. المفكرون الماركسيون في الغرب كانوا يرفضون الاعتراف بأكثر الوقائع وضوحاً إن كان من الممكن للعدو استغلالها ضد الشيوعية.

(1) Lukâcs, G: op. cit. PP:XIII - XIV.

(2) De Man, H: op. cit. P: 255.

بعد نهاية «التجمع الديمقراطي الثوري» الذي أنشأه سارتر عام 1948، كان الخط السياسي الذي اتبعه منذ ذلك التاريخ في صفحات مجلة «الأزمة الحديثة» فيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي والغرب يتميز بالاتجاه التالي: إن الاتحاد السوفياتي لا يزال بعيداً جداً عن التعاليم الماركسية ـ اللينينية ولكنه لا يزال أقدر من العالم الغربي على قيادة الإنسانية نحو التقدم. لذلك فإن أي اتهام للاتحاد السوفياتي وإن كان مدفوعاً بالوقائع والأدلة يضعف قوى التقدم ويدعم القوى المحافظة والرجعية. فطالما أن الاتحاد السوفياتي موجود فإن أعداء العمال يجدون أنفسهم في موقف دفاعي، وإن زالت الثقة به أو هزم فإن البروليتاريا تخسر أملها الوحيد، ولهذا يجب على التقدميين من كل نوع أن يساندوا الاتحاد السوفياتي وينتصروا لسياسته[1].

إن نافيل وصف موقف سارتر حول هذا الموضوع فكتب إن سارتر يرى بأن الحزب الشيوعي السوفياتي على حق. من حيث التفاصيل يمكن له أن يخطىء. من ناحية عامة سار الاتحاد السوفياتي إلى الأمام ولكن من حيث التفاصيل فإن الثمن كان باهظاً جداً. من ناحية عامة الحزب الشيوعي يمثل «الذكاء الموضوعي» ولكن من حيث التفاصيل كان يقع في الخطأ. فهو مثلاً، من ناحية عامة، لأجل السلام، ولكن من حيث التفاصيل فإنه يصوت لإعطاء غي موليه سلطة عسكرية تامة لأجل حرب الجزائر. إن سارتر يهاجم هذا التصويت على صفحات «الأزمة الحديثة» ولكن الأمر لا يعدو كونه تفصيلاً[2].

عندما كان سارتر، ومارلوبونتي، وجونسون، وغيرهم يدعون إلى تأييد الاتحاد السوفياتي فذلك لم يكن يعني أنهم كانوا يتعامون عن النقص الموجود أو الانحرافات الواضحة فيه. إنهم كانوا يعون ذلك ويعترفون به ولكنهم كانوا يدعون إلى ذلك لأنه كان، رغم الانحرافات والأخطاء، يمثل العقل التاريخي وأملاً ممكناً بالمستقبل، وهو أمر لا يتوفر للديمقراطية البورجوازية الغربية. لهذا كانوا، كما لاحظ كامو، لا يميزون

(1) في رواية الـ«Mandarins» لسيمون دي بوفوار يلاحظ دوبرايه الذي يمثل سارتر بأن المسألة المهمة الوحيدة هي أن نعرف إن كنا بشجب المعتقلات والإبلاغ عنها نعمل لأجل أو ضد الإنسانية. الإرهاب والعنف كانا يأخذان بالنسبة لسارتر معنى مختلفاً بالنسبة إلى النظام أو الحزب الذي يمارس السلطة.

(2) Naville, Pierre: La Révolution et les Intellectuels Gallimard, 1975, P: 145.

بين أفكار سياسية رجعية وبين انتقادات توجه إلى الاتحاد السوفياتي أو الماركسية، لأن كل من يتخذ موقفاً مناقضاً يخدم في رأيهم موضوعياً، ومهما كانت الدوافع، القوى الرجعية، إنهم من ناحية أخرى، ربطوا مصلحة البروليتاريا بمصلحة الحزب الشيوعي كأداة للثورة وأكثر الوسائل فاعلية في إعطاء العمال المجتمع أو النظام الذي يجب أن يكون في خدمتهم، ولكن هذا لم يكن يعني أنهم كانوا يعطون ولاءهم للمذهب الشيوعي أو يوافقون على جميع ظواهر سياسته.

إن سارتر، ومارلوبونتي أصبحا، ابتداء من عام 1950 يعتبران أن الشيوعية الروسية شيوعية متفسخة، وتكشف وجوه شبه عديدة مع النازية. ولكنهما على الرغم من ذلك رأيا أن مفهومها العام وقصدها لا يزالان ينطويان على الأمل، وأن الصراع الطبقي لا يزال قائماً في قلب العالم الرأسمالي، ولهذا استمرا على مناصرتها[1].

الوجوديون الفرنسيون الذين دعوا إلى الارتباط بالاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية العالمية برروا ذلك بالرجوع إلى ما يسمونه بالقصد التاريخي الذي يعبر عن ذاته في الماركسية ـ اللينينية. فهذه الحركة لا تزال، رغم كل ما يمكن أن يقدم ضدها من نقد، تتحرك باسم وقوة تصور تحريري كلي، بينما الأحزاب الأخرى استسلمت أو خضعت لمظالم نظام يمكن للإصلاحات تحسينه ولكنها لا تستطيع تحويله جذرياً.

هنا تجدر الإشارة أن هذا المنطق قد يتناقض، في الواقع، مع أطروحة ماركسية مشهورة نجدها في مقدمة كتاب «إسهام في نقد الاقتصاد السياسي». فإن كان يجب أن نحكم على الأنظمة والمجتمعات في ضوء ما هي عليه، كما تقول الأطروحة، وليس في ضوء ما نزعم أنها عليه، كيف يمكن إذن تحديد الحركة الشيوعية بالقصد الذي تزعم أنها تهدف إليه وليس بالأنظمة التي قادت، على الأقل، موقتاً إليها!.

ولكن ما يستوقف الانتباه بشكل خاص هنا هو أن الوجوديين كانوا يقدمون تأييدهم ويمارسونه رغم رفضهم من قبل الشيوعيين. إن سارتر ذهب إلى القول في مقابلة معه بأن النزاع القائم بينه وبين هؤلاء هو من النوع العائلي، ولكن الشيوعيين

(1) Caute, David: Le Communisme et Les Intellectuels français, Gallimard, 1967, P: 125.

كانوا لا يقابلونه بموقف مماثل ويجيبون أن الوجودية، إيديولوجية البورجوازية الصغيرة، أصبحت تدريجياً رجعية حتى فاشستية[1].

في كتاب «المذهب الإنساني والإرهاب»[2] يفسر مارلوبونتي أن الاتحاد السوفياتي لا يمثل نظاماً اقتصادياً اجتماعياً بين أنظمة أخرى، محاولة تصنيع سريع في مجتمع يحاول إقامة نظام حديث، بل نظام يعبر عن آمال إنسانية جديدة أو آمال الإنسانية نفسها. فالعقل التاريخي كان يلعب ورقته الأخيرة عبر هذا النظام، ويقف إلى جانب لينين وتروتسكي وستالين. هذا كان عام 1947. ولكن في كتاب آخر «مغامرات الديالكتيك»[3] صدر عام 1955، نرى الخط نفسه ولكن بنتائج أخرى متعارضة مع الأولى. في المحاولة الأولى حاولت الفلسفة أن تدل بأن التجربة السوفياتية تعني أكثر من ذاتها لأنها تشكل برهة حاسمة في الديالكتيك التاريخي. ولكن في عام 1955، كانت الفلسفة توحي على الأقل بأن التجربة الشيوعية لا تعني شيئاً أكثر من ذاتها، وبأن العقل التاريخي لن يتأثر بفشلها أو نجاحها. ولكن حتى هذا التحول لم يكن يعني التوقف عن تأييد الاتحاد السوفياتي.

ومجلة «اسبري» (Esprit) الكاثوليكية اليسارية رأت أن الاتحاد السوفياتي يمثل الأمل الوحيد في خلق اشتراكية عالمية تشكل في دورها طوراً تاريخياً أعلى، ضرورياً ومرغوباً. وبمناسبة زيارة خروشوف للولايات المتحدة كتبت بأنه على الرغم من أن قادة الاتحاد السوفياتي أصبحوا ذوي اتجاه تقني على حساب ماركسيتهم، فإنهم لا يزالون حملة فكرة، كما أن أعمالهم السياسية لا تزال تمثل حلماً، حلم المساواة الاقتصادية وانتصار الإنسان الشامل وسيادته للأرض والسماء. هذا لا يعني أنها كانت تتجاهل مطارح النقض في الاتحاد السوفياتي، ووسائل الكبت والعنف الجماعي التي استخدمها أو لا يزال يستخدمها، بل لأن ذلك يجد ما يبرره في رسالة كبرى يلتزم بها، ولأنه رغم كل ما يمكن أن يقال فيه لا يزال النظام الوحيد الذي يحمل بين كيانه أمل تحرير الإنسان الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

---

(1) ARON, Raymond: Marscismes Imaginaires, Gallimard, 1970, P:16.

(2) Merleau-Ponty, M.: Humanisme Et'Terreur, Gallimard, 1947.

(3) Merleau-Ponty. M: Les aventures de la dialectique, Gallimard, 1955.

رومان رولان ناصر الثورة الشيوعية السوفياتية ودعا إلى الوقوف وراءها ومساندتها رغم نقضه المطلق للعنف، وكان يكتب أنه على الرغم من سجونها وأخطائها وجرائمها وحماقاتها، فإنها تمثل أعظم جهد اجتماعي خلاّق تحقق في أوروبا الحديثة، ولذلك وجب الانتصار لها[1]. كثيرون آخرون اتخذوا الخط نفسه في الغرب على الرغم من أنهم لم يكونوا شيوعيين أو ماركسيين. فروسيا كانت تتميز، بالنسبة لهؤلاء المفكرين، بفضيلة فريدة، فضيلة تعلو فوق جميع أخطائها الحسية وتتمثل بالأمل الجديد الكبير الذي تعبر عنه.

كثيرون من المفكرين الذين لم يكونوا مؤمنين بالماركسية أو منتمين إلى الحزب الشيوعي دعموا وأيدوا ثورة أكتوبر، وذلك لأنهم بعبارة الشاعر الرمزي الكسندر بلوك رأوا «بأن البولشفيك هم في اتجاههم العام أقرب إليّ من أي مكان. ولهذا فأنا مستعد أن أمارس البلشفة حولهم. ولكنني لست شيوعياً أو ماركسياً، وأظن أنني لن أصبح واحداً في المستقبل».

كلنا يعلم الانتقادات الحادة والأساسية التي وجهها تروتسكي للثورة في عهد ستالين، ولكن تروتسكي استمر يدافع عن الاتحاد السوفياتي ويدعو إلى الارتباط به والدفاع عنه لأنه نظام اشتراكي يقوم على أساس الملكية الجماعية والتخطيط. فالدولة السوفياتية أصيبت بإفساد بيروقراطي ولكنها دولة اشتراكية، وفي الصراع بين الديمقراطية البورجوازية والنظام السوفياتي يجب دعم الأخير لأنه، رغم الانتقادات التي يمكن أن توجه إليه، أقرب إلى المثال الاشتراكي[2].

الدكتور أوتو بويار، قائد الديمقراطية الاشتراكية في النمسا لم يكن شيوعياً، بل

---

(1) Cante, D: op. cit. P: 125.

(2) في أواخر أيامه عبر تروتسكي عن بعض الشكوك حول الرؤيا الماركسية وحول صحتها نفسها، وذلك لأن هذه الرؤيا تقول بأن ثورة تصنعها البروليتاريا وتقيم نظاماً يجد أساسه في الملكية الجماعية والتخطيط يجب أن تقود إلى تحرير الإنسانية، وهو تحرير لم يقترن بها بعد، ولهذا نراه ينبه إلى خطر نظام يقوم على الملكية الجماعية والتخطيط ولكن دون ديمقراطية وتحرير إنساني، ويرى أنه إن لم تدرك البروليتاريا قدرها الثوري وإن كانت الأممية الماركسية لا تنتصر على تبلورها القومي في الاتحاد السوفياتي، فمن الواجب الاستنتاج بأن الأحداث كذبت الماركسية نفسها[*].

(*) Aron, R,: dimocratie et totalitarisme, Gallimard, 1965, PP: 310 -311.

كان ضد البولشفيك من ناحية ماركسية ولكنه كان يقف إلى جانبهم في صراعهم ضد أي نظام رأسمالي. إنه كان يعتقد «أن الاشتراكية يجب أن لا تهدم ضمانات الحرية الفكرية الفردية، بل يجب أن تصونها كأثمن تراث من الثورات البورجوازية، وأن يحققها في المجتمع الاشتراكي، ولهذا هاجم البولشفيك لأنهم ألغوا هذه الحرية وفرضوا على العلماء أن ينكروا آراءهم بتهديدهم بالتوقيف والنفي أو تجريدهم من وظائفهم»، ولكنه من ناحية أخرى أكد «حقده الذي لا يلين للرأسمالية... لنظام اجتماعي يقضي في كل عقد من السنين على ملايين الناس بأن يعيشوا في بؤس رهيب ليس لأن المنتوجات مفقودة، بل لأن ليس هناك من ربح في إنتاجها»، ولهذا «إن سقطت السلطة البولشفية عن طريق العنف، فإن الإنسانية ستخسر لوقت طويل إيمانها بإمكان ولادة نظام اجتماعي آخر أعلى من النظام الرأسمالي وبذلك تمتد حياة البربرية الرأسمالية».

هذه الأمثلة تكشف أن الوعي الثوري الصحيح يدرك أن كل عمل ثوري ينطوي على سلبيات يجب القبول بها والتسوية معها، وأنها يجب أن لا تمنع الانتصار له، وذلك لأن إيجابياته تزيد عليها وتنقل إلى صعيد تاريخي أعلى. فهي تدل أن التسوية تفرض ذاتها على اليسار الثوري، وأنها بالنسبة لهذا اليسار الذي يعرف كيف يطوع الواقع لمقاصده العليا ولا يغفل هذه المقاصد، لا تكون مرادفاً للانتهازية أو لموقف وسطي. بعض التسويات تحتاج، في الواقع، إلى جرأة ثورية كبيرة، وأكبر بكثير مما يحتاجه موقف يقتصر على إعطاء ولائه لبرنامج نظري. إن رفض التسوية عبر الواقع الذي يعمل فيه اليسار الثوري نحو مقاصده هو الذي يقود إلى الانتهازية لأنه يعني الاتجاه في ضوء مبادئ تتناقض مع تلك التي توجه الواقع الاجتماعي التاريخي المتحول. اليسار الثوري، فكرياً كان أم سياسياً، لا يرفض التسوية أية وسيلة أو ممارسة في ذاتها طالما أنها في خدمة نظام ثوري يعمل على تحقيق مقاصد ثورية عليا. الثورة تعني اتجاهاً موضوعياً يكشف عن ذاته بمراحل مترابطة تتفرع فيها الواحدة من الأخرى وتمهد كل منها للمرحلة التي تليها، وهذا يعني وسائل، وممارسات وتسويات موقتة مع كل مرحلة من هذه المراحل، لأن الخروج عن التجاوب الديالكتيكي الفعال مع هذه المراحل، أو بالأحرى إحداها، يمكن أن يقود اليسار إلى

خسارة معناه كيسار ثوري. لهذا كتب فريدريك أنجلز، كما يبدو، في كتابه «ديالكتيك الطبيعة»، ما معناه بأن التفكير المنحرف يقود نهائياً، في تسلسله المنطقي، إلى نقطة تتعارض مع نقطة الانطلاق.

إن ماوتسي تونغ كان يعبر عن طبيعة هذا الواقع عندما كتب بأنه يجب أن تدرك أن الطريق إلى مقاصدنا ليست طريقاً مستقيمة، بل طريق متعرجة، كثيرة الالتواءات والمنعطفات، تمر بمهاوي كثيرة يجب أن نكون حذرين كل الحذر عندما نسير على حافتها، وبأن هذا النوع من الطرق هو النوع الوحيد الذي يعرفه العمل الثوري[1]. عندما نراجع مواقف ماو التكتيكية من شان كاي شيك نجد أن جميع المواقف الممكنة كانت صحيحة. فالقتال ضده، والاتفاق معه، والابتعاد عنه أو التعاون معه، كلها كانت مواقف صحيحة في أوضاع مختلفة.

كل يسار ثوري فعال، في أي مكان أو زمان يقوم فيه، يرتبط بأوضاع الصراع الذي تقدمه ويحيط به، فهو لا يستطيع أبداً، إن أراد أن يكون فعالاً، أن يخرج على تراث هذا الصراع أو الأوضاع التي تقترن به. كل محاولة في بناء يسار ثوري خارج هذه الأوضاع تؤدي إلى الخروج من وعلى التاريخ كما يصنع نفسه، لأن هذا اليسار يعني في الواقع مساندة التاريخ، حث خطاه واختصار الطريق أمامه. إن غارودي، وهو من أهم المفكرين الماركسيين الفرنسيين، يعطي، مثلاً، دوراً رجعياً للشيوعيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر لأن نشاطهم أضعف قوة البورجوازية الهجومية في صراعها ضد الإقطاعيين والنظام الملكي ـ الإقطاعي، وذلك لأن التطور الاجتماعي التاريخي آنذاك كان يعبر عن ذاته وثوريته في هذاالتناقض البورجوازي ـ الإقطاعي، ولذلك كان على العناصر التقدمية مساندة الثورة البورجوازية وليس مناقضتها ومخاصمتها[2].

الأمانة النظرية المجردة لتصور ثوري لا تجعل صاحبها ثورياً، بل على العكس، قد تؤدي به إلى الانحراف وإلى الثورة ـ المضادة. كل يسار يجابه أوضاعاً يضطر فيها

---

(1) Mao - Tse - Tung: op. cit, Vol. IV P: 60.

(2) GARAUDY, ROGER,: les sources françaises du socialisme scientifique, Paus, 1949 p: 29.

إلى إجراء انسحابات، الرجوع إلى مواقع دفاعية، تنازلات، تسويات، الخ. ولكن الفرق بين يسار صحيح ويسار منحرف، هو أن الأول يمارس ذلك في إطار استراتيجيا ثورية عامة تقتبس فاعليتها من قدرتها على إدراك حركة التاريخ في مرحلة معينة. التمسك بالأمانة النظرية المجردة ورفض وسائل معينة، أو التسويات المرحلية التي لا تنسجم معها يعبر عن «مثالية» من النوع الذي وصفه بيجي (Peguy) مرة بأن أياديه تكون نظيفة لو كانت لديه أيادٍ.

في مؤتمر الحزب الشيوعي الروسي السابع، آذار 1918، أعلن لينين في خطابه الكبير حول الحرب والسلم، «إننا نقبل بالسلم لأنه يعطينا فسحة من الوقت نحتاجها كي نتنفس براحة... ومن لا يعرف كيف يكيف نفسه، من لا يعرف كيف يسحل على بطنه في الأقذار ليس ثورياً بل ثرثار».

وكارل كوتسكي، الخصم النظري والسياسي للينين يعبر عن خط مماثل ويدعو إليه. فقد كتب «إنه لمن السخافة حقاً أن نطلب من الاشتراكيين مساندة أي إضراب دون تمييز، لأنه إضراب فقط. كلا الإضرابات التي تعلن بشكل ارتجالي أو دون إعداد صحيح تكون جريمة بالنسبة لمصالح العمال أنفسهم.. نقد ومقاومة هذا النوع من الإضرابات أمر يفرضه واجب الاشتراكيين الذي يتطلب منهم إيضاح الأمر للبروليتاريا، قول الحقيقة لها دون أي تردد، وليس التمجيد الغوغائي لكل حماقة تأتي منها. المتزلفون للبروليتاريا لا يقلون خطراً وحقارة عن متزلفي الملوك[1].

الوسائل التي يستخدمها اليسار الثوري هي كمبضع الجراح الذي لا يتميز بأي مضمون طبي، لأن هذا المضمون يرتبط بطريقة استعماله، بمن يستعمله، بأوضاع الاستعمال، والمقصد منه. إن مارلو بونتي يكتب «إن الخداع والكذب والدم المهدور أمور تجد ما يبررها إن كانت تجعل سيادة البروليتاريا ممكنة، وفي وضع كهذا فقط»[2]. وسيمون دي بوفوار كتبت من جهتها، «إنه لمن السخافة حقاً أن نقاوم عملاً تحريرياً معتذرين بأنه ينطوي على استبداد وجريمة، إذ بدون الاستبداد والجريمة لا

(1) Lamat, Lucien,; problèmes actuels du Socialisme. Les Iles D'or, 1955, P: 137.

(2) VOINEA, serbian, la morale et le Socialisme, la Flamme Gand, 1953, PP: 389 - 390.

يكون هناك من تحرير للإنسان. إننا لا نستطيع أن نتجنب ذلك الديالكتيك الذي ينتقل من حرية إلى حرية عن طريق الدكتاتورية والاستبداد»[1].

التصورات والمقاصد الثورية التي لا تستطيع الانتقال إلى الممارسة الفعالة، التي تنقصها الوسائل المادية التي تنقلها إلى عمل ثوري فعال، تكون دون أية قيمة تاريخية وسياسية إيجابية، لأنها تقتصر آنذاك على صعيد الأحكام الأخلاقية المجردة. لهذا فإن الإسراع باتهام كل تسوية بأنها مضادة للثورة هو عمل يدل على عقل فجّ، وذلك لأن التسوية، ككل وسيلة أخرى، لا تجد معناها في ذاتها، بل في علاقتها بالأوضاع التي تحيط بها، في المقاصد التي تخدمها، وفي إمكانات الوضع التي يمكن تسخيرها لها. التسوية التي لا تعرف القصد الثوري، لا تتحدد وتتقرر به ولا تخدم حركته الدائمة في تجاوز الواقع هي وحدها التسوية الانتهازية من ناحية ثورية.

التسوية السياسية لا تنطوي في ذاتها على أي معنى ثوري أو محافظ، تقدمي أو رجعي، وهي في ذاتها لا تعني هزيمة أو انتصاراً تراجعا أمام العدو أو انتصاراً عليه، الخ.. فدورها يرتبط ارتباطاً ديالكتيكياً وثيقاً بالمفهوم الاستراتيجي الذي يقف وراءها. فإن كان هذا المفهوم ثورياً يعكس إدراكاً موضوعياً للواقع والاتجاهات الأساسية التي تحركه نحو تجاوز ذاته، فإن التسوية تكون آنذاك تقدمية وثورية تفرز من موقعها ذاته إمكانات دفع أو انتصار جديد. ولكن إن كان المفهوم الاستراتيجي لا يتميز بهذه السمات أو كانت التسوية دون مفهوم استراتيجي من هذا النوع، فإن التسوية تكون آنذاك ذات أرضية محافظة أو انحرافية، وتعني بالتالي التراجع أمام العدو أو الاستسلام له. لهذا كانت النقطة الأساسية التي يجب أن يعيها اليسار الثوري هي: هل تسمح الأوضاع التي تحيط بتسوية ما ممكنة بأن تكون هذه التسوية من النوع الأول؟ فالكلمة الأخيرة هي لهذه الأوضاع وليس لإراداته أو مناورات يقوم بها.

هذا يعني، من ناحية أخرى، أن التسويات لا تقرر شيئاً كبيراً في ذاتها، وأن دورها هو فقط مساعدة اليسار الثوري على الإفادة من حركة الواقع الموضوعي ذاته. هذا اليسار يدرك تماماً، أن القضايا الأساسية التي يدور حولها أو يعالجها تخرج تماماً

(1) Simone De Beauvoir: The Ethics of Ambignity, The Citadel Press, 1962, P: 155.

عن دور التسويات التي يمكن لها أن تقرر مصيرها من زاوية ثورية. فهي تدور فقط حول أمور وقضايا ثانوية، وموقتة، والغاية منها هي تسهيل الطريق فقط أمام الحلول الأساسية، وذلك بتوفير الوقت أو بعض الأوضاع التي يحتاجها اليسار في الوصول إلى هذه الحلول وتحقيق نتائج كبيرة. دورها الإيجابي في كونها تشكل خطوات محدودة في خدمة استراتيجيا ثورية عامة، أعمال جزئية تساند هذه الاستراتيجيا. فكما أن هذه الأخيرة تخسر طبيعتها ودورها إن هي تجزأت إلى أعمال مبعثرة منفصلة، كذلك أيضاً التسويات تنحسر طبيعتها وتفقد دورها إن هي تجاوزت عملها كخطوات ثانوية وجزئية. إن عملها يقتصر فقط على تعايش موقت مع العدو أو سكوت قصير عنه، تنازل ما عن شيء ما للعدو بغية التربص به والانقضاض عليه في فرصة أخرى مناسبة، انسحاب أو تراجع منظم لأن القوى الضرورية للانتصار على العدو غير متوفرة في فترة معينة، التحالف مع قوى يلتقي معها اليسار في مصلحة واحدة ضد عدو مشترك في أوضاع معينة وإن كانت قوى لا يمكن الاطمئنان إليها في المدى البعيد، مجابهة العدو ببعض المطالب الجانبية بغية تمزيق وحدته. هذا هو عادة صعيد التسويات، الصعيد الذي يمكن فيه ممارستها دون أن يخسر اليسار الثوري طبيعته ودوره. إنه صعيد يحاول فيه أساسياً هذا اليسار كسب الوقت إلى أن يستطيع توجيه ضربات ساحقة ضد العدو. اليسار الذي يتجاهل أو ينسى ذلك يخسر، عاجلاً أو آجلاً، طبيعته ومعناه ودوره كيسار ثوري.

الملاحظات السابقة تدل ضمناً على الأقل أن اليسار لا يستطيع مقدماً اختيار مجموعة من الوسائل التكتيكية التي يجب اعتمادها، التكهن بمجموعة من التسويات التي يجب تحقيقها، وذلك لأن من طبيعة هذه الوسائل والتسويات أن تكون آنية وجزئية ترتبط مباشرة بالأوضاع المتحولة والتناقضات التي تفرزها من مرحلة إلى أخرى. إن مجرى الصراع الثوري هو الذي يحدد في كل فترة، كل طور، كل منعطف نوع هذه الوسائل والتسويات التكتيكية التي يجب اعتمادها. هنا يقوم دور القيادة الثورية الكبيرة. فهي قيادة تستطيع اختيار ما يجب ويصح من هذه الوسائل والتسويات في صراعها الدائم وتفاعلها المستمر مع الواقع المتحول. كفاءة اليسار الثوري الصحيحة تعبر عن ذاتها إلى حد كبير في هذه القدرة على اختيار التكتيك الصحيح واعتماد ما يناسب تغير الأوضاع.

التجربة الشيوعية
والممارسة الثورية

الثورات الشيوعية تقدم لنا ـ رغم الأخطاء والانحرافات ـ التجربة النموذجية من حيث الممارسة الثورية الناجحة، أي من حيث التخطيط الاستراتيجي للاستيلاء على السلطة وإقامة نظام جديد، ومن حيث علاقة التكتيك بهذا التخطيط. فليس هناك من تجربة ثورية في التاريخ استطاعت أن تسود الواقع وتحوله عن طريق التخطيط المنظم أكثر أو مثل هذه الثورات. المقومات الأساسية لليسار الثوري التي حددناها في الفصول السابقة كانت واضحة جلية في اليسار الشيوعي الذي قاد إلى نجاح هذه الثورات، وبالتالي فإن هذا النجاح يدل على صحة تلك المقومات[1]. المراجعة التالية

(1) هذا النجاح يعود، فيما يعود إليه وخصوصاً توفر وضعية ثورية، إلى توفر نظرية اجتماعية تاريخية ديناميكية جامعة استطاع هذا اليسار الشيوعي بالاعتماد عليها أن يفرز هذه الممارسة الإستراتيجية التكتيكية الفعالة. قد يسرع البعض إلى القول ولكن هذه النظرية (الماركسية) لم تستطع التنبؤ بالتحولات التاريخية والاتجاهات المستقبلية، أن هذه التحولات والاتجاهات فاجأتها، فكيف يمكن لها إذن أن تكون سبباً لهذا النجاح، أو كيف يمكن إذن الرجوع إليها في تخطيط استراتيجي ـ تكتيكي صحيح؟.. معالجة هذه الناحية تخرج طبعاً عن نطاق دراسة كهذه الدراسة. ولكن من الممكن القول هنا، في مجاراة هذا النقد، إن فاعلية النظرية في سيادة الواقع لا ترجع إلى صحة مطلقة أو جامعة بل إلى صحة نسبية، إلى درجة السيطرة النسبية التي يمكن لهذه النظرية أن تفرزها حول الواقع المتحول. بما أن هذا الواقع معقد ومتشعب ومتناقض الجوانب فإن صحة النظرية النسبية تستطيع دائماً أن توفر أساساً لممارسة ثورية فعالة، عن طريق التفاعل مع بعض الجوانب والتناقضات، ثم إن النظرية في تحولها عند الممارسة إلى إيديولوجية، ترتبط بنجاحها أولاً على قرابتها من المشاعر والمصالح والقوى الجديدة الصاعدة التي تكشف عن الوضعية الثورية.

السريعة لممارسات هذا اليسار في بعض أشكاله وتجاربه كافية في إيضاح ذلك. لهذا يجب على كل يسار ثوري الإفادة من هذه التجربة في تحديد وتشكيل ممارساته الثورية.

مقومات هذه الممارسة الثورية الناجحة كانت واضحة في كتابات ماركس وأنجلز وممارساتهما. فالفكر العلمي يجب، تبعاً لهما، أن يقود إلى نتائج عملية، ولهذا يجب الانتباه الدائم إلى النتائج التي تترتب على إحدى النظريات لأنها تكشف عن تركيبها العلمي. فالفكر أو الفلسفة يجب أن تقود إلى نتائج تطبيقية، وهي لا تترجم فقط العالم الذي نعيش فيه بل تستطيع ويجب أن تصنع أكثر من ذلك، أي تغيير العالم. فالفلاسفة، كما كتب ماركس، ترجموا العالم بطرق مختلفة، ولكن المشكلة هي تغييره. إن اهتمام ماركس وأنجلز كان مركزاً على النتائج، ولهذا لم يهتما بالنوايا أو بواعث العمل.

إن قسماً كبيراً من إنتاج ماركس، ومن ثم لينين، كان يدور حول مشاحنات سياسية، تعليقات وتحاليل انتقادية لبرامج سياسية مختلفة، مما يعني اعترافهما الواضح بأهمية العمل أو العامل السياسي الكبرى، هذا إن لم نقل اعترافهما بأن العمل السياسي يمثل الجواب على المشكلة التاريخية. إنهما «وجدا، في الواقع، أن العداء لهذا العامل أو سوء استخدامه هو أكثر أهمية أخلاقية من أي تدبير مثالي في صعيد التعليم، التكنولوجيا، الأخلاقية الفردية أو التخطيط الاجتماعي»[1]. بما أن ماركس طالب بأن تدلل أفكاره على قيمتها وصحتها عن طريق الممارسة، فإنه كان دائماً يجد أنه يجابه هوة بين المقاصد والإنجازات. لهذا رأى عدد من المفكرين أن الماركسية تتميز، بنوع من اللاحتمية[2] (indeterminancy) وأن التوكيد على العمل السياسي يعبر عنها أو يشكل امتداداً لها.

ماركس واجه، كجميع الماركسيين الذين جاؤوا بعده، مشكلة تعاون الشيوعيين مع الأحزاب التقدمية الأخرى، أو السؤال التالي: إلى أي حد يجب أو يمكن

---

(1) VENABLE, VERNON: Human Nature, The Marxian Vieu Meridian Books 1966-p: 166.

(2) Harrington, M: op. cit P: 26.

للشيوعيين، قادة البروليتاريا المنظمين وذوي الاتجاه العلمي، أن يتعاونوا مع الجماعات التقدمية الأخرى؟ جوابه كان، كجواب من جاء بعده، إلى الحد الضروري في خدمة الثورة البروليتارية. التعاون مع جماعة أخرى مسموح به إن كان يؤدي إلى إضعاف البورجوازية.

ماركس وأنجلز وجدا، مثلاً، أن أحد أسباب عجز اليسار الأميركي يشتق من عمل هذا اليسار نفسه، من التزمت الذي كان يميز الماركسيين، وهو تزمت قاد ماركس بأن يشكو إلى كارل كوتسكي بأن «الاشتراكيين الأميركيين يتميزون بالتزمت وبنزوات غريبة، كما قاد أنجلز بأن يناشد الاشتراكيين الألمان الأميركيين بأن يتناسوا اختلافاتهم ويحولوا جهدهم إلى كسب الأصوات.

موقف ماركس وأنجلز، وخصوصاً كما عبرا عنه في رسائلهما إلى أتباعهما من الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة[1]، كان يعتبر أن الشيء المهم لم يكن إعداد برامج وتشريعات مثالية ومن ثم تجميع جماعة كبيرة أو صغيرة حولها تقبل بها حتى آخر تفصيل فيها. على العكس، الشيء الذي يجب صنعه هو تجميع أكبر أعداد ممكنة، ونهائياً الطبقة العاملة كلها في تنظيمات كبيرة، حتى وإن كان ذلك حول أكثر البرامج تبعثراً وأقلها كمالاً. فالتجربة في العمل تعمق من وحدتهم وإدراكهم، تعلمهم وتصحح النقص، وتفيدهم من جوانب الضعف في البرنامج. إننا نرى ماركس مرة بعد أخرى، وأنجلز بشكل متكرر أكثر، يحذر الألمان الأميركيين الماركسيين بأن لا يحولوا الماركسية إلى شعار يمكن أن يفصلهم عن التيار الأساسي السائد في حركة العمل الأميركية. فسواء كان الأمر يتعلق بـ«فرسان العمل»، أو «اتحاد العمل الأميركي» أو أي حزب ثالث آخر يمكن له أن يتطور إلى حزب عمالي، فإن ماركس وأنجلز كانا يحثان المهاجرين الماركسيين بأن ينضموا إليه، أن يعملوا من داخله، وأن يكسبوا ثقته، وأن يساعدوه في الإفادة من تجاربه ـ الطريقة الوحيدة التي يمكن فيها لطبقة كاملة أن تتعلم.

في سبيل التمثيل على هذا النوع من الرسائل نرجع هنا فقط إلى رسالتين كتبهما

(1) K.Marx and F. Engels: Letters To Americans 1848-1895, New York, 1953.

أنجلز، واحدة في 29 نوفمبر 1886، إلى شخص يدعى سورج، وأخرى، في 29 ديسمبر 1886، إلى إمرأة تدعى فلورنس كيلي. إنه يكتب في الأولى:

«الألمان لا يعرفون كيف يستخدمون نظريتهم كرافعة يمكن لها أن تدفع الأميركيين إلى الحركة، وهم في معظمهم لا يدركون هذه النظرية، ويمارسونها بشكل مذهبي متزمت، كشيء يجب على الفرد أن يتعلمه حرفياً، وبذلك تكون كافية لجميع المتطلبات التي يواجهها... إن الخطوة الأولى المهمة لكل بلد دخل حديثاً إلى الحركة الاشتراكية هي دائماً تجميع العمال كحزب سياسي مستقل، وبأي شكل كان طالما أن ذلك يؤدي إلى حزب عمالي خاص. إما أن يكون البرنامج الأول لهذا الحزب مشوشاً وكثير الخلل، أو أن يكون قد رفع رأية هنري جورج، فهذه مساوىء لا يمكن تجنبها، وهي انتقالية. فالجماهير يجب أن تجد الوقت والفرصة الكافية للتطور وهي تستطيع أن توفق إلى هذه الفرصة عندما يكون لها حركة خاصة بها... تتمكن فيها أن تتعلم من أخطائها».

وفي الثانية، يكتب:

«من الأهم أكثر بكثير أن تنتشر الحركة، تتقدم بانسجام، تعمق جذورها، وتمتد بأكبر درجة ممكنة إلى البروليتاريا الأميركية ككل، على أن تبدأ وتتقدم على قواعد نظرية كاملة الصحة. الشيء الكبير هو جعل الطبقة العاملة تتحرك كطبقة... لهذا أرى أن «فرسان العمل» يشكلون عنصراً كبير الأهمية... يجب أن لا نسخر منه من الخارج بل أن نثوره من الداخل، وإنني أعتبر أن الألمان هناك ارتكبواخطأ جسيماً عندما حاولوا، في وجه حركة جبارة ومجيدة لم تكن من صنعهم، أن يجعلوا من نظريتهم المستوردة، التي لم يكونوا دائماً يفهمونها، نوعاً من المذهبية التي لا يمكن للخلاص أن يتحقق إلا منها وحدها فقط، ويقفون بالتالي بمعزل عن أية حركة لم تقبل هذه المذهبية... إن مليوناً أو اثنين من الأصوات لحزب عمالي صادق هي حالياً أحسن بشكل مطلق من مائة ألف صوت لبرنامج نظري كامل... يمكن أن يؤخر أو يمنع الدمج القومي. (من الجورجيين، وفرسان العمل، ونقابات العمال الخ...) لحزب العمال ـ بصرف النظر عن البرنامج ـ أعتبره خطأ».

إننا نجد أيضاً في كتاباتهما ما يمكن تسميته بتكتيك «الصبر الثوري»، أي دعم حركة سياسية أو ثورية حتى عندما تكون إيديولوجيتها واستراتيجيتها تتعارضان بصراحة مع الماركسية، إن كانت هذه الحركة فعالة في تمزيق أو نشر الفوضى في التركيب السياسي التقليدي في بلد معين. في 27 يناير، عام 1887، كتب أنجلز حول الجريدة التي أصدرها مع ماركس في الراينلاند عام 1848 وكان أسمها «أداة الديمقراطية» بأن «البيان الشيوعي» لم يجد أي صدى في ألمانيا، ولهذا «دخلنا الحزب الديمقراطي كالوسيلة الوحيدة في الوصول إلى الطبقة العاملة».

إن ماركس وأنجلز نظرا بإعجاب إلى صراع الشعبيين» (Populists) الروس ضد القيصرية، على الرغم من أن الإيديولوجية ووسائل الصراع التي كانوا يستخدمونها كانت خاطئة «وقديمة العهد» في ضوء الماركسية. انفتاح مؤسسي الماركسية امتد، في الواقع، إلى درجة كانا لا يشجعان فيها فكرة تشكيل حزب ماركسي خاص في روسيا، وذلك بسبب اعتقادهما بأن ذلك يسيء بما يخلقه من منافسة. في المعسكر الثوري، إلى إمكانات إضعاف الثقة في الأوتوقراطية الروسية أو إسقاطها[1].

في عام 1847 ـ 1848 كان ماركس يدعو باستمرار إلى جبهات موحدة مع البورجوازية الليبرالية في معركة الديمقراطية. في الخمسينات كان منعزلاً عن الحركات الشعبية لأنه كان ينشغل في إعداد كتابه الرئيسي «الرأسمال». ولكن في مرحلة الأممية الأولى، بين عام 1864 وعام 1872 كان مساهماً نشيطاً في كفاح طبقة العمال، وكان يشتق قوته من تحالفه مع نقابات العمال البريطانية التي كانت إصلاحية تماماً وليس ثورية، ومع أتباع برودون الفرنسيين الذين كان يحتقر نظرياتهم.

الماركسيون لم يلعبوا أي دور تقريباً في الكومونة الباريسية، ولكن دفاع ماركس عن هذه الثورة أفقده الكثير من دعم العمال في بريطانيا. إن ماركس كان مسؤولاً أكثر من أي إنسان آخر عن إقامة مكان مقدس للكومونة في الهيكل الاشتراكي، ولكنه عند تقييم أعمالها كتب «ولكن بقدر يسير من الإدراك العادي كان باستطاعتها أن تصل إلى تسوية مع فرساي، مفيدة لمجموع الشعب ـ الشيء الوحيد الذي كان يمكن تحقيقه في

(1) ULAM, ADAM,: Ideologies And Illusions, Harvard University Press, 1976, P:196.

ذلك الوقت». ولكن الكومونة فضلت سياسة تعكس البطولة رغم ما كانت تعنيه من تدمير ذاتي على تلك التسوية التي كان يفرضها إدراك موضوعي لحركة ووزن القوى والتناقضات التي كان الوضع يكشف عنها.

في عام 1870 بعد هزيمة فرنسا كان ماركس وأنجلز ضد قيام العمال بأية ثورة، حتى وإن كانت ثورة جمهورية، لأن الأوضاع غير مناسبة، ولأن ثورة من هذا النوع قد ترجع «بالعمل عشرين سنة إلى الوراء». فقبل عقد السلم لا يستطيع العمال صنع شيء مهما كانت الظروف، وبعد السلم، فإن حاجاتهم الأولى تبقى الوقت الذي يجب أن يتوفر لهم لتنظيم قواهم، ولكن ماركس وأنجلز غيراموقفهما فيما بعد فدعما وساندا الكومونة كمنعطف كبير. في مرحلة متأخرة رجعا فغيرا رأيهما ولم يريا فيها عملاً اشتراكياً صحيحاً.

في «الحرب الأهلية في فرنسا» وهو الكتاب الذي أعده ماركس حول الكومونة الباريسية. يكتب «إن طبقة العمال لم تنتظر أعاجيب من الكومونة. إنها لم تكن تملك «طوبا» جاهزة يمكن تقديمها عن طريق قرار يتخذه الشعب. العمال كانوا يعرفون، أنهم كي يحققوا تحريرهم وما ينطوي عليه من أشكال عليا يتجه إليها مجتمعنا الحاضر بطريقة لا تقاوم... يجب عليهم أن يمروا عبر صراعات طويلة، ومجموعة من العمليات (Processes) التاريخية التي تحول الأوضاع والأفراد. إنهم لا يملكون مثلاً يحققونها، بل يريدون تحرير عناصر المجتمع الجديد، العناصر الحامل بها المجتمع البورجوازي المنهار».

قليلة هي الفقرات أو المقاطع التي تؤكد، في كتابات ماركس، أكثر من هذه الفقرة الأولوية التي يعطيها ماركس للصراع ضد المجتمع القديم، للنضال في سبيل تحرير العناصر الجديدة فيه. فهذا النضال هو القضية الأساسية وليس الانشغال بتخطيط معين للمستقبل. فالعمال لا يملكون مُثلاً يريدون تنفيذها، لا ينتظرون الأعاجيب، لا يحملون وصفة طوباوية لعلل المجتمع القائم وأمراضه، ويعلمون أن عليهم المرور بصراعات طويلة في دعم الأشكال الجديدة التي تنمو من داخل المجتمع القديم.

في عام 1848 كتب اشتراكي ألماني، اسمه غوتشالك، بأن الماركسيين غير

صادقين في مناداتهم بخلاص المظلومين لأنهم يرون في بؤس العمال وجوع الفقراء فائدة عملية مذهبية فقط.

هذا لم يكن صحيحاً طبعاً، لأن النمهج الماركسي كان ينظر إلى حالة الفقر والبؤس السائدة بين العمال والفقراء من ناحية ديالكتيكية، أي كحالة تنطوي على احتمالات ثورية ستتفجر كثورة خلاص نهائي عند ازدياد حدتها.

هذا ما كان في ذهن أنجلز مثلاً عندما رأى عام 1847 أنه من الضروري الترحيب بآفة البطاطا الزراعية التي حملت الجوع لملايين الناس، وذلك لأنها تهز قواعد النظام القائم، أو عندما عارض تقريباً التشريع الذي خفض ساعات العمل اليومية إلى عشر ساعات.

إن ماركس دعم هذا التشريع، ولكنه من ناحية أخرى فضل استثمار الأطفال وذلك كي يتحولوا إلى ثوريين. لهذا كتب بأن المنع العام لعمل الأطفال لا ينسجم مع الصناعة الكبيرة، ولهذا فهو رغبة فارغة وزائفة. تحقيق هذا ـ إن كان ممكناً ـ يجب أن يكون عملاً رجعياً[1].

ماركس رأى في الاستعمار البريطاني قوة تقدمية في الهند وغيرها من بلدان آسيا لأنه يمزق التقاليد التي تجمد حركة المجتمع وتهيّئ للثورة الاجتماعية. ولكنه من ناحية أخرى نبه بشدة إلى شراسة وقسوة الاستعمار واللا إنسانية التي تميزه.

في مقالات مشهورة حول الهند، كتبها ماركس بعد أن أعطى الرأسمالية أو الاستعمار هذا الدور الإيجابي في تطوير البلدان «المتخلفة»، نراه يدين هذا الاستعمار بشدة على أساس إنساني، ولهذا أخذ كثيرون يعتبرون الماركسية منذ ذلك الحين كنظرية تقاوم النظام الاستعماري في ذاته.

ماركس وأنجلز هاجما نظام الرق على أساس إنساني، ولكنهما رأيا، رغم ذلك، أنه يمثل خطوة تقدمية على الأنظمة السابقة وذلك لأنه يجعل من الممكن تراكم فائض، وهو فائض كان يمكن استخدامه في التقدم نحو طور أعلى.

---

(1) K. Marx, Critique of The Gottra Program, in Marx and Engles; Selected Works, Moscou 1955, P:36.

إن أنجلز كتب في «صند ـ دوهرينغ»، «دون الرق لما كان هناك دولة يونانية، فن وعلم يوناني، دون الرق لما كانت هناك امبراطورية رومانية. . . أوروبا حديثة. . اشتراكية حديثة».

إن ماركس كرس كل جهده لمحاربة رق ـ الإجرة (Wage - slavery)، ولكنه ميز بين هذا الرق الجديد وبين الرق القديم أو المحض. ليس هناك من أكد أكثر منه على أن إلغاء هذا الأخير واستبداله بالرق الجديد كان خطوة ضرورية ومهمة جداً في الطريق إلى تحريرَ المظلومين تحريراً نهائياً. لهذا كان من الخطأ الفادح القول، كما يصنع بعض أشكال الماركسية المبتذلة، بأن ماركس لم ير فرقاً بين الاثنين. ولكن إن هو ميز الرق الجديد كخطوة «تقدمية» ضرورية ومهمة، فليس لأنه رأى فيها ذاتها، شيئاً تقدمياً أو كريماً من ناحية إنسانية، بل لأن المقارنة بينها وبين الطور السابق هي التي تعطيها هذه القيمة النسبية.

ماركس وأنجلز كانا يريان، في الواقع، أن الطريقة الأسرع التي يستطيع بها بلد متخلف التطور والتقدم هي الوقوع تحت سيادة بلد متقدم. فعندما كان هناك، مثلاً، بلدان متقدمان يتنافسان حول سيادة بلد متخلف، كان ماركس وأنجلز يفضلان البلد الأكثر تقدماً، لهذا نراهما مثلاً يؤيدان اعتداء الولايات المتحدة على المكسيك عام 1837، لأنه إن كان من المتوقع وقوع المكسيك في قبضة بلد متقدم، فمن الأفضل من جميع الوجوه بأن تكون الولايات المتحدة هذا البلد بدلاً من انكلترا وذلك لأنها أكثر تقدماً. فقد كان من الواضح، في أي حال، أن «الحيوية» التي تميز سكان الولايات المتحدة تستطيع تطوير كاليفورنيا أحسن وأسرع مما يستطيعه المكسيكيون «الكسالى».

حتى روسيا القيصرية كانت قادرة بأن تمارس دوراً حضارياً في الشرق، إن أنجلز دافع عن عمليات القيصر العسكرية في آسيا الوسطى بالعبارات التالية «إن روسيا. . . هي بالحقيقة تقدمية بالنسبة إلى الشرق. فعلى الرغم من خستها وقذارتها السلافية، فإن السيادة الروسية تشكل عنصراً تحضيرياً في البحر الأسود، آسيا الوسطى، وبين الباشكير والتتر، الخ. .

أنجلز كتب، حول الغزو الفرنسي للجزائر، «. . إن الاستيلاء على الجزائر يشكل واقعة مهمة وسعيدة في تقدم الحضارة».

في عام 1862، استشهد ماركس بقول مازيني نفسه الذي قال إن الجندي الإنكليزي كان يبدو كنصف إله أثناء العصيان الهندي.

أدوار بيرنشتين، الذي كان يتمتع بثقة أنجلز وكان أحد الأوصياء الأدبيين له (Literary excutors) كتب عام 1896 مقالاً دافع فيه عن الاستعمار. في هذا المقال نقرأ أنه «من الرومانطيقية دعم المتوحشين والبرابرة الذين يقاومون امتداد الحضارة الرأسمالية إليهم». وبأن الحضارات «العليا» تتميز «بحقوق» أعلى من حقوق الحضارات السفلى[1].

في امتداح أو توكيد دور الاستعمار البريطاني التقدمي كتب ماركس، «صحيح أن أنكلترا كانت، في أحداث ثورة اجتماعية في الهند، تنقاد لأخس المصالح، وكانت حمقاء في فرضها. ولكن المسألة هي من نوع آخر. إنها: هل تستطيع الإنسانية أن تحقق قدرها دون ثورة أساسية في وضع آسيا الاجتماعي؟.. إن كان الجواب «لا» فمهما كانت جرائم بريطانيا، فإنها كانت أداة التاريخ اللا واعية في خلق هذه الثورة.

البريطانيون كانوا أول فاتحين متفوقين على الحضارة الهندوسية... إنهم هدموا هذه الحضارة بتدمير الوحدات الاجتماعية والصناعية المحلية، وبتسطيح ما كان كبيراً ورفيعاً في المجتمع المحلي. الصفحات التاريخية لسيطرتهم في الهند لا تنقل إلا نادراً أي شيء يتجاوز هذا التدمير. إن عمل الإحياء لا يرشح عادة عبر كومة من الركام ولكنه على كل حال بدأ»[2].

لم يمتدح أحد البورجوازية أكثر أو كما امتدحها ماركس، البورجوازية «التي لا تستطيع أن توجد دون تثوير مستمر لقوى الإنتاج»، والتي تقوم بدور المربية للبروليتاريا رغم انتقالها من أزمة إلى أخرى إلى أن تبلغ نهايتها، إن البورجوازية، في تحسينها السريع لأدوات الإنتاج ووسائل المواصلات جذبت جميع الأمم حتى أكثرها بربرية

---

(1) ذكرها, Press, 19731 DAVIS. H, Nationalism and Socialism Monthly Revien pp61-62, 64, 67, 95.

(2) Capital, Vol, Chap. XIV.

هنا تجدر الإشارة أن ماركس أخطأ في تقديره للدور التدميري السريع والدور الإحيائي، فالحياة الاجتماعية المحلية لا تزال تعرب من الآن في جمودها التقليدي الذي كان في ذهن ماركس.

إلى الحضارة. الأسعار الرخيصة لمنتوجاتها هي المدفعية التي تدمر فيها جميع الأسوار الصينية. إنها تفرض على جميع الأمم، خوفاً من الزوال، بأن تتبنى طريقتها في الإنتاج، وبأن تدخل الحضارة وتصبح متحضرة. إنها بكلمة، تخلق عالماً على صورتها. البورجوازية أخضعت الأرياف لسلطة المدن، خلقت مدناً هائلة، زادت كثيراً حجم السكان المدنيين بالنسبة إلى القرويين، وبذلك حررت قسماً كبيراً من الناس من حماقة الحياة الريفية. إنها كما جعلت الريف يعتمد على المدن، جعلت أيضاً البلدان البربرية والنصف بربرية تعتمد على البلدان الحضارية، والأمم الزراعية على الأمم التي تتشكل منها. البورجوازية خلقت، في سيطرتها التي لا تتجاوز المائة عام، قوى إنتاجية أكثر حجماً وضخامة مما حدث في جميع الأطوار السابقة، كانت تعني إخضاع قوى الطبيعة للإنسان، الآلة، تطبيق الكيمياء في الصناعة والزراعة، الملاحة البخارية، الطرق الحديدية، التلغراف الكهربائي، إصلاح قارات بكاملها للزراعة، تحويل الأنهار في شبكات من الأقنية، شعوب كاملة جديدة ـ أي قرن سابق كان يستطيع حتى أن يشعر بأن قوى إنتاج من هذا النوع كانت كامنة في العمل الاجتماعي.

البورجوازية لعبت إذن دوراً كبيراً جداً على مسرح التاريخ. فحيث استلمت السلطة دمرت جميع العلاقات الإقطاعية، والأبوية (Patriarchal)، والريفية أو الهادئة Idyllic). إن علاقات الملكية والرأسمالية سمحت بتراكم سريع للرأسمال وبإقامة أساس صناعي، وذلك على نقيض الطبقات الحاكمة في النظام الإقطاعي الذي كان يستهلك جميع الفائض، وبالتالي يُبقي على الركود الاقتصادي الاجتماعي.

إن ماركس لم يجد أن الاستثمار الرأسمالي شر كلي لأنه كان ضرورياً لتطور النظام الرأسمالي وهو تطور كان، في دوره ضرورياً لولادة المجتمع الاشتراكي. العلاقات البورجوازية الرأسمالية تصبح رجعية وتمارس أثراً سلبياً خانقاً لإمكانات التطور والتقدم في طورها الناضج المتقدم إلى درجة تؤدي إلى إفراط في الإنتاج، والبطالة والأزمات الاقتصادية.

البورجوازية كانت تشكل قوة تقدمية، وماركس رأى بأنها تستمر كقوة تقدمية في البلدان المتخلفة حتى بعد انتصار الثورة الاشتراكية في أوروبا. كما أنها تقوم بالدور

نفسه في بلدان لا تزال تقاوم فيها، كما كان في بعض البلدان الأوروبية، الردة الإقطاعية. في أوضاع كهذه يجب على العمال مساعدة البورجوازية.

إن لينين الذي وسع هذا الجانب في النظرية الماركسية كتب إننا مع كل بورجوازية أمة مستعبدة تناضل ضد أمة مستعبدة وبالقدر الذي تناضل فيه ضد هذه الأخيرة. فنحن دائماً، في كل حالة وبشكل حاسم أكثر من أية جهة أخرى، مع هذه البورجوازية لأننا أكثر أعداء الاستعباد صلابة وصموداً. . . القومية البورجوازية تتميز في كل أمة مستعبدة بمضمون ديمقراطي عام يتجه ضد الاستعباد، ونحن نعطي هذا المضمون دعمنا المطلق. في «أمانته» للمفهوم القائل بأن جميع الأمم ستتبع الطريق نفسها، رأى لينين أن الأمم الأسيوية هي في المرحلة التي تكون فيها البورجوازية طبقة تقدمية، والتي يمكن بالتالي للبروليتاريا أن تتحالف معها[1]. عندما تكون البورجوازية طبقة تقدمية أي طبقة تخلق الأمة، تحطم الإقطاعية، تقاتل الأمبريالية، أو تحاول التخلص منها، دعا لينين بوضوح إلى دعمها من قبل العمال في الداخل، ومن طبقات العمال في الخارج.

ولكن عندما يدخل العمال في تحالف مع البورجوازية التقدمية، فالقصد هو، من ناحية أخرى، قيادة البورجوازية.

لينين وضع هذا الجزء من نظريته موضع التنفيذ عندما عاد إلى روسيا عام 1917. وتاريخ العالم تغير بعد ذلك. السير وراء البورجوازية يشكل ظاهرة من ظواهر ما أسماه لينين «التذيل» (Tailism) الذي أدانه باستمرار. إن لينين لم يفسر ملاحظات ماركس العابرة حول «الطبقة القومية» بأنها تعني أن حزب العمال يجب أن يتنازل عن استقلاله أو مبادرته.

المبدأ الأساسي الذي كان ماركس ينطلق منه كان دائماً المبدأ الأممي، ولكنه كان باستمرار يدافع عن مصالح أمم معينة ضد أمم أخرى، كما نجد في دفاعه عن مصالح بولندا ضد روسيا، وإسبانيا ضد فرنسا، وفرنسا ضد إلمانيا، والشمال ضد الجنوب في الحرب الأهلية الأميركية. في 20 يونيو، عام 1866، كتب ماركس إلى

(1) Davis, H,: op. cit. P193, 195-196.

أنجلز يصف اجتماعاً عاصفاً في المجلس العام للأممية الأولى، ويعبر في رسالته عن احتقاره للاشتراكيين الفرنسيين الذين أثاروا نقمته بشكل خاص بفكرتهم القائلة بأن «الأمم والقومية» أصبحت «تزمتاً عتيقاً».

إن ماركس دعم بحرارة الحركة القومية البولندية، رغم انطلاقه من المبدأ الأممي، وعلى الرغم من أن هذه القومية كانت آنذاك تجد جذروها وقواعدها آنذاك في الطبقات العليا والوسطى، وعلى الرغم من أن البروليتاريا البولندية كانت غير موجودةً تقريباً. لأن تلك الحركة كانت حركة تمرد وعصيان ضد الدول الثلاث ـ بروسيا، النمسا وخصوصاً روسيا ـ التي كانت تشكل في تلك المرحلة قاعدة الرجعية الأوروبية، والحاجز الذي يقف ضد تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي تتجه نحو الاشتراكية وتقود نهائياً إليها في كل مكان من القارة. لهذا رأى ماركس أن الوعي الثوري يفرض التحالف بين الاشتراكيين والطبقات الإقطاعية والوسطى البولندية أو دعم الأولين للثانية في نضالها لأجل تحرير بولندا. لهذا إن مبدأ تأييد حروب التحرير القومية لم يكن من مخترعات خروشوف، بل كان مبدأ قديماً يعود إلى ماركس، وإلى لينين من بعده.

* * *

في الفصول السابقة التي حاولنا فيها تحديد اليسار الثوري تحديداً عاماً جامعاً شرحنا، فيما شرحناه، أن اليسار الثوري الذي يستطيع أن يسود التاريخ ويصنعه من جديد في نظام ثوري جديد يدرك أن كل ظاهرة تنطوي على نواح سلبية وإيجابية متشابكة ويعرف كيف يساند الثانية في ممارسة الثورية، يدرك أن الثورة تشق طريقها عبر مراحل مترابطة تقدم كل منها للمرحلة التي تليها وتنتج عن التي تتقدمها مباشرة فيتمكن من العمل مع كل مرحلة في ضوء مقوماتها واتجاهاتها وقواها النامية، يدرك أن جوانب الخير متشابكة بجوانب الشر فيعمل على تغليب الأولى على الثانية مرحلة مرحلة، يدرك أن الممارسة الثورية تعني عملاً عبر تناقضات الواقع المتحول فلا يخاف من التسويات الموقتة بل يقدم عليها ويعرف كيف يواجهها نحو مرحلة جديدة، يدرك أن الممارسة الثورية الناجحة تعني وسائل معينة ملائمة، مباشرة أو غير مباشرة، لمقاصده الثورية فلا يتردد باستخدام ما يتوفر فيها وإن كان ينفر منها من حيث المبدأ،

يدرك أن كل وضع يتميز باحتمالات تدفع التاريخ إلى صعيد أعلى وأخرى تعجز عن ذلك أو تناقضه فيعمل واعيا على تغذية الأولى ودفعها، ولكن دون أن ينسى أبداً علاقتها بمقاصده العليا أو الرجوع إلى هذه المقاصد كقياس نهائي يقيسها به الخ. . اليسار الثوري هو، بكلمة أخرى، يسار لا يترك هذه الجوانب المتعددة، المتناقضة، المتفاعلة ديالكتيكياً أن تطغى عليه فتغرقه، فيضيع فيها وبينها، بل يتميز بوعي ثوري ديالكتيكي موضوعي فعال يعرف كيف يناورها، ويضبطها، ويتركز على بعضها، من زاوية الإيديولوجيا أو السياسة التي ينطلق منها، ويحفز سيرها نحو تصوره الثوري وفي خدمته.

الملاحظات السابقة العابرة حول بعض المواقف التي كان ماركس وأنجلز يتخذها من حيث الممارسة، تكشف بوضوح عن علاقة هذه الممارسة بهذه المقومات التي حددنا بها اليسار الثوري والممارسة التي يكشف عنها. من ناحية أخرى، إن كتابات ماركس وأنجلز التي كانت ترتبط بها هذه الممارسة تدل هي الأخرى على علاقة واضحة بينها وبين هذه المقومات.

القوانين الماركسية نفسها هي في الواقع قوانين نسبية ترتبط بمرحلة تاريخية معينة. إن ماركس يكتب مثلاً، في مقدمة الجزء الأول من كتاب «الرأسمال»، بأن «كل مرحلة تاريخية تتميز بقوانين خاصة بها. . . وعندما يتجاوز المجتمع مرحلة نمو معينة فيمر من طور إلى آخر، يبدأ بالخضوع إلى قوانين أخرى». لهذا فإن المفهوم الماركسي القائل بأن علاقات الإنتاج المادي تحدد أو تميل إلى تحديد هوية الظواهر الاجتماعية الأخرى، لا يمثل ـ كما اعترف ماركس ونبه إلى ذلك ـ قانوناً عاماً مطلقاً بصرف النظر عن الزمان و المكان، بل هو مفهوم تاريخي وثقافي محدود، ومسألة صحته في وضع اجتماعي تاريخي معين هي مسألة تجريبية تخضع للبحث الموضوعي. فالماركسية ليست كما صنعها كارل كوتسكي وآخرون مجموعة من القوانين الاقتصادية التي تتخذ نظاماً (System) نهائياً، بل هي دليل للعمل، وهذا ما أدركه لينين، أو هي قبل كل شيء منهج كما أكد ذلك لوكاش.

لهذا كتب المفكر الماركسي كولاكوسكي، «إن متطلبات التفكير العلمي الذي

يشمل القواعد الأساسية للمنهج الذي أقامه ماركس. . . يجب أن تكون ذات طبيعة عامة جداً، وهي لا تنطوي على أية تعليمات محددة عن كيفية تقييم ظاهرة تاريخية أو أخرى، ثم إنها، بالإضافة إلى ذلك ـ تسمح دائماً بعدة تفاسير ممكنة: إن قاعدة المادية التاريخية نفسها لا تحدد أنموذج، درجة وحدة التأثير الذي يمارسه مجموع أوضاع الحياة المادية على تفكير الشعب الاجتماعي في جميع عصور التاريخ»[1].

المفهوم الماركسي يعني أن التناقض موجود في عملية (Process) تطور جميع الأشياء وتحوّلها، وأن هذه العملية هي في كل شيء حركة التناقضات من البداية إلى النهاية. المفكر الماركسي الذي يحلل ويدرس سلوك وعلاقات وأعمال الجماعات والطبقات الاجتماعية، ينطلق باستمرار من المفهوم القائل بأن الوضع أو التركيب الاجتماعي الذي يشكل موضوع بحثه ينتج عن التحول الاجتماعي وعن كون تحولات أخرى إضافية ستغيره من جديد. «فالناس يصنعون تاريخهم الخاص» كما كتب ماركس في «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت»، «ولكنهم لا يصنعونه كما يريدون، لا يصنعونه في أوضاع يختارونها بأنفسهم، ولكن في أوضاع موجودة، معطاة ومنقولة من الماضي. إن تقليد جميع الأجيال الميتة يرهق ككابوس مروع عقل الأحياء».

الماركسية هي بالتالي تحديد موضوعي دقيق للممكن انطلاقاً من التناقضات الحاضرة في كل فترة تاريخية. لهذا كتب واديك ـ روشبه، سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي السابق، في كتاب «من هو الثوري في فرنسا المعاصرة؟» بأنه «يجب التكرار أن شكل الثورة الاشتراكية لا يرتبط بصورة واحدة. الماركسي ـ اللينيني الذي يريد استحقاق هذا اللقب يجب أن يقيم عمله السياسي في تحليل حي للوضع القائم، فلا ينطلق من نتائج نشأت أو استخلصها من وضع آخر».

هذه المفاهيم، وأخرى عديدة مماثلة، في كتابات ماركس وأنجلز، قادت نظرية في المعرفة تقول بها الماركسية، وتؤكد على التطبيق «كقاعدة وقصد» لعملية المعرفة. فالمعرفة لا تنفصل عن الممارسة. وفي الممارسة يجب أن تدل على صحتها، هذا

(1) LOLAKAWSKI, LESZEK; Toward A Marxist Humanism, Essays on The Seft Today. Grove Press, 1969, P:183.

المفهوم يخلق عادة أو يقود إلى خلق وعي حاد لأهمية الممارسة العملية وقياسها بنجاحاتها، ولأهمية تكييف الأعمال والمقاصد، والمواقف السياسية من استراتيجية وتكتيكية في الوسط المتحول.

الماركسيون يلتقون بالاعتراف بهذا المفهوم وتأكيده. إن ماوتسي تونغ يكتب، مثلاً، «الماركسيون يقولون إن ممارسة الإنسان الاجتماعية وحدها تشكل قياس حقيقة معرفته للعالم الخارجي. ما يحدث فعلياً هو أن معرفة الإنسان تؤكد ذاتها فقط عندما يحقق النتائج المتوقعة في عملية الممارسة الاجتماعية. إن أراد رجل أن ينجح في عمله، أي أن يحقق النتائج المتوقعة، يجب عليه أن يجعل أفكاره مطابقة لقوانين العالم الموضوعي الخارجي. إن لم تكن مطابقة، فإنه يفشل في ممارسته. بعد أن يفشل، يأخذ دروسه، يصحح أفكاره ويجعلها مطابقة لقوانين العالم الخارجي، ويستطيع هكذا أن يحول الفشل إلى النجاح. هذا هو المعنى بالقول «إن الفشل هو أم النجاح». . . إن النظرية الديالكتيكية ـ المادية في المعرفة تضع الممارسة في مركز أولي، تقول إن المعرفة الإنسانية لا يمكن بأي شكل أن تنفصل عن الممارسة، وترفض جميع النظريات الخاطئة التي تنكر أهمية الممارسة أو تفصل بين المعرفة وبين الممارسة».

اللينينية والماوية أدركتا هذه المقومات التي يجب أن تميز كل يسار ثوري فعال، كشفتا عن قدرة فائقة في ممارستها والعمل بها، وبالتالي استطاعتا الاقتران بأعظم تجربتين ثوريتين في العصر الحديث.

بعد محاولة مكيافيللي في كتابه «الأمير» (1)، نجد أن المحاولة الأخرى الجديدة التي عالجت بشكل مبدع قضية الاستراتيجيا السياسية في الاستيلاء على السلطة، وهي محاولة لينين. إبداع لينين في هذا الشأن كان في قدرته على تحويل هذا الموضوع إلى «علم»، أو تحويل سياسة الاستيلاء على السلطة إلى تكنولوجيا سياسية أو إلى تكنيك (Technic) وإن كان من درجة أعلى، إذ عليه أن يلائم بين مستويات الواقع السياسي المختلفة ويكيف بينها. اللينينية تعني أن القرارات السياسية يجب أن تعبر عن

(1) Mao-Tse-Tung; op. cit. Vol. I. pp296-297.

استراتيجيا محكمة التخطيط، فتتشكل من وسائل عقلانية في خدمة قصد سياسي، أي من وسائل تستطيع تحقيق هذا القصد. رجل السياسة بالنسبة إلى لينين ليس مفكراً نظرياً، أو رئيس دولة في المعنى التقليدي، بل هو استراتيجي يتابع استراتيجيا معينة تستخدم وسائل عقلانية فعالة في اتجاه قصد ثوري نهائي. هذه الناحية هي التي تميز بشكل خاص اللينينية عن الشيوعية اليسارية المذهبية أو ما أسميناه باليسار التبشيري أو عن «الانتهازية» التي تتخذ قراراتها السياسية على أساس مقاصد، مثل، تجريدات، انطباعات أو استنتاجات آنية ونجاحات عابرة وموقتة[1].

العمل الذي يقف وراء نجاح اللينينية ـ والماوية أيضاً ـ فيما يتعلق بعلاقتها بالماركسية هو قدرتها على ربط الأخيرة بالواقع الموضوعي، تفسيرها وترجمتها بشكل يجعلها على صلة حية وفي تجاوب فعال مع القوى الأساسية التي يكشف عنها، أي قدرتها على تكييف الماركسية مع الأوضاع المحلية التاريخية وتحولاتها. الماركسية أكدت أهمية النظرية، ولينين عبر عن ذلك بقوله «دون نظرية ثورية ليس هناك من حركة ثورية». ولكنه أدرك أن الماركسية تؤكد هذه الأهمية لأن النظرية تقوم بدور الدليل للعمل، للممارسة، ولا يجب أن تتحول إلى مذهب متحجر. لهذا كان على كل نظرية ثورية صحيحة أن تدل على صحتها كدليل، أي في المنجزات والنجاحات التي تحققها. فمن دون منجزات ونجاحات تدل أن توقعات النظرية كانت واقعية وممكنة، قادرة على ضبط الواقع وقيادته، فإن النظرية تكون خاطئة يجب على الثوري تصحيحها أو الاستغناء عنها واستبدالها بنظرية أخرى. «إن لينين كان معروفاً بمرونته الشديدة في السياسة، وبقدرته على خلق حلول جديدة تتناسب مع الأوضاع المتغيرة». هذا الارتباط بالواقع الحسي كان يمثل بالنسبة له أهم سمة في الفكر الديالكتيكي.

هذا الارتباط المرن المنفتح بالواقع الموضوعي وحركته، دعا خصومه إلى اتهامه بالانحراف عن الماركسية عنصراً عنصراً، وبأنه حولها إلى حركة ثورية روسية غريبة عن التقليد الماركسي الغربي. هذه المماحكات الفكرية حول هذه الناحية، أي التي تميز بين ماركسية غربية علمية وبين لينينية تمثل ماركسية مشوهة، لا تزال، في

---

(1) Medreedere, R, op. cit. p104.

الواقع، مستمرة حتى الآن. أمام هذا النقد الذي كان يوجه إليه، كان لينين يردد مدافعاً عن مواقفه بأن الماركسية ليست مذهباً ثابتاً بل «دليل للعمل» وبأنه يجب اعتمادها كإطار في الأفكار والمفاهيم التي توجه هذا العمل وتضيء الطريق أمامه فقط.

إن لينين كان يشير بعناية إلى عبارة هيجل التي تقول بأن ما يعلمه التاريخ هو أن الأمم والحكومات لم تتعلم أي شيء من التاريخ، وإلى مفهومه الذي يرى أن جميع القوانين هي فقط محاولات تقريبية، وأن الحياة الحية تتجاوز كل القوانين.

الماركسية لم تكن، في نظر لينين، مذهباً جامداً حول طبيعة العالم الحديث، الاتجاهات المتأصلة فيه، أو التحولات التي يجب على جميع المجتمعات الخضوع لها، بل كانت مجموعة من المفاهيم التي تنطوي على أدوات تحليل معينة، منهج في رؤية العالم الحديث يعبر عن ذاته أساسياً في شكل أسئلة رئيسية تطرح في مواجهة أي وضع اجتماعي ـ تاريخي. إن لينين كان استراتيجياً مستعداً دائماً أن يزدري دوغمائية بعض رفاقه وأن يقول لهم إن الحياة أقوى من مجردات الفلاسفة ومنهم الفلاسفة الماركسيون.

لو أن لينين ارتبط بالمفهوم السائد آنذاك حول الماركسية كمجموعة من المبادئ، أو كسيستام (System) ثابتة، لما كان باستطاعته أن يقود ثورة شيوعية ناجحة في روسيا. إنه بدلاً من التقوقع في صيغة ماركسية جامدة استطاع أن يتطلع إلى الوضع في روسيا، يدرس إمكاناته الثورية بشكل موضوعي ويفيد من جميع الاتجاهات والقوى الموضوعية المستقلة التي كان يكشف عنها، والتي كشفت له، خصوصاً ابتداء من 1905 بعد هزيمة روسيا في حربها مع اليابان وما ترتب على ذلك من نتائج، بأن الثورة الشيوعية يمكن أن تحدث خارج المفهوم الماركسي الذي كان سائداً آنذاك بين الماركسيين والاشتراكيين. وفيما بعد، عندما لم تحدث الثورة الشيوعية التي كان يعلق عليها الآمال الكبيرة في الغرب، وخصوصاً في إلمانيا، تطلع إلى الشرق حيث رأى ولادة قوة ثورية جديدة توازي قوة البروليتاريا في المفهوم الماركسي التقليدي (Orthodoth) وهي ثورة المستعمرات ضد السيادة الغربية. لهذا حدّد ستالين مرة اللينينة بأنها «ماركسية عصر الامبريالية والثورة البروليتارية». البروليتاريا بقيت، كطبقة اجتماعية، أداة ديالكتيك التاريخ المختارة، ولكن إلى جانبها ظهرت قوة جديدة هي

«الأمم البروليتارية» التي تناضل ضد «الأمم الرأسمالية، والماركسية يجب أن تعتمد ثورة هذه الأمم البروليتارية.

إن نقطة الانطلاق في اللينينية ليست أوضاع طبقة العمال بل أوضاع المجتمع، أوضاع المرحلة التاريخية ككل. فهي تحاول أن تكشف في قلب هذا المجتمع أو المرحلة عن القوى الجديدة وأن توفر لها الوعي والتنظيم أياً كانت هذه القوى. في بحثه «حول حق الأمم في تقرير مصيرها» يكتب لينين، وكان ذلك في مناظرة ضد روزا لوكسمبورغ، «هناك مطلب مطلق تؤكده الماركسية بالنسبة إلى تحليل أية مشكلة اجتماعية وهو وضعها في إطارها التاريخي الخاص، ومن ثم إن كانت المشكلة تهم بلداً معيناً (كالبرنامج القومي لهذا البلد مثلاً) أن نأخذ بالاعتبار السمات الموضوعية الخاصة التي تميز هذا البلد عن البلدان الأخرى التي تكون في المرحلة نفسها». إن لينين كان يكتب باستمرار أن النظرية هي أساسياً دليل العمل فقط، ولهذا يجب أن لا نشوه الواجبات والمهام المعقدة التي تواجه الثورة بقسرها على الانسجام مع صورة ضيقة متزمتة عن النظرية. بين الفروق الأساسية التقليدية وبين اللينينية نجد أن المثالية تعرّف الوضعية الثورية ليس فقط في ضوء تحولات موضوعية في تركيب المجتمع الاقتصادي ـ الاجتماعي، بل أيضاً في ضوء أزمة قومية تضعف أو تدمر سلطة النظام القائم، وتنتج عادياً عن حرب خارجية.

لو أن لينين تسمّر، كغيره من الماركسيين آنذاك، في بعض الصيغ الماركسية التقليدية لما كانت هناك ثورة شيوعية في روسيا ـ على الأقل في ذلك الوقت، أو لينينية حولت الماركسية من نظرية إلى حقيقة حية وحركة تاريخية قوية كبيرة. إن ماركس، والماركسية من بعده، كانا حتى ذلك الوقت ظاهرة غربية، والاشتراكيون من الماركسيين وغير الماركسيين كانوا ينظرون إلى العالم الغربي كالمنطقة الوحيدة التي يمكن حدوث الاشتراكية فيها، وذلك بسبب الثورة الصناعية. أما فيما يتعلق بماركس، فإنه كان يرى أن الغرب هو الإطار الجغرافي للمادية الديالكتيكية. أما آسيا فكانت دون أهمية كبرى لأنها لم تعرف بعد هذه الثورة، وهي ثابتة لا تعرف التاريخ كحركة ديناميكية وستتبع الثورة الاشتراكية بشكل طبيعي وتلقائي عند حدوثها في الغرب. أما روسيا فكانت جباراً متخلفاً يجب على الغرب أن يحذر منه ويعمل على تدجينه.

إن لينين لم يغير فقط المحور الجغرافي للثورة، بل محورها الاجتماعي أيضاً. إن ماركس رأى أن الطبقة الثورية الحقيقية هي البروليتاريا التي كان عليها تنفيذ الثورة وتحقيق الاشتراكية. لهذا كان كتاب لينين حول الامبريالية على حق كما اتضح فيما بعد عندما اتجه إلى مصالح الفلاحين الطبقية على الرغم من أن الفلاحين كانوا في نظر الماركسية التقليدية جزءاً من البورجوازية الصغيرة وليس البروليتاريا وذلك مهما كانوا فقراء وشرط أن يملكوا أرضاً. ففي المستعمرات يجب على الماركسي الصحيح أن لا يشعر بأي ندم وتردد حتى في التحالف مع الطبقات الوسطى والعليا في الأمم المستعبدة. فمهما كانت أفكارهم الاجتماعية رجعية فإن مقاومتهم القومية للسيادة الغربية تجعلهم حلفاء طبيعيين.

لينين غير أيضاً محور الثوري فنقله من البروليتاريا إلى الحزب الثوري الذي تتثقف به البروليتاريا ويشكل طليعة الثورة.

في «الشيوعية اليسارية: اضطراب طفولي» أكد لينين أن من الضروري على الثوريين أن يعوا السمات الخاصة التي تميز الصراع في كل بلد وأن يمارسوا مبادىء الشيوعية الأساسية بشكل يسمح «بتغيير صحيح لهذه المبادىء في بعض نواحيها... بتكييفها كما ينبغي وبتطبيقها على الاختلافات القومية».

إن الكتاب كان في الواقع إعلان حرب على جميع الاتجاهات المتطرفة في الحزب، ينبه إلى خطأين أساسيين، رفض المشاركة في «برلمانات بورجوازية»، ورفض العمل في «اتحادات عمال رجعية». لينين كان، بكلمة أخرى، يطالب الشيوعيين بإجراء تسويات مع العدو في كل مناسبة ملائمة بغية إضعافه من الداخل، واستخدام ما يمكن من إمكانات في دفع الثورة. إنه طالب بتشكيل أحزاب موحدة وشديدة التنظيم، ولكن أحزاب تدخل العمل الانتخابي وتتسرب إلى نقابات العمال بدلاً من العمل على تدميرها.

إن لينين استخدم «المسألة القومية» في روسيا كوقود للثورة. تأثير الماركسية بين الفلاحين الأوكرانيين مثلاً، كان معدوماً. ولكن الميول الانفصالية فيها كانت تستطيع إضعاف النظام القيصري، أو البورجوازي الذي قد يخلفه، وبالتالي تسهيل نضال الماركسيين في موسكو وبطرسبرج. لهذا ناضل لينين ضد تحفظات بعض البولشفيك

الإيديولوجية الذين كانوا يرون في هذه الحركات الانفصالية ظاهرة رجعية وأن تشجيعها مثلاً بين التتر في مناطق الفولجا، وبين أتراك آسيا الوسطى كان يخدم أكثر العناصر الرجعية بينهم أي الفقهاء والأئمة الذين كانوا يستخدمون الشعور القومي بغية المحافظة على نفوذهم الديني. يجب على الشيوعيين، بكلمة أخرى، أن لا يتنكروا لأي حليف في نضالهم ضد النظام القيصري وأن لا يستثنوا من هذا النضال أي عنصر قومي أو اجتماعي يتذمر من الدولة الروسية.

إن لينين نبه إلى ضرورة «دراسة، والتحقق من، والتعبير عن الأوضاع القومية الخاصة، وما هو خاص من حيث الطريقة التي يحاول فيها كل بلد أن يحقق القصد العالمي الواحد، أي إسقاط النظام الرأسمالي وإقامة الاشتراكية»[1]. إن لينين رأى بواقعيته السياسية أن جاذبية القومية في القرن العشرين قد تفوق أو هي تفوق جاذبية المصلحة الطبقية، وأن الاشتراكية التي تناضل في سبيل النفوذ في مجتمع زراعي لا تستطيع تقديم دعوتها في عبارات ومفاهيم طبقية صرفة. إن اسم مدرسة الدعاية للشيوعيين الأسيويين في موسكو كان «جامعة سان ـ يان ـ سن»، كرمز لتحقيق التحالف مع الثورة القومية في المستعمرات.

عندما وقعت الحرب بين اليابان وروسيا عام 1904 ـ 1905 كانت الحركة الاشتراكية العالمية حركة سلمية تدعو إلى السلام وضد الحرب. ولكن ثلاثة ماركسيين كبار اتخذوا موقفاً إيجابياً منها ودعوا إلى نصرة اليابان وظفرها. إنهم كانوا هيندمان (بريطانيا)، بول جاد (فرنسا)، ولينين.

المنشفيك هاجموا الثلاثة بشدة في صفحات «إسكرا» واتهموهم أنهم غير أوفياء «للتراث الماركسي السلمي ضد الحرب»، ولقضية الشعوب الكادحة. الهدف الذي يجب أن يعمل له الماركسيون ليس مساندة جانب ضد آخر، أو الدعوة لانتصار أحد الطرفين، بل إيقاف الحرب دون أي نصر لأحد. إن «أسكرا» توجهت إلى لينين وذكرته بأن انتصاره لليابان هو انتصار لبلد تسوده الإقطاعية والبورجوازية. لينين أجاب بأن مؤسسي الاشتراكية العلمية لم يكونا سلميين بل اتخذا مواقف إيجابية في كل

(1) Woodis, T, op. cit. p181.

حرب رأسمالية حدثت في حياتهما، وأن السؤال الوحيد الذي كانا يطرحانه كان: «نصر أي جانب يكون أفضل للديمقراطية والاشتراكية؟ . .». لينين دافع عن نفسه بطريق غير مباشرة أيضاً، وذلك بالدفاع عن موقف جاد، وهيندمان. فقد كتب «بأنه من المنطقي تماماً أن يعبر هذان الممثلان المستقيمان الحاسمان للديمقراطية الاجتماعية الثورية العالمية، ودون «إذا» «ولكن» عن تعاطفهما مع اليابان التي أخذت تمزق الأوتوقراطية الروسية. فعلى الرغم من أن الاشتراكيين هم أعداء جميع البورجوازيات، فهذا لا يحررهم من واجب التمييز تاريخياً بين ممثلين تقدميين وبين آخرين رجعيين لهذه الطبقة»[1].

في عام 1913، عندما استولى البلغاريون على أدريانوبل في حرب تحالفت فيها بلغاريا، وصربيا، واليونان، والجبل الأسود ضد تركيا، أعلن لينين «بأن انتصار بلغاريا يشكل حلقة في سلسلة أحداث عالمية تعني انهيار القرون الوسطى في آسيا وأوروبا الشرقية». قيادة الطبقات الاقطاعية والبورجوازية لهذه الحرب لم تنزع عنها طابعها التقدمي بل جعلتها خطوة مهمة « . . . في خلق دول قومية موحدة في البلقان، في خلع نير الإقطاعات المحلية، في التحرير النهائي لفلاحي البلقان في مختلف القوميات من سيادة مصالح ملكيات الأرض الكبيرة»[2].

التقليد اللينيني خلق بعض النعوت الازدرائية للشيوعيين «اليساريين» أو الذين كانوا يرفضون التسويات، والإصلاحات أو استخدام الأنظمة التي كانت تشكل جزءاً من النظام البورجوازي، وهو تقليد اقترن بمعارك سياسية خاضها لينين ضد «المقاطعين» (الذين أرادوا الحزب مقاطعة انتخابات الدوما)، «الانسحابيين» (الذين أرادوا انسحاب الممثلين البولشفيك من الدوما)، و«الشيوعيين اليساريين» (الذين عارضوا معاهدة بريست ـ ليتوفسك.

إن لينين كان يقول بأن الصراع البرلماني، أو الصراع لأجل بعض المنافع الاقتصادية أو بعض الإصلاحات يجب أن يكون جزءاً من الصراع الطبقي الجامع.

---

(1) WOLFE, BERTRAND, Marxism, loo years In the life of a Doctrine, Delta, 1965, p85.

(2) Ibid, p87.

فالحزب لا يستطيع أن يخسر من هذا التكتيك لأن الفوائد التي يحققها تكون سلاحاً يمكن للحزب استخدامه في سبيل مقاصده العليا، وهي إن ألغيت من قبل النظام فإن الإلغاء يقود إلى خيبة العمال وفقدان ثقتهم به وبالديمقراطية. الحزب يكون رابحاً في كلا الحالين. اللينينية تنظر نظرة شك واحتقار إلى كل شيء يشكل جزءاً من النظام الرأسمالي، ولكنها ترى أن كل ظاهرة من ظواهر هذا النظام التي تدعو إلى الاحتقار والازدراء يمكن أن تُطوّع في خدمة نضال الحزب نحو إقامة سلطة جديدة، وخلق مجتمع جديد. إنه ليس من الممكن فقط استخدام هذه الظواهر بل يجب استخدامها إن أراد الحزب أن ينجح.

ولكن رغم هذا التوكيد على ضرورة العمل من داخل الأنظمة التقليدية من إقطاعية وبورجوازية، فإن لينين نبه من ناحية أخرى إلى ضرورة تجنب أي عمل أو تسوية لا تنسجم مع المقاصد الثورية أو تؤدي إلى إغفالها. فالانتهازية هي بالضبط الاستعداد إلى التكيف والتعامل مع الفترة الراهنة إلى درجة كبيرة لا تنسجم مع الثورة، وتقود إلى تجاهل مقاصدها العليا. الانتهازي هو من يتجاهل هذه المقاصدوينسى أن عمله في الواقع يجب أن يكون موجهاً ومنضبطاً بها. أما اليسار ـ المتطرف أو الطفولي فإنه يرفض هذا النوع من العمل في داخل الأنظمة التقليدية أو التسوية معها، وينشغل تماماً بالمقاصد الثورية النهائية إلى درجة ينسى معها أن عمله الثوري يعني موانع وصعوبات يكشف عنها الواقع ويجب عليه معالجتها وتطويقها، فيقف خارج الواقع ويخسر بالتالي قدرته في التأثير عليه.

إن لينين كان يميل إلى الاعتقاد بأن اليسار المتطرف يشكل خطراً أشد على الحزب من الانتهازيين.

عندما حل ستوليين الدوما الثانية (البرلمان) عام 1907 وأمر بانتخابات جديدة بعد إصدار قانون انتخابي جديد، كان المقصود منه تخفيض عدد الراديكاليين فيها وتحويلها إلى أداة طيعة في يد الحكومة، لم يرفض لينين هذا العمل اللا قانوني بل ازداد تصميماً على دخول الشيوعيين الانتخابات الجديدة، ما أثار دهشة وخيبة معظم هؤلاء آنذاك. أما هدف لينين فكان استخدام الدوما كمنبر للدعاية الثورية للحزب

وسياسته، والإعلان عن استحالة الطريق الدستوري في تحرير الشعب سلمياً.

إن لينين وجد أن مجالس السوفيات، التي برزت عفوياً تقريباً عام 1905 والتي رجعت إلى الحياة عام 1917، الشكل الصحيح لحكومة بروليتارية. ولكنه أهملها عندما وجد أنها غير مفيدة، ثم امتدحها فيما بعد عند الاستيلاء على السلطة باسم مؤتمر السوفيات، ولكن لم يلبث أن ألغاها كي يمنع التدخل بالحكومة الجديدة.

في معاهدة «بريست ـ ليتوفسك» تنازل الاتحاد السوفياتي عن أوكرانيا، فنلندا، بولندا، استوانيا، وليتوانيا. هذه المناطق أصبحت دولاً جديدة بعد الحرب العالمية الأولى (ما عدا أوكرانيا) خلقها الحلفاء وصنعوا منها مع دول أخرى تمتد من فنلندا إلى رومانيا ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا حزاماً حول الاتحاد السوفياتي أرادوا منه مقاومة امتداد ثورة إيديولوجية البولشفيك.

المناطق الجغرافية التي تنازل عنها البولشفيك في هذه المعاهدة مع ألمانيا كانت تعني أيضاً التنازل عن 40٪ من صناعة البلاد ومن السكان الصناعيين، 70٪ من إنتاج الحديد والفولاذ، 90٪ من صناعة السكر[1]. قبل القبول بهذه المعاهدة القاسية حدثت مناقشات حادة جداً في الحزب، وفي أثناء ذلك كان الجيش الإلماني يتابع تقدمه في الأراضي الروسية ويزيد بالتالي من قسوة شروط المعاهدة.

هذه التسوية الكبرى كانت تعود إلى موقف لينين وإلى جهده الجبار في إقناع الآخرين بضرورتها لأنه لم يكن هناك من مخرج أو بديل عنها إن هم أرادوا الاحتفاظ بالثورة واستمرارها.

الانتقادات التي وجهت إلى لينين والمخاوف التي عبر عنها رفاقه آنذاك في قيادة الحزب كانت شديدة وشرسة. إن بوخارين صرح «إننا نحول الحزب إلى كومة من الروث» ثم انفجر باكياً. والآخرون وجدوا أن المعاهدة تشكل كارثة تصيب الحزب وروسيا لأنها تعني سلخ جميع الأقاليم التي أُلحقت بروسيا ابتداء من القرن السادس عشر، تهدد بتحويلها إلى دولة ـ دمية في يد إلمانيا، وتنذر بانتفاضة شعبية ضد الحزب تنهي وجوده. هؤلاء كانوا يرون أنه ليس من الأفضل متابعة الحرب بأيادٍ عزلاء

(1) الاتحاد السوفياتي استرجع نهائياً هذه المناطق التي تنازل عنها أثناء الحرب العالمية الثانية.

والموت في حرب تحريرية ثورية بدلاً من القبول بسلام من هذا النوع الرازح في العار! قبول معاهدة كهذه يعني أن لينين تحول إلى جبان! . .

أما الإشتراكيون اليساريون الثوريون، الذين كانوا حتى ذلك الوقت حلفاء البولشفيك، فقد صرحوا بأن هؤلاء «باعوا بلادنا». وفكروا في الواقع بحركة انقلاب ضد لينين لأنهم اقتنعوا آنذاك بأنه عميل ألماني، وأن البولشفيك جماعة من «الخونة» و«جواسيس إلمان».

إن عدداً من البولشفيك، ومنهم تروتسكي نفسه، استقالوا وكان من الضروري التوسل إليهم بأن لا يعلنوا عن استقالتهم بل يتركوها سراً كي لا يكشفوا عن انقسامات في صفوف البولشفيك. بوخارين دعا إلى حرب ثورية واتهم لينين بأنه يشجع الوهم بأن المعاهدة ستوفر فترة راحة يحتاجها النظام.

في عام 1921 أعلن لينين ما أصبح معروفاً باسم «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي كانت في الواقع انسحاباً على جبهات عديدة. إنها سمحت للفلاحين بامتلاك الأرض وحتى استخدام العمال، جعلت التجارة الخاصة شرعية، سمحت بالصناعة الخاصة الصغيرة، وأبقت الصناعة الثقيلة في يد الدولة. فعلى الرغم من مقاومة شديدة من «يسار متطرف» أمرت السياسة الجديدة بالرجوع إلى الكثير من التشكيلات البورجوازية التي جعلت الإجرة، والفائدة، وقطاعاً خاصاً من الأعمال التجارية والصناعية لأجل الربح، أموراً مشروعة. الصناعات الكبيرة المهمة فقط، كالخطوط الحديدية، والمناجم، والغابات، والبترول، بقيت تحت سلطة الدولة. وحتى في هذه الأخيرة نالت الشركات بعض الامتيازات الخاصة. «إنه من الممكن القول إن روسيا في ذلك الوقت لم تكن شيوعية أو حتى إشتراكية»[1].

كثيرون من الشيوعيين رضوا بهذه السياسة بقدر كبير من التردد والحذر لأنهم اعتبروا أنها استسلام للبورجوازية وللفلاحين، وتشجيع لنمو رأسمالي في الريف لأنها أعطت الفلاح حق الملكية وحرية التصرف بمحاصيله. منعت جره إلى التعاونيات والمزارع المؤممة، وفرضت عليه ضريبة مقابل التصرف بحرية بالفائض من محاصيله. آخرون كثيرون رأوا فيها خيانة للشيوعية.

(1) J.J. Servan-Schreiben Le Defi American Denoël, 1967, p204.

الوضعية الاقتصادية السيئة هي التي دفعت لينين إلى هذه السياسة. ففي المرحلة الأولى بعد انتصار الثورة عندما كانت الجهود كلها موجهة نحو إقامة النظام الجديد وحمايته من الأعداء في الداخل والخارج، انخفض الإنتاج الصناعي إلى 21٪ مما كان عليه قبل الحرب. «السياسة الاقتصادية الجديدة» كانت تعني فقط انسحاباً تكتيكياً بسبب ظروف المرحلة، والحزب أعلن آنذاك أنها كانت، في الواقع، خطوتين إلى الوراء وخطوة إلى الأمام.

لينين ورفاقه فتحوا أيضاً الإدارة والاقتصاد للخبراء البورجوازيين الذين كانوا يحتاجون إلى خبرتهم، رغم المعارضة في داخل الحزب التي كانت تهاجم هذه السياسة التي تعني، في رأيهم، تكريس سيطرة الأسياد السابقين وتعطيهم بعض الامتيازات الخاصة.

حتى في أواخر العشرينات كان الاتحاد السوفياتي مضطراً إلى الاعتماد على أعداء الإشتراكية في الداخل. فالنظام اضطر بسبب الأوضاع الاقتصادية المفجعة إلى تقوية تلك الطبقات الأكثر عداء للاشتراكية وإلى توسيع قاعدتهم في القطاعات التي كانت لا تزال رأسمالية[1]. بعد مرور خمس عشرة سنة على الثورة، كشف تقرير سوفياتي عام 1932 بأن 50٪ من موظفي بعض القطاعات في الإدارة السوفياتية لا يزالون موظفين قيصريين سابقين[2].

الأوضاع والظروف الداخلية والخارجية كانت تفرض باستمرار على الاتحاد السوفياتي القيام بأعمال، والقبول بتنازلات لا تنسجم مع الثورة أو تتعارض معها. التمثيل على ذلك يحتاج إلى مجلد ضخم، ولكن الأمثلة التي قدمناها على جوانب مختلفة من هذه الناحية كافية في التدليل على ذلك. هذا التقليد اللينيني جعل الحزب الشيوعي السوفياتي يميز نفسه بمرونته الفريدة في التكتيك والممارسة، وبقدرته الفائقة على ضبط الأحداث وسيادتها.

الحركة الثورية تجابه دائماً اختيارات صعبة تفرض عليها تنازلات رهيبة. ولهذا

---

(1) HOROWITZ, DAVID,: Empire And Revolution Vintage Books, 1969, p133.

(2) Barrington, Moore,: Soviet Politics: The Dilemma of Power, Harper, 1965. p163.

فإن اليسار الثوري الذي يعبر عنها يجب، أمام هذه الاختيارات، أن يعرف كيف يختار أقلها ضرراً في المدى البعيد، مهما كانت النتائج المباشرة التي تترتب على ذلك سيئة. اللينينية تميزت بقدرة فريدة ليس فقط على إدراك ذلك بل على العمل بفاعلية ونجاح مع هذا الإدراك وبموجبه.

* * *

السياسة السوفياتية بعد وفاة لينين كانت أمينة لهذا التقليد اللينيني حول الممارسة الثورية ودللت باستمرار على قوته.

الاتحاد السوفياتي مارس أولاً، أثناء العشرينات وحتى أواسط الثلاثينات، إستراتيجيا «يسارية» في سياسته الخارجية. إنها نشأت من أمل لينين ورفاقه بثورة شيوعية في أوروبا الوسطى والغربية. تحقيق هذا الأمل كان يتطلب قبل كل شيء تدمير سيطرة الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية على معظم الحركات النقابية في أوروبا. إنها سياسة كانت تعتبر الرأسمالية العدو الأول، وأن الثورة الاشتراكية تشكل بالتالي القصد المباشر. ولكن بما أن جميع الأحزاب الأخرى كانت، في نظرها، رأسمالية أو متحالفة مع الرأسمالية، فإن الموقف الشيوعي تجاهها كلها، وبشكل خاص تجاه الاشتراكيين، كان الدعوة إلى جبهة موحدة من تحت، أي جبهة تضم البروليتاريا، الفلاحين الفقراء، والبورجوازية الصغيرة.

ولكن تغير الأوضاع الدولية قاد الاتحاد السوفياتي إلى التحول عن هذه الاستراتيجيا اليسارية واستبدالها بإستراتيجيا أخرى تسمى عادة بالاستراتيجيا اليمينية، بلغت أوجها في أواسط الثلاثينات وامتدت حتى أواخر الأربعينات، باستثناء مرحلة قصيرة انقطعت فيها أثناء ميثاق هتلر وستالين، في أوغسطس 1939 إلى يونيو 1941. هذه الإستراتيجيا ترتبت أولاً على فشل الإستراتيجيا الأولى في إفراز الثورة الشيوعية التي كانت تتوقعها، ونتجت عن حاجة الاتحاد السوفياتي إلى التعاون مع الدول الغربية، تعاوناً يمتد إلى الأحزاب الشيوعية والأحزاب الأخرى، وذلك ضد خطر الفاشستية الذي كان يهدد أوروبا الغربية، والاتحاد السوفياتي بشكل خاص. الفاشستية كانت في تلك المرحلة العدو الأساسي، والإستراتيجيا الجديدة كانت ترمي إلى دعم الديموقراطية البورجوازية الغربية والدفاع عنها. بما أنها لم تكن متجهة آنذاك ضد

الرأسمالية، فإنها دعت إلى محالفات فوقية بدلاً من المحالفات التحتية التي دعت إليها سابقتها في العشرينات، أي إلى محالفات بين الأحزاب الشيوعية والأحزاب المعارضة للفاشستية، بغية إنشاء «جبهة موحدة من فوق» مع الأحزاب الإشتراكية، ومن ثم إلى «جبهة شعبية» تضم أيضاً الأحزاب البورجوازية في اليسار؛ وأخيراً أثناء الحرب، إلى «جبهة قومية» تشمل جميع أحزاب اليمين طالما هي تقاوم الفاشستية.

هذه الجبهات الشعبية كانت تعني في الثلاثينات دعوة الشيوعيين إلى حكومات ائتلافية دون صفة طبقية، تعمل على الحفاظ على الديمقراطية، الدفاع عن السلام، والاستقلال القومي.

الحرب الأهلية الإسبانية في الثلاثينات، ساعدت الشيوعية العالمية بقيادة الاتحاد السوفياتي الحكومة الأسبانية، وكانت أقرب إلى القوى التي تقف إلى يمينها، تساعد الجمهوريين اليساريين بدلاً من الإشتراكيين والنقابيين الفوضويين، وذلك لأنها رأت أن القصد من الحرب أن يكون الدفاع عن الديمقراطية وليس تحقيق الثورة الاجتماعية. الشيوعيون المحليون تناسوا ـ موقتاً على الأقل ـ مقاصدهم الثورية ودعموا، بتوجيه من ستالين، الحكومة ضد التروتسكيين الذين كانوا يريدون إقامة مجتمع شيوعي.

رغبة الاتحاد السوفياتي في تأكيد مبدأ الجبهات الشعبية وعدم الإساءة إلى فرنسا وبريطانيا آنذاك، دفعته إلى تحذير رئيس الوزراء الإسباني الجديد في الثورة الإسبانية بأن يتجنب أية سياسة اجتماعية ثورية، بأن يكسب الطبقة الوسطى، وبأن لا يألو جهداً «في الحيلولة دون أعداء إسبانيا في تحديد الثورة كجمهورية شيوعية».

في عام 1939 أخذ ستالين يمارس سياسة مساومة مع هتلر والديمقراطية الغربية بغية استرجاع الأراضي والمناطق التي سلخت في 1918 ـ 1920. في ميثاق التحالف بين هتلر وستالين، تقاسم الاثنان بولندا واسترجع ستالين دول البلطيك، والمركز المهيمن في أوروبا الشرقية الذي كان يحتله النظام القيصري السابق.

غاية ستالين الأولى من هذا الميثاق كانت، كما يبدو، توجيه مقاصد هتلر الاعتدائية إلى الغرب أولاً، وكسب ما يمكن من وقت في إعداد روسيا لمجابهة إلمانيا. ولكن هزيمة فرنسا السريعة التي لم تكن في حسبان أحد قلبت الوضع. من

ناحية أخرى، إن النفوذ الذي كان يمارسه العسكريون في سياسة اليابان في الثلاثينات واجه الاتحاد السوفياتي بخطر أكيد جعل الشرق الأقصى السوفياتي ومنه منغوليامعرضاً لاحتمال هجوم ياباني. إن هزيمة تصيب النظام آنذاك، وإن كانت محلية ودون إعلان حرب، كانت تستطيع أن تقود إلى سلسلة من الأزمات يمكن لها أن تهدد النظام نفسه. ميثاق عدم الاعتداء بين ستالين وهتلر كان خطوة من خطوات عديدة اتخذها الاتحاد السوفياتي آنذاك لحماية أرضه وبقائه نفسه ضد هذه المخاطر التي كانت تهدده من الشرق والغرب. فبالإضافة إلى سياسة «الجبهات الشعبية»، عقد الاتحاد السوفياتي معاهدات عدم اعتداء عام 1932 مع دول البلطيك، بولندا وفرنسا، بغية حماية جنبه الغربي. في العام نفسه أعاد العلاقات الديبلوماسية مع شان كاي شيك، الرجل المسؤول عن مذبحة الشيوعيين الهائلة عام 1927، والذي كان لا يزال يقود الحرب ضدهم.

الاتحاد السوفياتي أعلن آنذاك، في تعليق على الميثاق «إننا ندرك تماماً الفرق بين الإيديولوجيا والسياسة». أما سياسة هتلر في وضع الشيوعيين الإلمان في المعتقلات فلم تكن مانعاً لعلاقات طيبة، كما أعلن ليتفينوف، وزير الخارجية آنذاك الذي قال «إننا كماركسيين لا نسمح للعاطفة بأن تسود السياسة». الأحداث كشفت فيما بعد أن ما يتوقعه الاتحاد السوفياتي من غزو فاشستي حدث، وأنه كان يحتاج إلى الوقت في إعداد ذاته لهذا الهجوم، ثم إن التحولات التاريخية التي حدثت بعد ذلك كشفت أيضاً أن السياسة الخارجية لأية دولة، ومنها الدول الشيوعية، تتحدد أولاً وقبل كل شيء بمصالح قومية وليس أممية، ولهذا يمكن القول إن سياسة الاتحاد السوفياتي كانت آنذاك تعمل مع حركة الواقع والتاريخ في مرحلة معينة وليس ضدها.

في بداية الثلاثينات استدعت الصناعة السينمائية السوفياتية مجموعة من الأميركيين السود للمساعدة في صنع فيلم حول التمييز العنصري في جنوب الولايات المتحدة. ولكن احتجاج المهندسين الأميركيين البيض الذين كانوا يعملون في الاتحاد السوفياتي في بعض المشاريع الكهربائية، دفع الحكومة السوفياتية إلى إلغاء المشروع وإرجاع السود إلى أميركا.

إن لينين اتهم عصبة الأمم بأنها «عصبة قطاع الطرق» ولكن الاتحاد السوفياتي دخل عصبة الأمم فيما بعد.

موسكو أقامت علاقات ديبلوماسية مع إيطاليا الفاشستية أيضاً على الرغم من أن الأخيرة كانت تضطهد الحزب الشيوعي الإيطالي وتسجن قادته، المؤتمر السابع للكومينترن قرر عام 1935 التضحية بالصراع ضد الإمبريالية في سبيل الصراع ضد الفاشستية. ولكن في العام نفسه باع الاتحاد السوفياتي البترول لموسوليني، أثناء غزو إيطاليا للحبشة.

إن التوجه الإستراتيجي الذي تضمنه كتاب لينين «الامبريالية: آخر طور للرأسمالية» قاد سياسة الاتحاد السوفياتي إلى التعاون مع شتى الأنظمة البورجوازية، والإقطاعية أو القومية إلى التعاون مع شتى الأنظمة البورجوازية، والإقطاعية أو القومية الثورية غير الشيوعية أو المقاومة لها، في آسيا ومن ثم في أفريقيا ومناطق أخرى، لأنه رأى أن الضعف الأساسي في النظام الرأسمالي العالمي كان المشكلة الاستعمارية، وأن مساعدة حركات التحرير القومي في أي لون اجتماعي إيديولوجي كانت فيه، هي بالتالي ضرورية في إضعاف هذا النظام ومن ثم انهياره. فهذا النظام يشكل العدو أو التناقض الأساسي الذي يجب أن تخضع له جميع التناقضات الأخرى.

الاتحاد السوفياتي كان سخياً بمساعدة الانظمة التي دللت على استقلالها عن الولايات المتحدة ومقاومتها لها رغم أنها تكون قد منعت الأحزاب الشيوعية في أراضيها وسجنت أفرادها. ماركسيته أو شيوعيته لم تمنعه من الترحيب بأنظمة عسكرية كانت فضيلتها الأولى بالنسبة إليه موقفاً ودياً نحوه وموقفاً عدائياً أو حيادياً من المصالح الغربية. في هذه الأوضاع كان الاتحاد السوفياتي يرى الدولة مستقلة عن أية طبقة خاصة، وأنه من الأفضل له أو من الضروري التعاون مع دول بدلاً من حركات إيديولوجية.

إن موسكو مارست دائماً سياسة التحالف مع الأحزاب البورجوازية الكبيرة في العالم الثالث، وذلك لأنه اعتبر أن سياستها الوطنية هي سياسة تترتب عليها نتائج تقدمية أو ثورية في البلدان المستعمرة أو النصف ـ مستعمرة، عندما يؤيد الاتحاد

السوفياتي هذه البورجوازية الوطنية في العالم الثالث فذلك لا يعني طبعاً أنه نسي مقاصد الثورة الشيوعية وأحزابها، أو أنه يقف من حيث المبدأ معها، بل إنه يصنع ذلك لأن الحركة الوطنية التي تقودها هذه البورجوازية أو حتى الإقطاعية تمارس دوراً تقدمياً بالقدر الذي تعمل فيه على تحقيق الاستقلال الوطني وتقويض دعائم الإمبريالية.

هذا التأييد كان يمتد إلى الأنظمة الإقطاعية الرجعية ولا يتردد في التعاون معها. ففي العشرينات، في بداية ممارسة هذا التكتيك، دعم الاتحاد السوفياتي ليس فقط ثورة تركيا بقيادة أتاتورك، بل أنظمة رجعية بقيادة شان كي شك، وأمانوله، في صيف عام 1959 زار هايلا سيلاسي، إمبراطور الحبشة، الاتحاد السوفياتي، فاستقبله استقبال الأبطال على الرغم من أن صحيفة «البرافدا» وصفته سابقاً بأنه «ابن آوى الامبريالية». الاتحاد السوفياتي لم يكرمه فقط بإعطائه درجة جامعية خاصة وطيارة خاصة، بل بإعطائه أيضاً وسام سوفوروف العسكري وهو أحد الوسامين اللذين يمثلان أعلى مرتبة بين الأوسمة السوفياتية العسكرية.

في خطبته الوداعية، في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي، أكتوبر عام 1952، حث ستالين الأحزاب الشيوعية، بأن تتبنى موقفاً قومياً في داخل بلدانها المختلفة، وتحاول توحيد جميع الطبقات على أساس مظالم وشكاوى معينة ضد الطبقات الحاكمة.

إن قادة الاتحاد السوفياتي تحققوا تدريجياً ولكن بشكل مستمر أنه يمكن لمقاصدهم ضد الولايات المتحدة أن تجد عونا لها ليس فقط بين الأحزاب الشيوعية، بل في الحركات والحكومات القومية في البلدان النامية. هذا لم يكن نتيجة اتجاهات وتغييرات في الحركة الشيوعية نفسها كانت تتكامل وتنضج مع الوقت. فالمقاصد الشيوعية أصبحت ابتداء من الخمسينات بشكل خاص تقدم تلك التي يمكن تحقيقها أو العمل لها بفاعلية عن طريق الحركات القومية، وأهمها إزالة النفوذ الأميركي السياسي، والعسكري، والاقتصادي والثقافي في كل مكان يصبح فيه ذلك ممكناً.

ابتداءً من عام 1956 ابتدأ الاتحاد السوفياتي يعترف، في الواقع، أن البلدان

النامية تستطيع التطور في طريق اشتراكي بقيادة بورجوازيتها، وأنه على الأحزاب الشيوعية أن تسير وراء هذه القيادة.

هذه الأمثلة العابرة تكشف بوضوح أن الاتحاد السوفياتي ـ رغم مذهبيته المتصلبة ـ دلل في متابعة مقاصده التكتيكية أنه مرن إلى درجة كافية تسمح له بالتكيف مع أية ظاهرة أو واقع خارجي، والعمل على دفعهما نحو مقاصده العليا، وتقييمهما في إطارهما الاجتماعي التاريخي السياسي الخاص في ضوء هذه المقاصد. هذا كان صحيحاً حتى في بداية الثورة الروسية عندما كان الحزب يعبر عن روح ثوري ديناميكي جارف يرى أنه يحمل رسالة إنسانية جديدة تعمل على خلق الإنسانية وصنعها من جديد.

* * *

الماوية تعبر في جميع جوانبها عن المقومات الأساسية التي حددناها سابقاً كمقومات تميز كل يسار ثوري فعّال يستطيع أن يسود قدره ويصنع التاريخ من جديد. من يراجع التجربة الماوية «ويعيشها» يرى أن هذه المقومات كانت أسهل تحقيقاً فيها لأن اللينينية كانت قد مهدت الطريق، حددتها، ومارستها، فكان يمكن للماوية أن تجد فيها تراثاً كبيراً يمكن الرجوع إليه واعتماده، نموذجاً يمكن ليس فقط الاحتذاء به والعمل في ضوئه، بل توسيعه، تعميقه وإغناؤه.

من العبث هنا محاولة أي تدليل منظم (Systematic) على هذه المقومات في التجربة الماوية. فتاريخها كله، من حيث الممارسة، والفكر شاهد جلي عليها. لهذا فإن القصد من الملاحظات التالية هو فقط الإشارة إليها.

إننا نجد قبل كل شيء التوكيد نفسه على الممارسة الثورية الناجحة كقياس ومحك للنظرية والاستراتيجية، فالماوية تؤكد باستمرار ودون انقطاع على ذلك كأساس لليسار الثوري.

«إن كان عندنا نظرية ولكننا نثرثر حولها، نضعها على الرف ولا نمارسها، فإن هذه النظرية تصبح، مهما كانت جيدة، دون معنى. المعرفة تبدأ في الممارسة، والمعرفة النظرية تتوفر عن طريق الممارسة ويجب أن ترجع إلى الممارسة. دور

المعرفة الفعال (active) يعبر عن ذاته ليس فقط في قفزة فعالة من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلانية، ولكن ـ وهذا أهمّ ـ يجب أن يعبر عن ذاته في القفز من المعرفة العقلانية إلى الممارسة الثورية. . المشكلة فيما إذا كانت النظرية تطابق الواقع الموضوعي لا تجد، ولا تستطيع أن تجد حلاً شاملاً في حركة المعرفة من الحسي إلى العقلاني. . الطريقة الوحيدة في حل هذه تماماً هي في توجه جديد للمعرفة العقلانية نحو الممارسة الاجتماعية، في تطبيق النظرية على الممارسة كي نرى إن كانت تحقق المقاصد التي نتوقعها منها. . »[1].

هذا يعني «أن الماركسية ليست مذهباً بل دليل للعمل» وأننا يجب «أن لا ندرس الماركسية ـ اللينينية حرفياً، بل منظور ومنهج مؤسسيها اللذين درسا وحلا بهما المشاكل».

هذه الممارسة يجب أن ترتبط دائماً بموضوعية الواقع الموضوعي المستقلة «فأسلوب العمل الأكثر أهمية والذي يجب على جميع الشيوعيين أن يدركوه بقوة هو تحديد سياسة عملنا بموجب الأوضاع القائمة. عندما ندرس أسباب الأخطاء التي صنعناها نجد أنها كلها ظهرت لأننا ابتعدنا عن الوضع القائم في مكان محدد وزمان معين. وكنا ذاتيين في سياسة عملنا»[2].

ماوتسي تونغ ينبه إلى «القدر الكبير من الأذى» الذي ينتج عن الماركسيين «الذين يقرأون ولكن لا يستطيعون أن يهضموا ما يقرأون، الذين يستطيعون فقط الاستشهاد بطريقة متزمتة باقتباسات منعزلة من ماركس، وأنجلز ولينين وستالين، ولكنهم عاجزون عن تطبيق موقف، وجهة نظر ومنهج ماركس، أنجلز، لينين، وستالين، في دراسة عينية لأوضاع الصين الحالية وتاريخها، أو في سبيل تحليل وحلّ موضوعيين لمشاكل الثورة الصينية». إنه ينتقد الماركسيين «الذين يدرسون النظرية الماركسية ـ اللينينه بشكل مجرد ودون أي قصد. . وليس للكشف عن. . المنهج الذي يمكن به حل مشاكل الثورة الصينية النظرية والتكتيكية، بل لدراسة صرفة

---

(1) Mao-Tse-Tung: of. cit. Vol. I. p304.

(2) Ibid, Vol, IV, p457.

للنظرية. إنهم يطلقون السهم على الهدف ولكن بشكل عشوائي»[1].

من دون هذا الارتباط بالواقع والتحليل الموضوعي له ولحركته ينحرف العمل الثوري، وبدلاً من أن يكشف عن تشابك الجوانب السلبية بالجوانب الإيجابية، يبسط الوضع في مقاييس مطلقة. «فالتحليل الواقعي لأوضاع موضوعية هو، كما قال لينين، أهم شيء رئيسي في الماركسية، الروح الحية للماركسية. بما أنهم لا يملكون منهجاً تحليلياً، فإن الكثيرين من رفاقنا لا يريدون أن يذهبوا عميقاً في قضايا معقدة فيحللوها مرة بعد أخرى، بل يفضلون الوصول إلى استنتاجات بسيطة تكون إما إيجابية مطلقة أو سلبية مطلقة»[2]. أية إيديولوجية مهما تكاملت، تكون عاجزة وغير فعالة إن لم ترتبط بالأوضاع الموضوعية القائمة، إن لم تتفاعل مع الحاجات والاتجاهات المرحلية السائدة، وإن لم تكن قادرة على التسرب إلى الجماهير وقريبة منها[3].

إنه يتكلم عن الماركسيين «الذين ينقصهم روح المادية التاريخية الانتقادي ويعتبرون ما كان سيئاً كشيء سيّئ بشكل تام ومطلق، وما كان صالحاً كشيء صالح بشكل تام ومطلق[4].

هذا التبسيط يخرجهم من الواقع، وبشكل خاص من الواقع الصيني الخاص الذي يعملون فيه ويجب عليهم الارتباط به والانطلاق منه. «إننا نستطيع أن نضع الماركسية موضع الممارسة فقط عندما تندمج بخصوصيات وطننا الخاصة وتحقق شكلاً قومياً واضحاً. . القضية بالنسبة للحزب الشيوعي الصيني هي أن يتعلم تطبيق النظرية الماركسية ـ اللينينية في الأوضاع الخاصة بالصين. بالنسبة للشيوعيين اللينيين الذين يشكلون جزءاً من الأمة الصينية العظيمة، لحماً من لحمها، ودماً من دمها، أي حديث عن الماركسية منفصل عن خصوصيات الصين ليس سوى ماركسية مجردة، ماركسية في الفراغ. لهذا فإن تطبيق الماركسية عينياً وبطريقة ملموسة في الصين وبشكل يجعل كل تعبير لها ذا طابع صيني لا يتطرق إليه الشك، أي تطبيقها في ضوء

(1) Ibid, Vol. III, p19, 21.

(2) Ibid, Vol, III, p165.

(3) Ibid, Vol, IV, P457.

(4) Ibid, Vol, III, pp54-55.

خصوصيات الصين الخاصة، يصبح مشكلة ملحة يجب على الحزب ككل أن يدركها ويحلها»[1].

العمل الثوري يجب أن يتجنب المصالح والمشاعر العابرة ويركز على مصلحة الثورة في المدى البعيد. «يجب باستمرار وفي كل أعمالنا، أن نعتمد مقاييس استراتيجية وتكتيكية بعيدة المدى، فلا نخضع لردود فعل آنية، وانفعالية، قد تسيء إلى الثورة إساءة كبرى. يجب أن ندرك أن العمل الثوري البعيد المدى، ذا النفس الطويل الذي يجب أن يميزه عندما يستحق هذا الاسم، يعني دائماً ضرورة التنازل الموقت هنا وهناك عن بعض المواقع، عن بعض الانتصارات، كي يمكن فيما بعد كسب النصر النهائي»[2]. من ناحية أخرى «يجب أن لا يكون هناك عدد من المهام الرئيسية في وقت واحد.. ففي أي وقت معين يمكن أن تكون هناك فقط مهمة واحدة، تضاف إليها مهام أخرى من درجة ثانية أو ثالثة في الأهمية»[3]. المهام والتناقضات الثانوية التي تكشف عنها أية مرحلة يجب أن تخضع للمهمة الأولى وللتناقض الرئيسي. فالتنازلات والتسويات تحدث حولها وليس حول هذه المهمة أو هذا التناقض. «ليس هناك من شك أنه في كل طور.. يوجد تناقض أساسي واحد فقط يلعب الدور الأول.

لهذا، إن كان يوجد في أية عملية عدد من التناقضات، فإن أحدها يجب أن يكون التناقض الأساسي الذي يلعب الدور الأول والحاسم، بينما يشغل الباقي مركزاً ثانوياً وتبعياً.

لهذا، عندما ندرس أية عملية يوجد فيها تناقضات أو أكثر، يجب أن نكرس كل جهد كي نجد تناقضها الأساسي حالما نعي هذا التناقض الأساسي، يمكن حل كل المشاكل بسهولة»[4].

كل وضع يحتاج إلى وسائل ثورية خاصة به، والعمل الثوري يجب أن يتميز

---

(1) Ibid, Vol. II, p205.

(2) Ibid, Vol. IV, p89.

(3) Ibid, Vol, III, P121.

(4) Ibid, Vol. I, P332.

بالقدرة على اختيار الوسائل الملائمة في كل وضع ولكل مشكلة. «إن مبدأ استخدام وسائل مختلفة في حل تناقضات مختلفة هو مبدأ يجب على الماركسيين ـ اللينينيين التقيد به بدقة. الدوغماتيون لا يرتبطون بهذا المبدأ. إنهم لا يدركون أن الأوضاع تختلف باختلاف الثورات، وهكذا فإنهم لا يرون أنه يجب استخدام وسائل مختلفة في حل تناقضات مختلفة، إنهم على العكس من ذلك، يتبنون بانتظام ما يتصورون بأنه صيغة لا تتغير، ويطبقونها بشكل اعتباطي في كل الأوضاع، ما يحدث فقط نكسات للثورة»[1].

بين الأقوال الصينية المأثورة التي يرجع إليها ماوتسي تونغ في هذا الصدد والتي نجدها باستمرار في كتاباته، نقرأ، «انشد أغاني مختلفة في جبال مختلفة»، و«اجعل القابلية ملائمة للأطباق والثوب لشكل البنية»، الخ.. إن ماو يعلق، «كل ما نصنعه يجب أن يكون بموجب الأوضاع القائمة». هذا لا يقتصر على الصعيد الاجتماعي السياسي الثوري، بل يتجاوزه إلى الأدب والفن. «إننا نتبع المنهج الخاطىء إن نحن تطلعنا أولاً إلى تحديدات الأدب والفن في الكتب المدرسية، ثم استخدمناها في تعيين المبادىء الموجهة للحركة الأدبية والفنية الحالية، وفي الحكم على مختلف الآراء والمماحكات التي تحدث اليوم»[2].

إن تينغ هشاو بينج، السكرتير العام السابق للجنة المركزية في الحزب الشيوعي الصيني والسلطة الفعلية في الصين، كتب مرة عام 1967، «أن الزراعة الخاصة حسنة طالما أنها تؤدي إلى ارتفاع الإنتاج، تماماً كلون القط الذي لا قيمة له، أبيض كان أم أسود، طالما أن القط يستطيع التقاط الفئران»[3].

الماوية ذهبت في الواقع، بعيداً في التأكيد عالى أهمية الوسائل إلى حد القول إن الإيديولوجية نفسها، ومن أي نوع كانت، هي فقط أداة في خدمة الثورة.

(1) Ibid, p322.

(2) Ibid, Vol, III, pp57, 74.

(3) Hsiung, Chieh James; Ideology and Practice, The Evolution of chinese Communism, Praeger, 1970, p200.

الشيوعيون الصينيون كانوا صريحين جداً في هذا الصدد، ومارسوا ذلك بالنسبة إلى الماركسية ـ اللينينية التي كانت محض أداة في خدمة الثورة الصينية، أو كما اقترح ماوتسي تونغ عام 1941 وسيلة في سبيل غاية.

العمل الثوري عمل مرحلي يجب أن ينتقل مرحلة مرحلة إلى مقاصده النهائية، هو عمل يدرك أن لكل مرحلة وسائلها وجوانبها الثورية الإيجابية الخاصة، فيعمل معها، وتكشف عن إمكانات وقوى ثورية مرحلية يجب عليه العمل معها وتعبئتها في سبيل مقاصده رغم أنه قد يتناقض معها تناقضاً جذرياً من حيث المنطلقات الثورية والإيديولوجية.

مبدأ «الديمقراطية» الجديدة» الذي أعلنه ماوتسي تونغ عام 1939 يمثل بشكل واضح على هذه الاستراتيجية المرحلية. هذا المبدأ كان يعني أن الحزب الشيوعي لا يمثل طبقة واحدة فقط، بل تحالفاً طبقياً عريضاً يمكن اعتماده من مرحلة إلى أخرى، مع بعض التغيير المرهون بكل مرحلة، إلى أن يتم إنشاء النظام الجديد ويستقر نهائياً.

الثورة التي كانت تقودها الماوية كانت تعترف بوجود أحزاب أخرى وتشاركها في الحكم. إن أفراد الحزب الشيوعي كانوا عادة يتسلمون ثلث المراكز فقط في مراحل حرب التحرير.

دعوة الحزب القوية إلى جبهة قومية تمثل القوى المعارضة لليابان واستعداده للتعاون مع جميع الطبقات التي تريد تحرير الصين يدلان أنه كان في الواقع أقل «طبقية» في تلك المرحلة من الكيومينتينج الذي لم ينس الحرب الطبقية ضد الشيوعيين حتى أثناء حرب التحرير ضد اليابان. يجب «أن نعمل بموجب مبدأ الجبهة الموحدة، ونقوم بكل ما يمكننا في تجنب الميول اليمينية أو «اليسارية» والارستقراطية المستنيرة هو حالياً أشد خطراً»[1].

العمل الثوري يجب أن يطوق كل الخلافات التي لا تخدم مصلحة التحرير والثورة. «كل الخلافات الداخلية المؤذية للثورة يجب أن تضبط بصرامة»[2]. من

(1) Mao-Tse-Tung, op, cit, Vol, II, p418.

(2) Ibid, P267.

«واجب التقدميين ـ الشيوعيين، الأحزاب الديمقراطية، العمال الذين يتميزون بوعي ثوري، الطلاب، والمفكرين التقدميين ـ أن يتحدوا مع الطبقات التي تقف في الوسط، مع جميع الذين لا يزالون مترددين ومتأرجحي الإرادة في الصين الشعبية، لإعطائهم مساعدة صحيحة، انتقاد ترددهم، تثقيفهم، كسبهم إلى جانب الجماهير، ومنع الامبرياليين من كسبهم. .»[1].

إن النظرية التي «تطالب بتقييد كبير أو قاس للرأسمال الخاص، أو التي تزعم أننا نستطيع ببساطة إزالة الرأسمال الخاص بسرعة، هي نظرية خاطئة كلياً. إنها انتهازية «يسارية» أو نظرية مغامرة»[2].

بعد أن يشير إلى تعاون البورجوازية مع الكومينتينج ينبه ماوتسي تونغ: «بأن ذلك لا يعني أنه كان علينا أن «نكسبها سياسياً أو أن لا نحميها اقتصادياً كما فعلنا، أو أن السياسة اليسارية المتطرفة تجاهها لم تكن سياسة مغامرة، إن سياستنا، على عكس ذلك، كان يجب في تلك المرحلة، أن تعمل على حماية البورجوازية وكسبها كي يمكن لنا أن نركز جهدنا على قتال أعدائناالأساسيين» [3].

إن ماو كان ينبه بأنه «يجب أن نتجنب كل سياسة مغامرة نحو التجار والصناعيين الصغار وفي الوسط، السياسة التي تبنيناها في الماضي في المناطق المحررة، في حماية وتشجيع جميع الصناعات والتجارة الخاصة المفيدة للاقتصاد القومي كانت سياسة صحيحة ويمكن استمرارها في المستقبل. إن سياسة تشجيع الاقطاعيين والمزارعين الأثرياء بنقل نشاطهم إلى الصناعة والتجارة، وهي السياسة التي تبنيناها في مرحلة تخفيض الأجور والفائدة كانت هي أيضاً سياسة صحيحة»[4].

التحولات الاشتراكية يجب أن تكون كلها مرحلية. «توزيع الثروة توزيعاً سريعاً ليس في مصلحة الجيش. في صعيد الإصلاح الاجتماعي من الأفضل أن لا توزع

(1) Ibid, Vol, IV, p429.

(2) Ibid, p368.

(3) Ibid, p209.

(4) Ibid, p:183.

الملكية المنقولة والأرض بل على العكس تخفيض الأجور والفائدة بشكل عام كي يتمكن الفلاحون من الحصول على فوائد ملموسة. إن توزيع الأرض قبل الأوان يضع كامل عبء الحاجات العسكرية على الفلاحين بدلاً من الإقطاعيين والمزارعين الأثرياء..»[1].

هذا فيما يتعلق بتوزيع الأرض، أما ما يتعلق بتأميم الصناعة، «فإن حزبنا سيقاوم ويظل يقاوم بعناد الاعتقاد الراديكالي المزعوم، الذي هو في الواقع اعتقاد جاهل، بأن الطبقة العاملة قادرة أن تسود الرأسمالية والنظام البورجوازي، من دون أن تتعلم من الخبراء البورجوازيين، دون استخدامهم، ودون تدرب طويل جنباً إلى جنب معهم»[2]. حتى أواسط الستينات، أي بعد ستة عشر عاماً على الأقل على انتصار الثورة، هناك في الواقع ما لا يقل عن ربع مليون من الرأسماليين السابقين الذين كانوا لا يزالون يتسلمون 5٪ من إيراد ممتلكاتهم السابقة التي أممتها الثورة.

إن عبارة «تصفية الطبقات» غير موجودة في قاموس الماوية. ما يجب تصفيته هو «الوضع» الطبقي السابق، دور الطبقات السابقة وليس الأشخاص، الهدف هو إرغام هؤلاء عن طريق الإقناع والضغوط الإدارية بتغيير أدوارهم. الطريقة التي حُوّلت فيها أعداد كبيرة من أصحاب المؤسسات الصناعية والتجارية أولاً إلى «مشاركين» يتقاسمون مع الدولة أرباح هذه المؤسسات، ومن ثم إلى مدراء موظفين من قِبل الدولة، تعطي مثلاً واضحاً عن هذا المبدأ، إن ضغط الدولة عليهم لم يكن يرمي إلى طردهم أو إخراجهم من الحياة الاقتصادية، بل إلى إقناع أكبر عدد منهم بالقبول إرادياً بهذا التغيير في وضعهم. تأميم الزراعة نفسها اتبع خطاً مماثلاً، واعتمد في البداية أساليب مماثلة.

عند استلام السلطة وجد ماوتسي تونغ، كما وجد لينين من قبله، أن هناك حاجة إلى تعاون قطاعات غير شيوعية في الإسهام ببناء البلاد من جديد. لهذا أعلن مفهوم «الديمقراطية الجديدة»، وهو المفهوم الذي مارسه في مرحلة الكفاح المسلح عندما

(1) Ibid, p251.

(2) Ibid. P271.

كان الشيوعيون يرحبون بكل مساعدة يمكن الحصول عليها. إنها كانت برنامجاً عملياً غير دوغمائي، يذكر بالسياسة الاقتصادية الجديدة التي أعلنها لينين، إنها دعت بعض الأحزاب القديمة إلى ممارسة أدوار معينة، وإن كانت ثانوية، في الدولة، رحبت بالمرتدين عن حزب الكومنتينج، بالرأسماليين، والصناعيين، والتجار، والإقطاعيين المستعدين للتعاون مع الشيوعيين، وعاملتهم بطريقة جيدة إذ عوضتهم عن أملاكهم واستخدمتهم كمدراء في مؤسساتهم نفسها.

بعد انتصارها نفسه لم تقض الثورة على الرأسماليين أو تخرجهم من المسرح، بل تعاونت معهم واعتمدت عليهم، وفي سياستها هذه تركت لهم امتيازات عديدة، هذه السياسة مرت في المراحل التالية:

في المرحلة الأولى، غداة انتصارها، 1949 ـ 1953 وطدت الثورة المؤسسات الرأسمالية الموجودة، وفي الوقت نفسه خلقت مؤسسات أخرى، ولكن بحدود وضعتها على الأرباح، وشروط تفرض تحسين أوضاع العمال المعيشية.

في المرحلة الثانية، 1953 ـ 1957 عملت الثورة على خلق مؤسسات خليطة تملك الدولة فيها عدداً من الأسهم، ولكنها تبقى في يد الرأسماليين وإدارتهم، أما ممثل الدولة فيها فكان يقتصر دوره عملياً على الصعيد السياسي.

ولكن في مرحلة ثالثة، ابتداء من 1957، كانت الدولة تأخذ على عاتقها مسؤولية هذه المؤسسات وإدارتها، ولكن بعد أن تدفع للملاكين السابقين أي الرأسماليين دخلاً يقسط على عدد من السنين ويعادل أهمية الاستثمارات التي تميز هذه المؤسسات. في بعض الأحوال كان الرأسمالي يستمر في إدارة المعمل، وفي أخرى كان يعطى مهمة تقنية محضة، وفي ثالثة كان يحال إلى التقاعد.

بعد استلام السلطة وطيلة سبعة أعوام، تعاون النظام الشيوعي الصيني مع عناصر «البورجوازية الوطنية» التي كانت أثناء المرحلة الأخيرة من الحرب الأهلية حليفاً للحزب الشيوعي. هذا يعني أن ألوف المؤسسات الرأسمالية استمرت في عملها في الصناعة والتجارة إلى أن أصبحت جزءاً من القطاع العام عام 1956، وعوض أصحابها جزئياً عنها.

إن أهم وثيقة صدرت عن الثورة الثقافية كانت دستور الحزب الذي تبناه المؤتمر التاسع للحزب الذي انعقد في بكين بين 1 ـ 24 نيسان، 1968. في هذه الوثيقة نقرأ مثلاً بأن «البرنامج الأساسي» للحزب الشيوعي الصيني يدعو «إلى إسقاط تام للبورجوازية والطبقات الاستثمارية الأخرى، إقامة دكتاتورية البروليتاريا محل دكتاتورية البورجوازية، وانتصار الاشتراكية على الرأسمالية». هذا يعني أن الثورة لم تكن قد أسقطت بعد تماماً «البورجوازية والطبقات الاستثمارية الأخرى» بعد عشرين عاماً من انتصارها.

الحزب الشيوعي الصيني كان قد تخلى، في الواقع، حتى قبل الغزو الياباني عام 1937، عن الحرب الطبقية التي كانت تتركز على توزيع جديد للأرض، وحاول تحقيق جبهة واحدة تضم طبقات عديدة ضد الاحتلال الأجنبي، وبشكل خاص، العمال، الفلاحين، البورجوازية الصغيرة، والبورجوازية الوطنية.

الحزب الشيوعي الصيني تحالف مع الكومينتينج في العشرينات، وكان يأتمر بأوامر دكتاتورية شين كاي شيك العسكرية«بشكل قلَّ مثيله في تاريخ الأحزاب الثورية»(1). هذه السياسة التي أيدتها موسكو ودفعت إليها، أدت إلى كارثة بالنسبة للحزب الشيوعي الصيني الذي كان ضحية مذبحة هائلة قام بها الكومنتينج ضدهم عام 1927، في وقت كان فيه شان كاي شيك عضو شرف في اللجنة التنفيذية للكومينتيرن. إن ستالين دافع آنذاك عن هذا التحالف وأكد أن المبدأ الذي انطلقت منه هذه السياسة كان صحيحاً رغم فشله. فقد كان على الشيوعيين، كما فسر، أن يقبلوا بعنصر المغامرة في هذه السياسة، لأن نجاح شان كاي شيك كان يعني آنذاك تقليص نفوذ الاستعمار في الصين، ولأن هذه السياسة كانت تمهّد الطريق لنجاح الشيوعيين في المستقبل. فقد كان من المستحيل على هؤلاء تحقيق ما حققوه من حجم ونفوذ كبيرين دون ذلك التعاون، وكان من الوهم المحض القول عام 1923 أو عام 1927 بأنه كان بمقدور الشيوعيين الاستيلاء على جزء مهم من البلاد. ثم أشار بأن هناك أوضاعاً تكون فيها الاستشهادات والتعويذات الايديولوجية من كتابات ماركس ولينين عاجزة

---

(1) BIANCO, L,: Les Orgines de la révolution Chinoise, Gallimard, 1967, pp:101-102.

عن تغيير علاقات القوى الطبقية. إن ثورة 1905 كانت كارثة ولكنها مهدت الطريق وأعدتها لعام 1917[1].

ولكن على الرغم من أن سياسة الجبهة الواحدة مع الكيومينتينج فشلت في السابق، في صيف عام 1927، وأدت إلى سحق الحركة الشيوعية في المدن وفي منطقة «كيانجسي»، فإن ماوتسي تونغ عرض عليه عام 1935 وفي ربيع 1936، تشكيل جبهة واحدة أخرى، ولكن على شرط أن يقاوم اليابان. إن الحزب الشيوعي الصيني، وذلك حفاظاً على الوحدة القومية، رضي أثناء الصراع المشترك ضد اليابان بسيادة شان كان شيك وحزبه على أقسام معينة من الصين، ولكنه ذهب إلى أبعد من ذلك في سياسة هذه الجبهة الواحدة. ففي ما يسمى بـ «اتفاق العاشر من اكتوبر»، أي بعد هزيمة اليابان، تنازل الحزب الشيوعي الصيني عن ثماني مناطق كبيرة لحزب الكومنتينج حباً في تحقيق الوحدة والسلام الداخلي. أما السبب الداعي لذلك، فكان تآمر الكومنتينج الذي كان يخطط لحرب أهلية، وكسب القوى الوسطى الكثيرة في الصين وخارجها»[2].

ما كان لينين قد اعترف به ضمناً عندما أشار إلى حقائق التخلف في روسيا، وإلى حركة التحرر من الاستعمار، أصبح واضحاً في الماوية. إن لينين أشار في الواقع، في تفسيره للإمبريالية أن الدول الاستعمارية، بما فيها طبقات العمال، كانت

---

(1) هذا الفشل وفر لتروتسكي آنذاك فرصة لمهاجمة ستالين والتمرد عليه، فقدم مع زينوفيف وواحد وثمانين آخرين من قادة الحزب رسالة طالبوا فيها باجتماع سريع للجنة المركزية بغية مناقشة هذه الكارثة. إن ما حدث في الصين وبولندا (حيث استلم المارشال بيلسودسكي السلطة عام 1926) وألمانيا، كان في رأيه ورأي أتباعه نتيجة صريحة «للنظرية البورجوازية الصغيرة حول الثورة في بلد واحد». ولكن ماذا كان بمقدور الاتحاد السوفياتي صنعه في حالة الضعف والفقر التي كان يعانيها آنذاك!.. في وضع كان فيه عدد الشيوعيين في الصين حول الستين ألف فقط!. هل كان يمكن للدول الامبريالية القبول بمحاولة شيوعية في الاستيلاء على البلاد كلها؟.. إن تروتسكي نفسه أكد عام 1926 على الضرورة المطلقة بعدم إثارة اليابان وباحترام نفوذها في منشوريا وشمالي الصين، أي استيلاء شيوعي على الصين آنذاك كان سيؤدي على الأرجح إلى تضافر القوى الامبريالية ضده وإلى غزو ياباني لشرقي الاتحاد السوفياتي وهو أمر لم يكن باستطاعة الأخير مقاومته والتغلب عليه في ذلك الوقت.

Ulam B. Adam: Stalin, The Man and His Era Viking Press, 1973, PP: 277-278.

(2) Mao-Tse-Tung: op. cit. Vol IV, pp56-57.

العدو الأول لجميع طبقات المستعمرات، وأن هذه الطبقات ستتحد ويجب أن تتحد ضد الأول. ثم إن لينين طابق بين قيادة المفكرين للحزب الشيوعي وبين البروليتاريا «الحقيقية». عندما يتم الاعتراف بهذه المطابقة يمكن آنذاك للحزب أن يستخدم أية طبقة في بلوغ مقاصده، ومقاصده تكون من حيث التحديد مقاصد بروليتارية.

في مجرى هذه الممارسة الثورية المرنة التي كانت تقترن باستمرار بالتنازلات والتسويات مع الواقع المتحرك، كانت الماوية تدافع عن ذاتها دائماً ليس فقط ضد قوى اليمين بل ضد قوى إلى يسارها. ردها على الأخيرة كان باستمرار أكثر حدة وشدة. الماوية كانت تعتبرها ضحية الطيش الثوري. «بعض الرفاق الذين يتجاهلون الأوضاع الذاتية والموضوعية يكابدون مرض الطيش الثوري»[1].

ماوتسي تونغ كان يتهم هذه القوى بما أسماه بـ«البوتشية (Putchism) لأنها تعني «العمل الأعمى، بصرف النظر عن الأوضاع الذاتية والموضوعية... إن الرفاق الذين يكابدون الطيش الثوري يغالون في تقدير قوى الثورة الذاتية، ويقللون من قيمة قوى الثورة ـ المضادة. هذا التقييم يعود أساسياً إلى الذاتانية (Subjectivism)، وفي النهاية يقود إلى البوتشية»[2] ماو كان يرى أن اليسار الثوري الفعال أو الصحيح يتخذ خطاً وسطاً بين اليمين و«اليسار» «أي انحراف إلى اليسار أو اليمين يخلق انطباعاً سيئاً في الأمة كلها»[3].

في رده على هذا «اليسار» كان ماو يحتفظ بأشد نقده للتروتسكيين الذين كانوا يمثلون قطاعاً مهما فيه.. إنه اعتبر هؤلاء كلاباً تتراكض في خدمة الامبرياليين اليابانيين وعملائهم في غزو الصين وذلك لأنهم كانوا يقاومون أية خطوة نحو السلام والوحدة في الداخل، الديمقراطية والحرية[4]..

في مكان آخر وصفهم بأنهم جماعة مضادة للثورة لأنهم لا يرون أن لكل مرحلة

(1) Mao-Tse- Tung: Selected Mélitany Writings, Peking 1963, p53.

(2) Mao-Tse-Tung: op. vit. Vol. I, pp114-115, 118.

(3) Ibid, Vol, II, p417.

(4) Selected Mélitany Writings, p:269.

استراتيجية معينة، وأن مرحلة المقاومة المسلحة ضد الغزو الياباني هي مرحلة الثورة الديمقراطية وليس الثورة الاشتراكية البروليتارية[1].

إن ماو يكتب بأن التروتسكيين «كانوا في البداية جناحاً ضد لينين في حركة طبقة العمال الروسية، انحط فيما بعد فأصبح عصابة مضادة للثورة بكل ما في الكلمة من معنى» ثم يرجع إلى وصف مماثل أعطاه ستالين لهم وهو:

«في الماضي، منذ سبعة أو ثمانية أعوام، كانت التروتسكية تشكل أحد الاتجاهات السياسية في طبقة العمال، إنها كانت ولا شك ضد الاتجاه اللينيني، وبذلك كانت على خطأ كبير، ولكن على الرغم من ذلك كانت تشكل اتجاهاً سياسياً. . التروتسكية الحالية لا تشكل اتجاهاً سياسياً في طبقة العمال بل عصابة، دون مبدأ ودون أفكار، من المخربين والمنحرفين، عملاء مخابرات، وجواسيس، وقتلة، عصابة من الأعداء ضد طبقة العمال، يعملون في خدمة مخابرات دول أجنبية». بعد هذا الاستشهاد يضيف ماو بأن «التروتسكيين. . . شكلوا زمرة صغيرة مضادة للثورة عام 1929، نشرت دعاية مضادة للثورة تقول فيما تقوله إن الكومنتينج قد حقق حالياً الثورة الديمقراطية البورجوازية، وأصبحت أداة قذرة في يد الامبريالية والكومنتينج ضد الشعب. التروتسكيون الصينيون انضموا دون أي خجل إلى أجهزة الكومنتينج السرية. . وهم في خدمة أمر أعطاه تروتسكي المرتد المجرم بأن لا يعثروا احتلال اليابان الامبريالية للصين، ابتدأوا بالتعاون مع جواسيس اليابان، قبضوا معونات منهم، ومارسوا كل أنواع النشاط الذي يسهل اعتداء اليابان[2].

الصين الشيوعية مارست، كالاتحاد السوفياتي قبلها، ديبلوماسية «واقعية» في سياستها الخارجية رأت أنه من الأفضل أن تتعامل مع دول بدلاً من حركات إيديولوجية. سياستها تجاه الولايات المتحدة تكشف عن ذلك بوضوح.

في سياستها الخارجية كانت الصين تخضع كل شيء لما كانت تعتبره التناقض السياسي ضد الولايات المتحدة التي كانت العدو رقم (1).

---

(1) Ibid, p:169.

(2) Ibid, p:177.

إن الماوية كانت ترى أن العالم كله «مقسوم إلى جبهتين عريضتين كبيرتين، جبهة القوى الرأسمالية المتذيلة بذيل الامبريالية الأميركية، وجبهة القوى الاشتراكية، ولهذا فإن صراع هذه المرحلة يجب أن يقف كلياً في الجبهة الثانية، يدافع عن معاركها الأساسية، ويلتزمها بخطوطها ومقاصدها الكبرى، لأن كل إضعاف للجبهة الرأسمالية الامبريالية هو تقوية ودعم لها. بما أن الأوضاع التي تحيط بهذا الصراع تفرض عليه سحق الطبقات الداخلية المتحالفة، مع الامبريالية، محاربة هذه الأخيرة، الاعتماد على الجبهة الاشتراكية التي تناصر مقاصده ضد الامبريالية، فإن هذه المرحلة تصبح في الوقت نفسه جزءاً من الحركة الاشتراكية العالمية»[1]. بكين بررت سياسة تقربها من فرنسا بافتتاحية في «صحيفة الشعب اليومية» (People's Daily) 21 كانون الثاني، 1964، أعلنت أن السبب هو كون بعض البلدان الرأسمالية تريد تحرير ذاتها من السيادة الأميركية، «ولهذا فهي تلتقي من هذه الناحية مع البلدان الاشتراكية». ما أسماه ماو عام 1946 «بالمنطقة الوسطى العالمية» كجبهة موحدة ضد الامبريالية الأميركية عام 1963 بشكل أصبح يشمل ليس فقط عدة بلدان رأسمالية بل جميع البلدان الرأسمالية في جبهة كبيرة ضد الولايات المتحدة. إن ماو كان لا يؤمن بشيء يدعى الطريق الثالثة بين الاشتراكية والامبريالية.[2].

الصين قضت ربع قرن وهي تدعو إلى الكفاح المسلح ضد الامبريالية الأميركية، قاعدة الرجعية العالمية وعدوة الشعوب التي تسعى إلى التحرر، وتردد دائماً أنه يستحيل على الولايات المتحدة تغيير جوهر سياستها الامبريالية، ولهذا فليس هناك شيء يمكن كسبه من تحقيق تفاهم معها. ولكنها في بداية السبعينات غيرت هذه الاستراتيجية أو السياسة وأصبحت تعمل على التعاون معها ضد الاتحاد السوفياتي، بله تريد الاحتفاظ بقواعدها العسكرية في الباسفيك كاحتياط ضد الخطر السوفياتي الذي أصبح الخطر الأول الذي يتهدد الصين.

في المرحلة السابقة كان كل تعاون مع الولايات المتحدة جبانة وخيانة.

(1) Mao-Tse-Tung: op. vit. Vol. II, p344.

(2) Ibid, Vol, IV, p415.

ومحاولات الاتحاد السوفياتي في الوصول إلى نوع من التسوية أو الوفاق مع الولايات المتحددة كانت ليس فقط جبانة وخيانة من قبل خروشوف، بل انحرافية ضد الماركسية ـ اللينينية من قبل القيادة السوفياتية.

سياسة الصين الشيوعية كانت تؤكد باستمرار على ضرورة القتال ضد العدو وليس على تكييف علاقتها معه عن طريق المفاوضات والتسويات، وكانت تعتبر أن كل تسوية معه تعني استسلاماً عسكرياً. ولكن هذه الاستراتيجية تغيرت في السبعينات إلى نقيضها، وأصبحت تعتمد المفاوضات والتسويات المتبادلة مع الولايات المتحدة. الصين كانت باستمرار تتهم الاتحاد السوفياتي بالاستسلام والانحراف بسبب سياسة التعايش السلمي وخوفه من المغامرة بمجابهة مع الولايات المتحدة، ولكنها أسرعت إلى ممارسة التعايش عندما سنحت الفرصة لها. بين الأسباب التي أدت إلى العداء القائم بين الصين والاتحاد السوفياتي نجد امتناع الأخير عن مساعدتها في تحرير فرموزا. ولكن نجد الآن أن سياسة التعاون بين بكين والولايات المتحدة تتقدم بسرعة، وسياسة بكين أصبحت ضمناً، كما يبدو، راضية بالوضع الراهن، أي استمرار فرموزا في يد الكومنتينج وخارج الصين.

ولكن في الوقت نفسه الذي كانت تتهم فيه الاتحاد السوفياتي بالخيانة والانحراف بسبب سياسة المفاوضة والتسوية مع أميركا كانت الصين تتفاوض معها عن طريق سفارتها في بولندا، وذلك في وقت كانت تقوم فيه أميركا بحربها الاعتدائية الشرسة ضد فيتنام. الصين كانت تهدد الولايات المتحدة وتتوعدها فيما يتعلق بسياستها ضد فيتنام الشمالية ولكنها لم تنفذ ما كانت تقول به. القصة نفسها تكررت بتهديدها للهند في عدائها مع باكستان.

إن الصين التي كانت تبشر بسياسة العنف والحروب الثورية ضد الامبريالية كانت في الواقع تمارس سياسة حذرة جداً ضدها وضد الغرب وتدلل باستمرار على استعدادها للتعايش مع الأنظمة الرأسمالية التي تقبل بتكييف سياستها مع وجودها، ومع أي نظام تجد وجوده في مصلحتها. . فتعاونها ودعمها لباكستان، مثلاً، التي تخضع لنظام هو من أكثر الأنظمة رجعية في العالم قضية معروفة. الصداقة

الديبلوماسية التي كانت تربطها بإندونيسيا في عهد سوكارنو شجعت، أثناء سنين عديدة، الحزب الشيوعي الأندونيسي على القبول بقيادة سوكارنو، ورفض كل عمل ثوري مستقل، لأن ذلك يتناقض مع التحالف الذي كانت توصي به مع البورجوازية الوطنية. دور ماو بالنسبة للشيوعية الأندونيسية كان مشابهاً لدور ستالين تجاه الشيوعية الصينية في العشرينات. والنتائج كانت أشد تدميراً.

إن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي أعلنت مرة في تعليق حول موقف الصين بأن توكيد الأخيرة الاستثنائي على الكفاح المسلح «كالطريقة الثورية الوحيدة» هو مغالاة ثورية فرازيولوجية» القصد منها تغطية «حذر الصين غير العادي في سياستها العملية».

هذه الملاحظات العابرة حول سياسة الصين الخارجية تدل أن الصين كانت، كالاتحاد السوفياتي، تخضع المبدأ الثوري لمنطق الدولة (Raison d'Etat).

* * *

مقومات اليسار الثوري الفعال الذي يعرف كيف يحلل قوى وتناقضات الواقع الموضوعي الخاص به، كيف يداورها ويناورها بالتعامل والتفاعل معها، ويدفعها بصلابة ووعي نحو مقاصده العليا رغم ما يفرضه ذلك من تسويات وتنازلات مرحلية ـ هذه المقومات التي تكشف عنها التجربة السوفياتية والتجربة الصينية تكشف عن ذاتها في جميع الثورات الشيوعية الأخرى الناجحة. مراجعة ممارستها الاستراتيجية والتكتيكية تعني، في الواقع، إعادة الخطوط العامة الأساسية التي ميزت التجربة الروسية والتجربة الصينية. لهذا ليس هناك أية ضرورة بالرجوع إليها كما رجعنا إلى هاتين التجربتين، في التدليل على هذه المقومات. بعض الملاحظات الإضافية العابرة حول بعضها كافية.

إن كاسترو، مثلاً كان ضد أي إصلاح زراعي جذري قبل نجاح الثورة واستقرارها. إن كارلوس رودر ريجينر، الذي أصبح فيما بعد رئيس المعهد الوطني للإصلاح الزراعي، كتب أنه عند مناقشة برنامج الاصلاح الزراعي في نهاية عام 1958، «اتخذ البعض مواقف متطرفة» وأرادوا إزالة الملكيات الإقطاعية تماماً، ولكن كاسترو رفض» بوضوح استراتيجي وتكتيكي فريد» هذه السياسة «لأنها تعني توحيد جميع

الإقطاعيين في البلاد والامبرياليين الأجانب ضدنا» وذلك في مرحلة كان قصدها الأول إسقاط باتيستا. ولكن بعد استلام السلطة، لم يتردد كاسترو في «إزالة العدو الداخلي في الزراعة». أما إزالة «الملكية الاقطاعية الامبريالية»، فقد أجلت إلى مرحلة ثالثة. هذه الخطوات كانت «ضرورية كي يمكن التغلب على العدو شيئاً فشيئاً»[1].

بعد أن تسلم كاسترو السلطة أصبح من المعتاد الرجوع إلى خطاب «التاريخ سوف يبرئني»[2] وكأنه المرجع الايديولوجي الوحيد طيلة مرحلة الصراع الثوري المسلح. ولكن ذلك الخطاب لم يكن يمثل دعوة ثورية جذرية، ولذلك نجد أن كاسترو نفسه يفسر الأسباب المسؤولة عن هذا فيشرح بأنه كتبه بقدر كبير من العناية مركزاً على بعض النقاط بشكل لا يحول دون اتساع الحركة وامتدادها. فلو لم يكتبه بتلك العناية، ولو كان البرنامج أكثر ثورية، لما كان بإمكان الحركة الثورية ضد باتيستا ونظامه أن تجد ما وجدته من صدى ودعم وأن تحقق النصر. فهو أعطى ذلك الخطاب أو البرنامج فقط المضمون الراديكالي الذي يمكن قبوله من قبل عدد كبير من سكان كوبا.

إن كاسترو أعلن: «إننا كنا نعرف ما هو البرنامج الثوري. وإن كنا لم نؤكد على مجموعة من المقاييس الأساسية فذلك لأننا كنا نعلم بأن التأكيد على الاصلاحات والقوانين الثورية في تلك الأوضاع التي كان يدور فيها الصراع ضد باتيستا، سيضعف معسكر القوى التي تقاوم الاستبداد. لقد نجحنا، بقوة الحظ، في تجميع عدد كبير من القوى السياسية والاجتماعية ضد باتيستا. لقد نجحنا في إشراك قطاعات كبيرة من الأمة في جبهة عريضة لأجل هذا الصراع، ولكن هذا كان يعني دعمنا لمواقف محرجة قليلاً»[3].

بعد سقوط باتيستا قاومت قطاعات من البورجوازية الوطنية التعاون مع

---

(1) Draper, T. On Castroism In.

(2) ذكرها DRACHKOVITCH, M, editor, Marxism In the Modern World, Stan ford University Press, 1968, pp201-202.

(3) Fidel Castro: Revolution Cubaine, Présentations de L. Constant, Maspero, Vol, I, 1968, p175-176.

الشيوعيين والانتقال إلى الاشتراكية، وهذا أحدث صراعاً أدى إلى هزيمتها، ولكن هذا الصراع لا ينقض بأي شكل كان صحة استراتيجيا كاسترو ورفاقه باستخدام عداء هذه البورجوازية لباتيستا والتمسك بالتحالف معها طالما هي تسير في ركاب الثورة[1].

إن كاسترو أشار أكثر من مرة بأنه «لا يوجد طريق واحدة في صنع الثورة، وإنني أعتقد بأن هناك أكثر من طريق واحدة، وأن كل هذه الطرق تتحدد بالأوضاع».

إن كاسترو أشار ضمنياً على الأقل بأنه كان ماركسياً ـ لينينياً في مرحلة حرب التحرير في جبال «السيارا مايسترا». فقد قال «لو وقفنا. . عندما كنا قليلي العدد جداً وقلنا بأننا ماركسيون ـ لينينيون، لما كان طبعاً بإمكاننا، على الأرجح، النزول إلى السهول. لهذا أسمينا الحركة شيئاً آخر، ولم نتطرق إلى الموضوع. لقد طرحنا قضايا أخرى يمكن للشعب أن يدركها تماماً».

شي غيفارا أشار، من جهته، إلى النقطة نفسها فكتب:

«إن الاحتكارات، كما هي العادة في قضايا من هذا النوع، ابتدأت تفكر بخليفة لباتيستا بالضبط لأنها عرفت أن الشعب يعارضه ويتطلع لقائد يتميز بعقلية ثورية. هل هناك من ضربة أكثر ذكاء من إسقاط دكتاتور خسر فائدته والاستعاضة عنه «بالمراهقين» الجدد الذين يتحولون في الوقت المناسب إلى خدمة مصالح الامبريالية؟. . الامبريالية لعبت دائماً هذه الورقة. . قبل انتصارنا ارتابوا بنا ولكنهم لم يخافونا. رُسُل الخارجية (الأميركية) ذهبوا مرات عديدة متنكرين كصحافيين للتغلغل في أعماق جبال الثورة، ولكنهم فشلوا في تحليل ظواهر تدل على خطر قريب. عندما أصبحت الامبريالية مستعدة على الرد، عندما تحققت بأن مجموعة الشباب الذين تنقصهم الخبرة، والذين ساروا منتظرين في شوارع هافانا يحملون تصوراً واضحاً عن واجبهم السياسي وإرادة لا تلين في تنفيذ هذا الواجب، كان الوقت قد فات. هكذا في يناير 1959، ولدت أول ثورة اجتماعية في المنطقة الكاريبية وأكثر الثورات جذرية في أميركا»[2].

إنه يكتب أيضاً حول الناحية نفسها، «لو أن كاسترو كان عضوا في الحزب

---

(1) Woodis, J, op. cit. F:236.

(2) GERASSI, JOHN, ed,: Venceremos: Speeches and Writings of Che Guevara, 1968, p133.

الشيوعي لما كان بإمكان الثورة، دون أي شك، بأن تظهر بهذا الشكل الباكر. لو علمت الولايات المتحدة بذلك لكانت أحبطت محاولته في الوصول إلى السلطة، إما بمنعه عن طريق التهديد الفعال بالتدخل، وإما بالتدخل الفعلي، إن رأت ذلك ضرورياً، كما حدث في اليونان، عام 1947، وبالوقت المناسب كي تمنع وصول شيوعي لاتيني إلى السلطة. كاسترو كان النوع الثوري الوحيد الذي كان باستطاعته أن ينجح في ذلك الوضع التاريخي المحدد»[1].

في مناسبة أخرى يكتب غيفارا أيضاً، «الواقع هو أنه لم يكن لدى وزارة الخارجية الأميركية أي سبب وجيه للاعتقاد بأن الثورة الكوبية كانت تعني أي خطر على الولايات المتحدة.

المسؤولون عن سياسة الولايات فوجئوا تماماً عندما أطلقت القيادة الثورية برنامجاً من الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي الجذري، وتابعته ضد مقاومة وزارة الخارجية والكونغرس، فأممت الصناعة والزراعة وفصلت الجزيرة عن نظام السوق العالمية، وحولت ثورة ديمقراطية إلى ثورة اشتراكية»[2].

إمكانات الواقع الموضوعي هي التي يجب أن تتحكم إذن بالعمل الثوري، واليسار الثوري الفعال هو الذي يدرك هذه الإمكانات ويستطيع العمل معها مرحلياً، من مرحلة إلى أخرى. إن شي غيفارا، على الرغم من نقده الشديد «للذين يجلسون منتظرين، إلى أن تتوفر، بطريقة ميكانيكية ما، جميع الأوضاع الموضوعية والذاتية الضرورية للثورة دون أن يعملوا على الإسراع بها» ينبه بشدة أيضاً بأنه من الضروري إدراك الوضع الاجتماعي التاريخي الواقعي وإمكاناته. فهو يكتب مثلاً، «أنه حيث تكون الحكومة قد وصلت إلى السلطة عن طريق شكل من أشكال التصويت الشعبي، مزوراً كان هذا التصويت أم لا، وتحتفظ على الأقل بمظهر من الشرعية الدستورية، لا يمكن تشجيع الكفاح المسلح لأن إمكانات الصراع السلمي لم تكن استنزفت نفسها بعد»[3].

(1) Morray, J. P.: The Second Revolition In Cuba, 1962, p33.

(2) O'connor, James,: The Origins of Socialism In Cuba, Ithaca, 1970, p2.

(3) Guevara, Che,: Guerrilla Warfare, 1961, p14.

في مكان آخر يكتب غيفارا أيضاً «الثوريون لا يستطيعون التكهن بجميع الوسائل التكتيكية المختلفة التي يمكن لها أن تبرز في مجرى صراعهم لأجل برنامجهم التحريري.

إن كفاءات الثوري الحقيقية تجد قياسها في قدرته على اعتماد التكتيكات المناسبة لكل تغير في الأوضاع»[1].

ثم يسرع فيضيف، على الرغم من رفضه المبدئي للانتخابات والطريق البرلماني كأداة للثورة، بأنه «من الخطأ الذي لا يغتفر أن نبخس قيمة ما يمكن لبرنامج ثوري أن يكسبه عن طريق عملية انتخابية معينة. ولكن من الخطأ الذي لا يغتفر أيضاً أن لا نفكر إلا بالانتخابات، وأن نغفل أشكال الصراع الأخرى ومنها الكفاح المسلح في الاستيلاء على السلطة وهو الأداة الضرورية في تطبيق البرنامج الثوري وتطويره» [2].

هنا تجدر الملاحظة أن أنجلز «أعطى حق الانتخاب العام قوة وفضائل قد تشكل» كما يكتب كاريّو، السكرتير العام للحزب الشيوعي الإسباني، «فضيحة بالنسبة لبعض قطاعات اليسار الدوغماتية. فقد كتب، إن سخرية التاريخ العالمي تقلب كل شيء رأساً على عقب. فنحن الثوريين.. ننمو في الأساليب الشرعية بشكل أحسن جداً من الأساليب غير الشرعية.. إن أحزاب النظام (Order) كما تسمي نفسها، أخذت تموت نتيجة الأوضاع القانونية التي خلقتها هي نفسها. إنها تصرخ بيأس مع أوديلون باروت: الشرعية تقتلنا، إن الشرعية هي موتنا، بينما نحن نحصل، في ظل هذه الشرعية، على عضلات أشد ووجوه وردية ونبدو كحياة خالدة. وإن لم نكن مجانين إلى درجة الاندفاع إلى حرب الشوارع كي نرضيهم، فليس هناك في النهاية أي شيء يمكن لهم صنعه سوى تدمير هذه الشرعية الحتمية بأنفسهم»[3].

في عام 1930 كتب غرامشي من السجن مطالباً الحزب بالنضال لأجل الجمعية

---

(1) Guevara, Che,: Le Socialisme et l'homme, Maspero, 1968, p30.

(2) Ibid, p30.

(3) CAEEILLO. Santiago,: Eurocommunism and The State, Lawrence Hallco, 1978, p95.

التأسيسية لأنها ضرورة مرحلية. فقد كتب «إن الإمكانات الثورية في إيطاليا يمكن أن تقسم اليوم إلى بديلين، الأكثر والأقل احتمالاً. الأكثر احتمالاً هي... مرحلة انتقالية.. لن يكون هناك دكتاتورية مباشرة للبروليتاريا، ولكن بين الثورة ودكتاتورية البروليتاريا ستوجد مرحلة انتقال. لهذا يجب على الشيوعيين... أولاً النضال في سبيل الجمعية التأسيسية. تكتيك الحزب يجب أن يكون موجهاً إذن نحو هذا القصد دون خوف من الظهور بمظهر غير الثوريين. في الصراع ضد الفاشستية يجب على الشيوعيين المطالبة بالجمعية التأسيسية قبل أن يسبقهم إليها أي حزب آخر. ليس كغاية في ذاتها بل كوسيلة. إن الجمعية التأسيسية هي شكل التنظيم الذي يمكن فيه لعمل الحزب أن ينمو، ويجب أن تعتبر كأداة في تشويه سمعة جميع المشاريع الإصلاحية، وفي التدليل للطبقة الايطالية العاملة بأن الحل الوحيد الممكن لمشاكل إيطاليا هو الثورة البروليتارية»[1].

هذا يعني بوضوح أن غرامشي يدعو الشيوعيين إلى المشاركة في اللعبة البرلمانية في النظام البرلماني البورجوازي، وذلك لأن هذه الديمقراطية التي يدعو إلى المشاركة فيها هي وسيلة لقتلها.

هذه الأمثلة التي قدمناها تدل بوضوح أن «الماركسيين لم يستثنوا أبداً التسويات. هناك شرط واحد: يجب أن لا تعتبر التسوية قصداً في ذاتها بل مرحلة، ليس نتيجة بل فترة استراحة. يجب أن تكون مرحلة تكتيكية وليس هدفاً استراتيجياً»[2].

«هذه التسويات»كما يكتب ماندال، «ضرورية لأنها تعطي الحركة الثورية فرصة لمناورة القوى المعادية إلى أن تتوفر لها فرصة الهجوم عليها. هذه الضرورة تشكل واقعة موضوعية في كل الحركات والثورات الناجحة. إن روسيا لينين وتروتسكي اضطرت إلى عقد معاهدة بريست ـ ليتوفيسك، ومعاهدة رابالو»[3].

(1) LIRBAN, G, R, edito,: Eurocommunism, its Roots and Future In Italy and Elsewher, Universe Books, 1978, p175.

(2) Jalée, Pierre,: The Pillage of The Third World, Modern Reader, 1970, p112.

(3) Mandel, Ernest,: Critique de L'eurocommunism, Mospero 1978, pp32-33.

مقومات اليسار الثوري كما حددناها في الفصول الأولى واضحة كل الوضوح في التجربة الفيتنامية أيضاً، وهي لا تحتاج في الواقع، إلى مراجعة لأنها لا تزال طريئة في الأذهان، فهي تكشف عن ممارسة استراتيجية تكتيكية مماثلة بشكل خاص لما وجدناه في التجربة الصينية. إنها مثلاً وضعت مثلها على الرف. كل برنامج إصلاح زراعي جذري وبدلاً من ذلك مارست خطاً يقدم الصراع ضد الغزو الأجنبي على أي برنامج اجتماعي واقتصادي ثوري، وركزت على رفع القدرة الزراعية الانتاجية وتخفيض الأجرة والفوائد. فمصلحة الفلاحين كانت تخضع لمصلحة حرب التحرير ككل. بدلاً من الصراع الطبقي الثوري اتجهت حركة التحرير من البداية في أوائل الأربعينات ومن النهاية إلى التعاون مع جميع القوى القومية ومنها ليس فقط البورجوازية، بل الطبقة الاقطاعية نفسها، وإلى تأجيل الاصلاحات الاجتماعية الجذرية إلى أن تكون حرب التحرير قد حققت قصدها. إن جبهة التحرير الوطنية في فيتنام لم تصادر سوى أراضي الملاكين الكبار في البداية، ولكن بعد تدخل الولايات المتحدة الواسع، ابتدأت الجبهة بتوجيه حملتها ضد الملاكين الاقطاعيين من ناحية عامة.

جبهة التحرير اتجهت إلى جميع القوى والاحزاب الوطنية ونجحت إلى حد كبير في ضمها إليها وتمثيلها. أما من حيث نضالها ضد الغزو الأجنبي، الفرنسي أولاً، والأميركي ثانياً، فكانت تمارس سياسة مرنة جداً منفتحة باستمرار للتسويات الموقتة رغم صلابتها الفريدة في متابعة قصدها الأعلى في التحرير النهائي الكامل. إنها كانت في الواقع، تعفي من عنفها المصانع والمزارع التي يملكها أجانب إن رضي هؤلاء بدفع الضرائب.

ما يصدق على ثورة فيتنام يصدق أيضاً على ثورة كوريا الشمالية.

مراجعة تاريخ الثورات الحديثة، ابتداء من الثورة الانكليزية في القرن السابع عشر تدل بوضوح أن مقومات هذا اليسار الثوري التي حددناها في الفصول الأولى كانت أساسياً تعيد ذاتها، وإن كان بقدر مختلف، في «اليسارات» التي كانت قادرة على دفع الثورة والتعبير عنها، على الرغم من أنها كانت تصل إلى بلورة ذاتها عن

طريق التجربة وتفاعلها مع الوضعية الثورية، وليس كما نرى في الثورات الشيوعية، عن طريق نظرية ثورية جامعة منظمة (Systematic) كانت تقترن بسبب مقوماتها وطبيعتها ذاتها بالقدرة على إفراز رؤيا استراتيجية وتكتيكية واضحة تتميز بقدر كبير من الموضوعية، تتقدم وتوجه الممارسة الثورية.

الخاتمة:
من اليسار الثوري
إلى اليسار الوحدوي

هذه الدراسة هي ـ كما أشرنا في المقدمة ـ تقديم نظري عام لدراسة أخرى تليها حول اليسار الوحدوي العربي لأن أي تقييم ليسار خاص معين يحتاج، كي يصبح علمياً ويكتمل، إلى نظرية علمية عامة حول اليسار الثوري بشكل عام. فكل نظرية ثورية تعني ممارسة ثورية في الواقع ترمي إلى تحويله في ضوء تصورها الثوري له، وهذا يتطلب تقديم نظرية علمية جامعة لهذه الممارسة، أي نظرية تحاول أن تكشف عن العناصر الأساسية التي تميزها وتعيد ذاتها في الأشكال والتجارب المختلفة التي تعبر عنها في الواقع، هذا ما حاولت هذه الدراسة القيام به وتحقيقه، وما سوف تكمله دراسة قادمة حول اليسار الوحدوي العربي. بما أننا قدمنا في دراسات سابقة أشرنا إليها في المقدمة نظرية وحدوية علمية، أي نظرية جامعة لتجارب التاريخ الوحدوية، أو للتجارب التي كانت تنتقل فيها مجتمعات مجزأة وكيانات مستقلة من حالة تجزئة إلى حالة وحدة، عينت القوانين العامة الواحدة التي كانت تكشف عنها، فذلك يعني تحقيق الشروط الثلاثة الأساسية التي يجب أن تتوفر لأي وعي ثوري صحيح متكامل الأبعاد ـ نظرية وحدوية عامة، نظرية حول اليسار الثوري بشكل عام، ونظرية حول اليسار الوحدوي الذي يفترض به التعبير، في الممارسة، عن مقومات النظرية واليسار الأساسية.

العمل الوحدوي فشل حتى الآن في تحقيق دولة الوحدة أو تحقيق خطوات

توحيد سياسي فعالة نحوها. . وفشله يعود، فيما يعود، إليه، إلى كون اليسار الذي اقترن به كان يساراً لم تتوفر له هذه الشروط الضرورية. فكان يعمل بعيداً عنها.

في ضوء النظرية الوحدوية الجامعة لتجارب التاريخ الوحدوية التي قدمناها في القسم الأول من كتاب «النظرية الاقتصادية والطريق إلى الوحدة العربية» وخصوصاً في كتاب «من التجزئة. . إلى الوحدة». رأينا أن ما أسميناه بالقوانين الأساسية وأهم ما أسميناه بالقوانين الإعدادية توفرت لنا في أواخر الخمسينات وعبر الستينات، أي عندما كانت مصر تقوم بدورها كإقليم ـ قاعدة في المرحلة الناصرية. لو أن اليسار الوحدوي آنذاك عمل في ضوء نظرية وحدوية من هذا النوع الذي يرجع إلى الظاهرة الوحدوية عبر التاريخ وإلى القوانين العامة التي تكشف عنها، وفي ضوء يسار ثوري من النوع الذي حاولت الدراسة الحالية الكشف عنه، فيحدد ممارسته في ضوء نظرية عامة حول المقومات الأساسية التي كانت تميز اليسار الثوري بشكل عام، لما كان عارض الارتباط بالقاهرة كقاعدة، ولكان ركز كل جهده وإمكاناته على العمل نحو دولة الوحدة عن طريق هذا الارتباط وبه. لو صنع هذا لما كان فشل بالشكل الهائل الذي فشل فيه، ولكان بمقدوره تحقيق خطوات جبارة في الطريق إلى هذه الدولة.

لهذا فإن الدراسة التالية ستتركز على أخطاء اليسار الوحدوي وانحرافاته في تلك المرحلة، وفتح حوار عام حولها بغية تصحيحها. ولكن بما أن التصحيح يحتاج إلى مقياس علمي عام، وبما أن هذا المقياس لا يصح دون نظرية عامة حول الظاهرة الوحدوية عبر التاريخ وحول مقومات اليسار الثوري الأساسي بشكل عام، من الضروري توفيرها قبل القيام بعملية النقد والتصحيح. هذا ما حاولت الدراسة الحالية والدراسات السابقة التي أشرت إليها تحقيقه. القصد هو طبعاً محاولة متواضعة في تحرير العمل الوحدوي من تلك الأخطاء والانحرافات وإعداده لمرحلة وحدوية جديدة قد تتوفر لنا، فلا ندع الفرصة الجديدة تضيع علينا كما ضاعت سابقتها.

بما أن قضية الارتباط بالقاهرة آنذاك، أي في المرحلة الناصرية، كانت القضية الأساسية التي تفرعت منها هذه الانحرافات والأخطاء، وبما أنها ستكون مرة أخرى القضية الأساسية التي سيدور عليها العمل الوحدوي عندما تعود مصر إلى دورها

كقاعدة ـ أو عندما تتوفر لنا مرة أخرى هذه القاعدة بأي شكل آخر[1] ـ فإن الدراسة التالية حول اليسار الوحدوي ستتركز على هذه القضية وجوانبها.

فشل اليسار الوحدوي كان يعني ـ وخصوصاً لأنه لم يكن يقترن بنظرية وحدوية علمية حول كيفية الانتقال من التجزئة إلى الوحدة، وحول المقومات الأساسية التي تميز اليسار الثوري. بشكل عام ـ ممارسة اعتباطية، أي يساراً تبشيرياً، وذلك بصرف النظر عن نواياه ومقاصده الوحدوية، ومهما كانت أصيلة ونقية هذه النوايا والمقاصد، فالالتزام بقضية الوحدة، وإن كان أساسياً، فإنه لا يعني أن صاحبه يعرف كيف يخدم قضية دولة الوحدة.

ولكن بما أنه يستحيل على أي يسار عربي أن يكون يساراً ثورياً صحيحاًدون أن يكون قبل كل شيء وفوق كل شيء يساراً وحدوياً، ترتبط ثوريته بوحدويته، تنطلق منها وترجع إليها، لأن جميع مقاصدنا الثورية ترتبط بدولة الوحدة، أداة تعبئة إمكاناتنا البشرية والاقتصادية والاستراتيجية في بناء مستقبل عربي جديد، فإن كل حركة «ثورية» في الوطن العربي، كانت مباشرة أو غير مباشرة، جزءٌ من هذا اليسار التبشيري، الذي يعني نتائج تخدم الثورة ـ المضادة، على الأقل في المدى البعيد.

---

(1) على الرغم من أن مصر كانت ولا تزال القطر المؤهل بأن يقوم بدور القاعدة، فمن الممكن حدوث تحولات تنقل هذا الدور لقطر عربي آخر. فإن حدثت مثلاً ثورة اجتماعية في السعودية تلغي النظام الحالي وتوحد أقطار الخليج في دولة جديدة، تصبح هذه الدولة قادرة أن تمارس هذا الدور بشكل يفرض ذاته بسبب وزنها الاقتصادي الهائل الذي يمكن لها استخدامه في تحقيق دولة الوحدة، من ناحية أخرى، إن ظهرت أوضاع وتحولات مناسبة يستطيع فيها العراق وضع نهاية لأنظمة الخليج وضم جميع أقطاره في دولة واحدة، فإن هذه الدولة تستطيع أيضاً، وبقوة وفاعلية أكبر، أن تفرض ذاتها كقاعدة، عندئذٍ يجب على العمل الوحدوي وجميع الوحدويين الاتجاه إليها والارتباط بها. خارج هذين الاحتمالين لا يبدو لنا أن هناك أي احتمال آخر في انتقال هذا الدور إلى أي قطر آخر.

الفهـرس

هذا الكتاب

مرةً جديدة، يطلُّ علينا المفكر القومي الثوري الدكتور نديم البيطار في كتابه هذا، يعالج فيه موضوعاً من أخطر المواضيع التي يحتاجها الثوري إدراكاً ووعياً حتى تكون دليله في مسيرته الثورية الوحدوية. ويقدّم الكتاب مثلاً آخر على سقوط الإنتلجنسيا العربية، بسبب عقليتها التبشيرية التي تتجاهل تماماً الواقع الموضوعي، فتهمل دراسته ووعيه، غير مستفيدة من تجارب الحركات الثورية الوحدوية عبر التاريخ، معتقدةً أنها القادرة بقواها الذاتية، على تحقيق النجاح، في حين أن تاريخها لم يكن سوى تاريخ الهزائم التي اقترنت باسمها وما زالت الأمة تحصد نتائجها المريرة.

ويركز المؤلف على اليسار التبشيري الذي «يتمرد على بعض الأمور دون الأخرى» يركز على ناحية دون أن يربطها بالجوانب الأخرى، فينطلق من مجموعة من الشعارات وليس من وعي ديالكتيكي للمرحلة التي يمر بها كمجموعة مترابطة. في حين أن النظرية الثورية العلمية التي تعبر عن اليسار الثوري يجب أن تكون جامعة شاملة متكاملة. ويدعم المؤلف نظريته بمزيد من الشواهد الثورية التاريخية، ويرى أن مقتل الحركات الثورية هو التناقض بين المثل والواقع أي بين النظرية والممارسة، فنقول: «إن كان عندنا نظرية ولكننا نثرثر حولها، نضعها على الرف ولا نمارسها، فإن هذه النظرية تصبح، مهما كانت جيدة، دون معنى».

